آثار الدكتور يحيى بوعزيز

مع تاريخ الجزائر

في الملتقيات الوطنية والدولية

طبعة منقحة ومزيدة

دار البصائر
للنشر والتوزيع



طبعة خاصة
2009

ردمك: 978-9961-887-77-6

رقم الإيداع: 2009-1020

دار البصائر
للنشر والتوزيع

العنوان: 50 شارع طرابلس – حسين داي / الجزائر

الهاتف / الفاكس: 021 77 36 21 / 021 77 36 27

الفاكس: 021 77 36 25

البريد الالكتروني: darelbassair@yahoo.fr

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة 2008 م
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1991، وجاءت مليئة بالأخطاء المطبعية التي صعب علينا تصحيحها؛ لأن الكتاب صف بالخارج على أوراق بلاستيكية شفافة فاستدركنا هذا في هذه الطبعة الجديدة، وصححناها، وأضفنا إليها موضوعًا آخر بعنوان: التجارب بين حركات المقاومة الشعبية المغاربية. ألقيناه في ملتقى تاريخي بمدينة مدنين جنوب تونس خلال شهر فيفري 1992م.

ونتمنى أن تجد هذه الطبعة الجديدة نفس الإقبال الذي وجدته الطبعة الأولى.

والله الموفق.

د. يحيي بوعزيز

معهد التاريخ - جامعة وهران

وهران - حي جمال

الجمعة 3 صفر (1414هـ)

23 جويلية (1993م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ثمانية عشر موضوعًا تاريخيًّا، أعدت وألقيت كلها في مؤتمرات وطنية بالجزائر، ودولية بالخارج، في تونس، وليبيا، وبرلين الغربية في ألمانيا الغربية. وذلك في الفترة الممتدة بين منتصف عام (1976) وآخر عام (1984) خلال حوالي عقد كامل من الزمن.

أغلبها (16 موضوعًا) يخص تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر من مطلع القرن (16م) إلى منتصف القرن العشرين، ويعالج عدة قضايا تاريخية متفرقة، ولكنها تؤلف في مجموعها وحدة متكاملة متآلفة.

والموضوعان الباقيان: واحد يعالج قضية حضارية مشتركة لكل بلدان المغرب الإسلامي، والأندلس، وصقلية، وجنوب أوروبا. والثاني يعالج مواجهة جزيرة جربة للغارات الأوروبية في القرن السادس عشر، ودور الجزائر، والدولة العثمانية في دعمها ومواجهة تلك الغارات.

وقد نشرت هذه الموضوعات كلها متفرقة في المجلات الوطنية، والدولية، وفي منشورات الجامعة التونسية، وجامعة برلين الحرة، ووزارة الشؤون الدينية، وجامعة الفاتح من سبتمبر الليبية، ومركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

وارتأينا جمعها في هذا السفر لتسهل العودة إليها، وتكون في متناول القراء، والطلبة، والباحثين الناشئين. ورتبناها حسب تواريخ إعدادها وصدورها.

والله الموفق.

د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران

ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين
في المغرب الإسلامي
ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها[1]

إن الحديث عن ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين بإقليم المغرب الإسلامي، وجناحيه الأوروبيين، ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها، يتطلب العودة قليلًا إلى الوراء، لتعرف الأوضاع قبل ذلك. فقد كان إقليم شمالي إفريقيا الغربي، أو شبه جزيرة المغرب، قبيل الفتح الإسلامي، يعيش في دوامة من الاضطرابات الخطيرة التي عرضته للتمزق، والتشتت، والتحطيم، في معظم المجالات؛ لأنه بلي بالاستعمار الروماني الجائر، والشرس، ذي الطابع العسكري كما يتضح من آثاره الباقية حتى اليوم في لامبيس، وتيمقاد، وجميلة، وتبسة، وتبيازة، وشرشال، وبطيوة، وغيرها. والذي كان كل همه تسخير إمكانيات الإقليم الاقتصادية والبشرية، لخدمة مصالح روما، وإيطاليا.

وبعد رحيل الرومان، تسلط الوندال على الإقليم، وكانوا بداة متوحشين، فارتكبوا المزيد من التخريب، والحرق، والتحطيم لمظاهر العمران، والاقتصاد، والثقافة، في إطار مطاردة بقايا الرومان من جهة، ومواجهة مقاومة شعب الإقليم الباسلة من جهة أخرى؛ وليس هذا بالشيء الغريب عن الوندال، لأنهم جبلوا على التخريب في أوروبا وشبه جزيرة أيبيريا، قبل أن يعبروا إلى هنا، ولم تسلم منهم حتى المسيحية ورجالها الذين اضطهدوهم وقاتلوهم، ومنهم القديس أوغسطين السوق أهراسي، العنابي، الذي تزعم مقاومتهم حتى توفي عام (430م) بعنابة.

---

(1) ألقي هذا الموضوع في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي بعنابة خلال شهر جويلية (1976).

وبعد حوالي قرن من الزمن، حل البيزنطيون محلهم في استعمار هذا الإقليم، وواصلوا نفس سياسة أسلافهم الرومان في ممارسة سياسة الإرهاب، والتقتيل، والتشريد، والتخريب للعمران، والاقتصاد، ودخلوا فيما بينهما في صراعات، وتطاحن حول السلطة والنفوذ، واشترك في ذلك رجال الدين والعسكريون والإداريون المدنيون، وامتد هذا التطاحن إلى عاصمة بيزنطة نفسها على ضفاف البحر الأسود الجنوبية الغربية، في شرق البحر المتوسط.

وخلال هذا كله، عانى شعب هذا الإقليم أعباء شاقة: اقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا، تذكرنا بما عاناه حديثًا خلال الاحتلال الفرنسي الذي يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة للاحتلال الروماني لهذه البلاد. ولم يجد وسيلة للتخلص سوى التمرد، والثورة، بأشكال جد عنيفة، وبصورة متواصلة، فاندلعت الثورات وتوالت هذه وراء الأخرى، ومد زعماؤها أيديهم إلى حلفاء خارج الإقليم تمثلوا في المسلمين العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي.

وكان مما ساعد على فك عرى الارتباط بين شعوب شمال إفريقيا الغربي، والإدارة البيزنطية، هو انعدام وجود الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التي قضاها الغزاة البيزنطيون في هذه البلاد. وهذا يذكرنا أيضًا بالعهد الفرنسي حديثًا الذي قضى قرنًا وثلاثين عامًا هنا، ولكنه لم ينجح حتى في إحكام مجرد الصلة مع شعب هذا الإقليم.

ما قدمه الإسلام لهذا الإقليم:

وهكذا استطاع المسلمون العرب، بسهولة ويسر، وفي وقت قصير، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد، ويندمجوا مع سكانها، ويؤثروا فيهم، بفضل المبادئ السمحة للدين الإسلامي الجديد الذي جاؤوا به، ومن أجله، إلى هذه البلاد، وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين والوافدين الجدد، والسكان الوطنيين،

الوحدة الوطنية، والقومية للإقليم، وأزال ذلك التشتت والتمزق الذي خلقه العهد البيزنطي وما قبله. وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للإقليم، مع وحدته السياسية، والدينية، واللُّغوية.

وبعد تحقيق هذه الوحدة السياسية، في إطار الدين الإسلامي الجديد الوافد، ربط الإقليم بالخلافة الإسلامية في دمشق أولًا، وبغداد ثانيًا، وبقي الوضع هكذا حتى عهد هارون الرشيد، ثم حدثت تطورات جديدة، فرضتها الأحداث الجارية، تتمثل في بروز الزعامات المحلية الإقليمية من جديد، وسعيها لتحقيق استقلالها وانفصالها عن الخلافة بالمشرق، ولكن في إطار الإسلام دائمًا على أي حال، وهذا موضوع آخر ليس هذا مكان تفصيله.

وكان أهم شيء قدمه الإسلام الجديد الوافد لهذا الإقليم، وشعبه، هو وحدة العقيدة، واللغة، إلى جانب الوحدة السياسية، والعرقية، والتاريخية، التي كانت له قبل ذلك، وهو أمر هام جدًا لم يستطع الرومان، ولا مسيحية بيزنطة، أن تقدمه وتوفره لهما.

وبفضل وحدة العقيدة واللغة هذه، انكب شعب الإقليم على الخلق، والإبداع، والبناء الحضاري، في جو من الحرية السياسية، والبحبحة الاقتصادية، وقامت بالإقليم مراكز حضارية هائلة لا تقل مكانة عن مراكز الشرق الإسلامي مثل: القيروان وفاس، وتيهرت، وقلعة بني حماد، وبجاية، ومراكش وتلمسان، إلى جانب حواضر الأندلس الكبرى، وصقلية، التي تعتبر جزءًا من هذا الإقليم، ومن خلقه هو، وقد أخصب فيها الفكر، ونفقت التجارة، وتطور العمران، وازدهرت الفلاحة والحياة الاقتصادية في معظم مجالاتها، وتطورت الحياة الاجتماعية، وأنجب الإقليم أبطالًا من عظماء الرجال، وذوي مكانة عالمية، أمثال: طارق بن زياد، وأسد بن الفرات، وجوهر الصقلي، وجعفر بن فلاح، وبلكين بن زيري، وحماد بن بلكين، وعبد المؤمن بن علي، وياغمراس. امتد أثرهم إلى خارج الإقليم، وكان من نتيجة

أعمالهم، خلق الأندلس، وصقلية الإسلاميتين بأوروبا، وتأسيس القاهرة والأزهر، في أرض الكنانة، اللذين تحولا إلى قلعة منذ ذلك اليوم للإشعاع الحضاري الإسلامي.

كما أنجب الإقليم فطاحل الشعراء، والأدباء، والكتاب، والمفكرين، والفقهاء، أمثال: ابن رشيق المسيلي، وسحنون القيرواني، وابن عرفة التونسي، والقاضي عياض السبتي، والشريف السبتي الإدريسي، وابن مرزوق الخطيب، والحفيد، والمقري التلمساني، والغبريني الجرجري، والثعالبي، وابن معطي، والشيخ ابن مروان العنابي، وغيرهم. شاركوا كلهم في بناء صرح تلك الحضارة الرائدة التي ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا ويقظتها[1]؛ لأن حضارة هذا الإقليم الإسلامية هي التي حملها شعب هذا الإقليم نفسه إلى أوروبا عبر جناحيه: شبه جزيرة أيبيريا في شماله الغربي، وجزيرة صقلية، وجنوب إيطاليا في شماله الشرقي، ومن هناك انتقلت وتسربت إلى معظم أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كما سيأتي، وهو صلب هذا الموضوع.

حالة أوروبا في العصر الوسيط:

وفي الوقت الذي كان فيه الغرب الإسلامي، وشرقه، يعيشان هذه النهضة الواسطة سياسيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا، واجتماعيًّا، كانت أوروبا تمر بأزمة تخلف حادة، وواسعة، كثيرًا ما يعبر عنها وعن زمانها، بالعصر المظلم، شملت معظم ميادين الحياة.

ففي الميدان السياسي، كانت صفات الاستبداد، والجور، والظلم، هي الطابع الذي يميز الحكام، والأمراء، والأباطرة. وكان الشكل الإمبراطوري هو السائد على

---

(1) يحيى بو عزيز: جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية **(الأصالة)** عدد 19 الجزائر - مارس - أبريل (1976) ص (287 - 301).

معظم شعوب أوروبا التي حشرت قسرًا تحته، رغم كونها تختلف فيما بينها عرقًا. ولغة، وتاريخًا، وعادات، وتقاليد. ونتج عن كل ذلك انتشار الحروب والثورات والقلاقل، فيما بينها حقبًا طويلة من الزمن[1].

وفي الميدان الاقتصادي كان الفقر هو الظاهرة الغالبة على شعوب أوروبا؛ لأن الأرض التي هي مصدر الثروة والغنى، في العصر الوسيط، كانت ملكيتها احتكارًا لفئة صغيرة وأقلية من الناس، يدعون: رجال الإقطاع، ويتمثلون في الأمراء والملوك، وحاشياتهم، أما أغلبية المجتمعات الأوروبية، فكانت فقيرة معدمة، سخرها هؤلاء الإقطاعيون لخدمة أراضيهم بأجور زهيدة جدًا. وبما أن هذه المجتمعات لا مجال لها للعمل إلا في أراضي الإقطاعيين، فقد أصبح يعبر عن أفرادها بأقنان الأرض، أو رقيق الأرض لارتباط حياتهم بها، ولكن لصالح غيرهم. ومن هنا كثر فيما بينهم تفشي الأمراض المعدية، والأوبئة، والمجاعات الحادة[2].

وفي الميدان الثقافي كان الجهل هو الطابع المميز لأوروبا نظرًا لانتشار الفقر من الناحية الاقتصادية، ولتحكم الكنيسة في الفكر، واحتكارها له وفرضها اتجاهًا خاصًا لا يتلاءم إلا مع مصالحها وسياستها الخاصة. وفي نفس الوقت حرمان الطبقة المثقفة من استعمال فكرها. وبذلك حبست الكنيسة أذهان الأوروبيين في أقفاص مظلمة عدة قرون، ومنعت شعوب أوروبا من التطور الفكري والثقافي. وزاد في الطين بِلة جهل أوروبا، بالوسائل التي تساعد على انتشار العلم، كالورق الذي انتشرت صناعته بالعالم الإسلامي غربه وشرقه[3]. يضاف إلى هذا أن أوروبا لم تكن

---

(1) د. محمد فؤاد شكري، د. محمد أنيس: أوروبا في العصور الحديثة. القاهرة (1956 - 1957) ص (17 - 33).

(2) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى. الجزء الثاني. نظم وحضارة. القاهرة (1959) ص (43 - 91).

(3) نفس المصدر. ص (123 - 1550).

تملك لغة للعلم مشتركة؛ لأن اللاتينية كانت لغة الكنيسة فقط، واحتكارًا لرجال الدين فيها وفي الأديرة.

وفي الميدان الديني احتكرت الكنيسة لنفسها تفسير الكتاب المقدس، وادعت لشعوب أوروبا، أن تعاليمها أزلية من عند الله، وليس من حق أحد أن يناقشها أو يحاسبها على أعمالها، وعلى هذا الأساس خلقت في الدين المسيحي ما ليس فيه، وفرضت سيطرتها حتى على الإطار السياسي المتمثل في الأمراء والملوك، واستغل رجال الدين الأموال الطائلة التي ترد على الكنيسة في حياة اللهو والمجون والخلاعة، وزاغوا عن الطريق المستقيم، وتحولوا إلى رجال أعمال بدلًا من صبغتهم الدينية[1].

وفي الميدان الاجتماعي كانت الطبقية هي السائدة في مجتمعات أوروبا التي قسمت إلى ثلاث فئات متفاوتة: فالنبلاء والأشراف رقم 1، ورجال الدين رقم 2، هم الذين كانوا يتمتعون بكل الحقوق، ويحتكرون لأنفسهم كل الامتيازات، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، رغم كونهم يمثلون أقلية صغيرة جدًّا، بينما الطبقة العامة رقم 3، التي تمثل الغالبية العظمى للشعوب الأوروبية، كانت محرومة من كل الحقوق، وعليها فقط الواجبات والأعباء، لخدمة الطبقتين الأولى والثانية، النبلاء والأشراف، ورجال الدين، ودفع الضرائب التي لا تتناسب مع إمكانياتها المادية المحدودة، لهما وللدولة[2]. إن ظاهرة الطبقية هذه من أشنع خصائص تاريخ أوروبا العصور الوسطى، في حين كانت المجتمعات الإسلامية في الغرب الإسلامي، وشرقه، يسودها العدل، والإخاء، والمساواة الكاملة في الحقوق والواجبات.

---

(1) نفس المصدر. ص (1 - 42).

(2) ج، و. كوبلاند، ب. فينوجرادوف: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا. ترجمة محمد مصطفى زيادة. القاهرة (1958) ص (47 - 133). عاشور ص (63 - 91).

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا:

هكذا يتضح أن هناك عدم توازن من الناحية الحضارية بين العالم الإسلامي غربه وشرقه، والعالم الأوروبي في العصر الوسيط. فبينما بلغ الأول شأوًا عاليًا في التطور والتقدم في أوسع مجالاته، انحط الثاني إلى أقصى درجات التخلف، ومع ذلك لا ينبغي المبالغة في هذا الميدان، لأنه ليس معنى ذلك أن أوروبا ليس لها تراث أصلًا، وكل ما في الأمر أنه عند المقارنة نجد فرقًا كما بينا. ولا شك أن للعالم الإسلامي، بحضارته وتقدمه، تأثيرًا كبيرًا في العالم الأوروبي في العصر الوسيط، ومطلع العصر الحديث.

وقد وصل هذا التأثير الإسلامي إليه عن طريق معابر أربعة أهمها: معبرا الغرب الإسلامي المتمثلان في الأندلس، وصقلية، أما معبر مصر والشام، ومعبر آسيا الصغرى، خلال توسع العثمانيين في شرق أوروبا، فقد حالت الحروب الكثيرة، والطويلة على أديمها دون إيصال هذا التأثير الإسلامي بشكل بارز، وهذا لا يعني التقليل من دورهما على أي حال، غير أن الأندلس وصقلية سيبقى دورهما بارزًا، ورئيسيًا، مع المغرب العربي، في تحضر أوروبا، وتمدينها، وإيقاظها، فعن طريقهما دخلت العلوم والمعارف العربية الإسلامية الأصلية، والإغريقية المترجمة إلى أوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بواسطة تجار إيطاليا. والبندقية، وجنوة، وبيزا. وقد قال ديورانت: إن النقل في الحضارة كشأن التناسل في الحياة[1].

فبلاد الأندلس الإسلامية، التي تمثل المعبر الأول، هي التي قدمت لغرب أوروبا خلاصة الفكر الإسلامي في الآداب والعلوم، والفنون، والفلسفة، وعرفته بكثير من تراث الإغريق القديم الذي حفظه المسلمون من الاندثار، وحموه من الضياع بفضل نقلهم له وترجمته إلى اللغة العربية، لغة العلم والحضارة في العصر

---

(1) ول. ديورانت: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. جـ (17). ط (2) القاهرة (1966) ص (169).

الوسيط[1].

والعجيب في الأمر: أن شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) هذه قبل دخول الإسلام إليها كانت تعيش في جو من الفوضى، والاضطراب الديني، والسياسي، والطبقية الاجتماعية، وذلك لسوء سياسة العناصر القوطية الحاكمة هناك. والتي هي صنوة الوندال المتوحشين الراحلين، غير أن شعوب المغرب العربي الإسلامي، حملت إليها الإسلام، وأصلحت أحوالها، السياسية والاجتماعية، ونشرت في ربوعها وبين أهلها، الأمن والاستقرار، ووجهت شعبها بعد ذلك إلى عمل البناء والتشييد الحضاري كإحياء الأراضي، وتنشيط التجارة، وإنعاش الصناعات، وتطوير حركة العمران، حتى أصبحت في ظل الخلافة الأموية من أغنى بلدان أوروبا وأكثرها كثافة وسكانا. ثم انكب بعد ذلك، ومن ورائه دائمًا، شعوب المغرب العربي التي تعتبر معينا له، على الخلق والإبداع في ميادين: العلوم والآداب، والفنون، وفتح بأعماله وجهوده، آفاقًا كبيرة، وواسعة، لأوروبا خاصة إيطاليا التي ظلت تستفيد منه منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى ما بعد القرن السابع عشر.

وكانت طريقة الشعب الأندلسي المسلم في الحصول على العلوم والمعارف، في بداية أمره، من المغرب والمشرق الإسلاميين، تتم إما باستدعاء بعض العلماء من هناك مثل أبي علي القالي، أو بتسفير بعثات علمية إلى هناك مثل بعثة يحيى بن يحيى الليثي[2].

وإما بجمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي والثقافي، كما فعل الخليفة الحكم الثاني المستنصر[3].

---

(1) د. جمال الدين السيال: أثر الإسلام والعرب في النهضة الأوروبية. القاهرة (1970) ص (365 - 378).

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس. القاهرة (1958) ص (97 - 109).

(3) نفس المصدر. ص (140 - 144).

وبعد أن تشبع المجتمع الأندلسي بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية عن طريق شعوب المغرب العربي، شرع في الخلق والإبداع والابتكار في نفس الخط والإطار. ولم يحل النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي حتى بلغت الحضارة الإسلامية أوجها بالأندلس، وغدت قرطبة إحدى عواصم العالم الكبرى بسكانها الذين زادوا على مليون نسمة، ومنازلها التي زادت على مائتي ألف مسكن، وبأضواء شوارعها الليلية التي لم تعرف مثلها مدينة لندن إلا بعد سبعة قرون من ذلك[1].

ومن أسباب وعوامل ازدهار النهضة الإسلامية بالأندلس، تسامح الإسلام والمسلمين بها، تجاه أهل الذمة من اليهود والنصارى، وإقبال المستعربين الأسبان على تعلم العربية واستعمالها في نشاطاتهم المختلفة، خاصة التأليف والترجمة، باعتبارها لغة العلم والحضارة آنذاك، ثم قيامهم بعد ذلك بدور الوسيط بين هذه الحضارة الإسلامية من جهة، وشعوب غرب أوروبا وجنوبها الغربي، ووسطها من جهة أخرى.

وعندما سقطت طليطلة عاصمة الثغر الأوسط في يد النصارى الأسبان عام (1085م)، تقاطر إليها الأوروبيون من كل الأنحاء للاستفادة من الدراسات الإسلامية، وثقافة المسلمين، فنشطت حركة الترجمة من العربية إلى الإسبانية القشتالية، وإلى اللاتينية، بشكل واسع منقطع النظير، واستمرت كذلك إلى ما بعد القرن الخامس عشر والسادس عشر، سواء من العلوم العربية، أو اليونانية المترجمة إليها مثل: جالينوس، وأبقراط، وأفلاطون، وأقليدس (أيوكليد). ووجد من حكام إسبانيا المسيحيين من قدر الثقافة العربية الإسلامية مثل الفونسو العاشر الحكيم

---

(1) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوروبا. ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي بيروت (1964) ص (499 - 502). أحمد أمين: ظهر الإسلام. القاهرة (1953) ج 3 ص (22 - 23).

(1252 - 1284) الذي أسس مدرسة خاصة للدراسات الشرقية، استخدم فيها أبا بكر الراقوطي كأستاذ ومدرس لأجيال من المسيحيين واليهود على ما قيل، وكان هذا الرجل أعلم علماء عصره على ما قيل أيضًا[1].

وقد عاد هؤلاء الذين تقاطروا على الأندلس إلى أوروبا بالعلوم والمعارف الإسلامية التي فتحت آفاق المستقبل لهم، وأحدثوا في الحياة الذهنية الأوروبية انقلابًا عظيم الأثر في التطور الأوروبي[2].

وبعد الأندلس تأتي جزيرة صقلية كجسر ثان ومعبر، لحضارة المسلمين في الغرب الإسلامي، إلى أوروبا. وهي شبه جزيرة مثلثة الشكل، تقسم البحر المتوسط إلى قسمين، ولا تبعد عن الحذاء الإيطالي إلا بمضيق مسينا الصغير الذي لا يزيد عرضه على ثلاثة كيلو مترات. وفتحها الأغالبة من القيروان بالمغرب الأدنى أوائل القرن التاسع الميلادي، (817م) وبقيت تحت سيطرتهم حوالي قرنين ونصف قرن حتى عام (1060م)، فاهتموا بالأعمال الفلاحية بها. وتطوير وسائل الري، وإصلاح الأراضي، والترع، والسدود، وأنشئوا المجاري المائية المعقوفة، وأدخلوا إليها زراعة القطن، وقصب السكر، واستغلوا ثرواتها المعدنية كالحديد، والنحاس، والفضة، في صناعة العملات، وبعض الآلات والأدوات الأخرى، كما أدخلوا صناعة الحرير، وبعثوا الحركة التجارية وطوروها، ونشطوها، ثم اتجهوا إلى النشاط العلمي والثقافي، حتى حولوا الجزيرة إلى معقل للعلوم والمعارف، وتغنى الجغرافي الإدريسي، والرحالة ابن جبير، بمفاخر هذه الجزيرة العمرانية، والاقتصادية: الفلاحية والتجارية وبقصور، ومساجد، ومتنزهات، ومباهج، وأحياء مدن: باليرمو، وسرقوسة، ومازرة، ومرسى علي، وغيرها[3].

---

(1) الفريد قيوم: تراث الإسلام. تعريب: جرجيس فتح الله. القاهرة ط 2 أكتوبر (1972) ص (354).
(2) ديورانت: نفس المصدر. ص (14).
(3) الشيال: نفس المصدر. ص (379 - 389).

وعندما سقطت هذه الجزيرة في أيدي النورمان في مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، اهتم ملوكهم بالتراث الإسلامي على عكس الأسبان بالأندلس، فشجع روجر الأول Roger 1 مظاهر الحركة الإسلامية، برعايته الجالية الإسلامية الإفريقية، وكتب على مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية، واليونانية، كما كتب بالعربية على نقوده أيضًا. وكذلك فعل روجر الثاني، فكلف الشريف الإدريسي بتأليف كتاب له في جغرافية الأرض، وما يزال حتى اليوم في متحف نورمبورج، الرداء الحريري الذي اعتاد ملوك النورمان لباسه، وهو مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفي يرجع إلى عام (1133م). وحتى فريدريك الثاني في القرن الثالث عشر، أحاط نفسه بالمظاهر العربية الإسلامية، وبحاشية إسلامية إفريقية حتى دعي بالإمبراطور نصف الشرقي. وشجع العلماء، والجغرافيين، والفلكيين، والأدباء المسلمين كثيرًا[1].

ومن هذه الجزيرة الصغيرة حجمًا، والعظيمة تقدمًا، أخذت الحضارة الإسلامية الإفريقية طريقها إلى مدن الحذاء الإيطالي مثل: أمالفي، وبيزا، وجنوة، ومنها إلى فرنسا وغرب أوروبا، ووسطها.

ومن دلائل تأثير الغرب الإسلامي في أوروبا، حضاريًا، أن الملك الإنجليزي جورج الثاني أرسل وفدًا من ثماني عشرة فتاة من بنات أمراء وأشراف إنجلترا على رأسهن ابنة أخيه الأميرة دوبانت، ورئيس ديوانه، إلى بلاط هشام الثالث الأموي بالأندلس لدراسة نظم الحكم والدولة وآداب السلوك وكل ما يؤدي إلى تهذيب المرأة، وأرسل مع هذا الوفد هدية ورسالة، أورد نصها المهندس زكريا هاشم زكريا[2].

---

(1) أحمد توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر 12 ربيع الأول (1365) ط 1. ص (284).

(2) زكريا هاشم زكريا: فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم. القاهرة (1970). ص (24 - 25).

وعلى غراره فعل الملك الجرماني، فأرسل وفدًا برئاسة وزيره الأول ويليمين الذي سماه الأندلسيون وليم الأمين، للتعلم والتزود بالثقافة الإسلامية. وأرسل ملك بافاريا بعثة إلى الأندلس، بعد أن استأذن من الخليفة هشام الأول، لدراسة نظم التعليم ومناهجه، وأساليب الإدارة والحكم. وعند عودته زوده الخليفة بوفد من المسلمين كمستشارين وخبراء ليساعدوا الملك فيليب في كل ما يراه. وأخذ ملوك أوروبا الآخرون يفعلون مثلهم وعلى غرارهم حتى أن كثيرًا من الأعمال العمرانية بأوروبا كالسدود والجسور، أقامها مهندسون مسلمون أندلسيون من ضمنها جسر هشام على نهر التايمز بانجلترا الذي سمي باسم الخليفة هشام الثاني على ما ذكره زكريا هاشم[1].

وقد أكد لوبون بأنه لا يوجد في أسبانيا المعاصرة من أعمال الري إلا ما أنشأه المسلمون وخلفوه وراءهم رغم ما حاوله الأسبان من أجل محو وطمس آثار المسلمين بها[2].

لقد كان دور المسلمين في الغرب الإسلامي وشرقه عظيمًا جدًا، في ميدان الحضارة بالنسبة لأوروبا، فقد حفظوا التراث من الاندثار، وترجموه ونقلوه إلى العربية، لينقل بعد ذلك إلى اللاتينية وباقي اللغات الأوروبية الحديثة، في أواخر العصر الوسيط، ومطلع العصر الحديث، وقاموا بدور الوسيط بعد ذلك بين الحضارات القديمة والحديثة من جهة، وبين الشرق الإسلامي والآسيوي، والغرب الأوروبي من جهة أخرى.

هكذا وجد الأوروبيون عندما استيقظوا من نومهم، تراثًا هائلًا ومعينًا لا ينضب من المؤلفات العربية الإسلامية في شتى العلوم والفنون فمالوا إلى استغلالها

---

(1) نفس المصدر. ص (25).

(2) غوستاف لوبون: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر القاهرة (1964) ص (296).

بمختلف الوسائل خاصة بعد أن اشتد عليهم ثقل الكنيسة وكابوسها، وتزمتها الشديد القاتل، الذي حاول أن يفرض عليهم دائرة ثقافية خاصة وضيقة، فأصبحوا يتطلعون إلى حياة علمية وفكرية أكثر خصبًا، وتنوعًا، وفي جو من الحرية التي اعتادها ابن رشد وأمثاله من المفكرين والفلاسفة المسلمين، فانكبوا على دراسة مظاهر الحضارة الإسلامية بشغف وحماس، ونهم، وشراهة، منقطعي النظير، ترك آثارا واضحة في الحياة الفكرية الأوروبية، وفي جامعات أوروبا منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. فقد اهتموا بتعلم اللغة العربية التي تساعدهم على فهم وترجمة ذلك التراث إلى لغاتهم، مما جعل روجي باكون (1215 - 1292)، يؤكد بأن الفلسفة مستمدة كلها من العربية، ولذلك لا يمكن لأي شخص أوروبي لاتيني، أن يفهم فلسفة العلم، إلا إذا تعلم العربية التي أصبحت شرطًا أساسيًا للمثقف الأوروبي. فأولت الجامعات الأوروبية عناية بها فائقة حتى القرن الثامن عشر، بل وأوائل القرن التاسع عشر. وبقيت آراء ابن رشد المحور الأساسي في تدريس الفلسفة بفرنسا منذ القرن الثالث عشر، واعترف لويس 15 بذلك عندما نظم التعليم في بلاده أواخر القرن 15، وأكد غوستاف لوبون بأن أساتذة جامعة مونبيلي Montpellier لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا في الطب إلا منذ نصف قرن فقط[1].

وحتى في جامعات إيطاليا، خاصة بادوا، كان نفوذ الفكر العربي الإسلامي لا يقل شأنًا عنه في فرنسا، وأصبحت الدراسات الإسلامية ذات شأن كبير، جعلت بيترارك يصيح في وجه مواطنيه قائلًا: يا للعجب ! لقد استطاع شيشرون Ciceron أن ينبغ في الخطابة بعد ديموستين Demosthene واستطاع فرجيل Vergil أن ينبغ في قرض الشعر بعد هيوم، فهل قدر علينا نحن ألا نكتب بعد العرب ! لقد

---

(1) د. غوستاف لوبون: ص (518).

أدركنا الإغريق وجميع الشعوب، وسبقناها في بعض الأحيان ما عدا العرب (المسلمين)، فيا للحماقة، ويا للجهل، للعبقرية الإيطالية الخامدة[1].

حركة الترجمة ودورها في نهضة أوروبا:

والذي ساعد على ازدهار هذه النهضة، هو نجاح تيار حركة الترجمة الواسعة من العربية إلى اللاتينية بواسطة جيل من العلماء والمثقفين ينتمون إلى عدة فئات متنوعة. وهي نفس العملية التي قام بها المسلمون في بداية نهضتهم العلمية في المغرب والمشرق الإسلاميين، فالتاريخ يعيد نفسه هنا في هذه القضية.

لقد ترجم يوسف قمحي اليهودي (1105 - 1190)، في ناربونة كتاب «**المرشد إلى واجبات القلب**» للفيلسوف اليهودي بهية. وترجم صمويل بن طبون اليهودي «**دليل الحيران**» لابن ميمون. وترجم موسى بن طبون كتاب: «**العناصر**» لإقليدس، وكتاب: «**القانون**»، لابن سينا، و«**الترياق**» للرازي، وشروح ابن رشد لأرسطو، ومؤلفات ابن ميمون. وترجم الطبيب والفيلسوف شم طب (1264) كتاب: «**المنصوري**»، للرازي، في مرسيليا. كما ترجمت كتب أخرى مثلها من العربية إلى العبرية مثل كتاب «**التيسير**» لابن زهر في بادوا (1280). و«**كليلة ودمنة**»، وذلك من طرف هذه الفئة اليهودية التي تعرف العربية وهاجر البعض منها إلى جنوب فرنسا[2].

غير أن التيار الرئيسي للفكر الأوروبي من التراث الإسلامي، كان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية. فجمع ريموند المستنير المتسامح (1130) كبير أساقفة طليطلة، عددًا كبيرًا من المترجمين برئاسة دومنيكو جنديلسقي، وعهد إليهم بترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم الطبيعية، وكان من بينهم يهود يعرفون

---

(1) نفس المصدر. ص (591).

(2) ديورانت: ج 17، ص (15 - 16).

العربية ويتقنونها إلى جانب العبرية واللاتينية، مثل حنا الإشبيلي ابن داود الذي ترجم عددًا هائلًا من المؤلفات العربية لابن سينا، والفارابي، والغزالي، والخوارزمي. ومثل جيرارد الكريموني الذي قدم إلى طليطلة عام (1165) وأعجب بتراث المسلمين في العلوم والفلسفة، فترجم واحدًا وسبعين كتابًا عربيًا على ما قيل لعدد كبير من المفكرين المسلمين في مختلف العلوم والفنون والآداب[1].

ويلي الأندلس في الأهمية، في تزويد أوروبا بالثقافة الإسلامية، صقلية الإسلامية كذلك؛ لأن النورمان بعد أن سيطروا عليها حافظوا على التراث العربي الإسلامي، وشجعوه واستعمل فريدريك الثاني في بلاطه المفكر ميخاييل اسكوث الاسكتلندي الأصل للترجمة، وعاش في طليطلة، وبولونيا، وروما، ثم في فوجيا (نابولي). وقام بحركة ترجمة واسعة للتراث العربي على غرار جيرارد الكريموني في أسبانيا، ففتح بذلك آفاقًا لروجي باكون Roger Bacon والبرت ماجنا، في القرن الثالث عشر. وواصل شارل صاحب أنجو عمل الترجمة، وشجعها في جنوب إيطاليا، واستعمل العالم اليهودي موسى من أهل سالرنو في هذه الحركة، كما استعمل اليهودي فرج بن سالم الجرجنتي، الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي، وعددًا آخر من المؤلفات العربية الأصلية أو المترجمة من اللاتينية. ولعب نفس الدور، قسطنطين الإفريقي، والحسن الوزان، الذي يلقب بليون الإفريقي، فألفا وترجما عددًا كبيرًا من المؤلفات العربية إلى اللاتينية[2].

نماذج مما قدمه الغرب الإسلامي إلى أوروبا من مظاهر حضارية، ودورها في يقظتها ونهضتها:

لقد شملت جهود المسلمين الحضارية ميادين كثيرة، في الآداب، والفلسفة،

---

(1) نفس المصدر. ص (16 – 17).

(2) نفس المصدر. ص (18 – 22).

والرياضيات، والفلك، والعلوم الطبيعية، والطب، والجغرافية، والفنون، والصناعات، وغيرها. وكان لشعوب الغرب الإسلامي دور بارز في ذلك، خلقا وإبداعًا من جهة، وتأثيرًا وإيصالًا إلى أوروبا من جهة أخرى.

ففي ميدان الآداب، كان الفكر اللاتيني، يتصف بالجفاف، والجمود، في حين تتصف الآداب الإسلامية بالخصوبة والإبداع، ولذلك اتجه إليها الأوروبيون، ليشفوا غليلهم، ويشبعوا نهمهم، وليزيلوا الجمود الذي سيطر على عقولهم حقبًا طويلة من الزمن، مما جعل روسكين جب يقول: «**ولعل خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها، في شعر ونثر العصور الوسطى**»[1].

فتمكنوا بفضلها من خلق نزعة جديدة في آدابهم الأوروبية تتمثل في النزعة الرومانتيكية خاصة في ميدان الغزل الرقيق، والرثاء الباكي[2].

لقد أثر الأدب العربي الإسلامي المغربي، تأثيرًا كبيرًا، وبالغًا، في الدراسات النثرية الأوروبية، خاصة القصص الخرافية ذات المغزى والهدف الأخلاقي التي تتخذ الحيوان موضوعًا لها. وكان الأدب الأسباني أول من تأثر به، فنقل بطرس الفونس اليهودي مجموعة قصص هندية من العربية إلى الأسبانية عرفت باسم: التعاليم المسيحية. وترجمت كليلة ودمنة إلى الأسبانية عام (1251). وقصة الحكماء السبعة (سندباد البحري) سنة (1253). وتوالى بعد ذلك ترجمة الكتب والدراسات الأدبية في معظم أنحاء أوروبا. وأكد جب بأنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن ما تمتاز به آداب جنوب أوروبا من انبساط وخيال خصب إنما يرجع إلى تأثرها بالبيئة العربية،

---

(1) السير هاملتون اليكساندر روسكين جب: تراث الإسلام. (دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت 1972) ص (189 - 190).

(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج 3. ص (308).

وإلى ما خلفته الثقافة العربية في أهل الأندلس من تأثير[1].

وبفضل هذا التأثير، برز وجه الشبه بين بعض القصص العربية الخيالية، ومثيلاتها الأوروبية في العصرين: الوسيط والحديث، مثل قصة ايزولد ذات اليد البيضاء Isolde Blanche Main وفلوار والزهرة البيضاء: Floire et Fleure Blanche والقاسيني نيكولت: Au Cassinet Nicolette التي لا يرقى الشك إلى أصلها العربي الذي حرف من القاسم إلى قاسيني[2].

وتبدو روح الأدب الإسلامي الأندلسي واضحة في قصة أماديس دوقوالا Amadis de Gauala التي كتبت في القرن (15)، كما تبدو في غيرها من القصص الأوروبية، وقصص الموريسكيين، وبلغت الذروة في قصة «الحرب الأهلية» لجينزبيريز الهيتي Gines Perez de Hitai وهي كلها تشكل مجموعة من الثقافة العربية الأندلسية التي قدر لها أن تصبح نقطة تحول في تاريخ الآداب الأوروبية الحديثة، أدت إلى ميلاد الرواية الحديثة.

وقد أكد بريسكوت Prescott الأمريكي بأن قصة دون كيشوت Don Quichotte للكاتب الأسباني الشهير ميقيل سيرفانتيس Miguel Cervantes (1547 - 1616)، الذي كانت العربية في عهده ما تزال متداولة بالأندلس، تعتبر أندلسية قلبًا وقالبًا، بأناقتها، وحبكتها[3]. وأضاف تراند بأنها كتبت أصلًا بالعربية، وهي لمؤرخ عربي جغرافي اسمه سيدي حامد بنقالي Sidi Hamed Bengueli وذلك لأن جميع قصص الفروسية قد أثر عنها بأنها أخذت من أصل عربي[4]. وهذا

---

(1) لوبون، حضارة العرب، ص (474). وروسكين جب. تراث الإسلام. ص (277 - 279).
(2) روسكين جب. ص (194 و287).
(3) روسكين جب. ص (194 و287).
(4) جون برنارد قراند: تراث الإسلام، ص (71 - 72).

الحكم على قصة سيرفانتيس يسري على قصص أخرى لا تقل شأنًا عنها في ميدان الأدب مثل قصة رودينسون كروس: Rodinson Crusse التي اقتبست من قصة حي بن يقظان للكاتب الأندلسي المشهور ابن طفيل التي ترجمت إلى اللاتينية عام (1671)، وإلى الإنجليزية عام (1708)[1].

وكان للموشحات والأزجال الأندلسية، تأثير كبير في الآداب الأوروبية الحديثة، وبدأت تظهر أواخر القرن التاسع الميلادي على يد محمد بن حمود القبري الضرير المدعو كذلك مقدم بن معافر القبري، وهي السبب في ظهور ما سمي بشعر التروبادور، أو الأداء الغنائي في القرن الثاني عشر بشمال أسبانيا، وجنوب فرنسا قبل أن ينتقل إلى جهات أخرى في جنوب ووسط وغرب أوروبا، وتولد عن هذا الشعر، أو أدب التروبادور، ما عرف بشعر الجونقلور: Jhon Gleurs أو أدب الصعاليك[2] والمشردين مثل قصة الفارس ثيفار Elcavallero Cifar ذات الروح العربية[3].

وأحسن مثل لتأثير الآداب الإسلامية المغربية في الآداب الأوروبية، قصة الكوميديا الإلهية الشعرية لدانتي، التي استقاها واقتبسها على ما يظهر، من قصة ابن عربي وأستاذه ابن مسرة، خاصة القسم المعروف بالفردوس والمعراج، كما أكد ذلك القس بلاثيوس. إذ لا يوجد أي اختلاف بينهما سوى أن ابن عربي استعمل في روايته بطلين، ودانتي استعمل بطلًا واحدًا فقط هو شخصه مقرونًا مرة بفرجيل، وأخرى بعشيقته بياتريسي. ولقصة دانتي هذه الشعرية، شبه كذلك برسالة الغفران

---

(1) جورج يعقوب: أثر الشرق. ترجمة فؤاد حسنين علي القاهرة (1946) ص (81 - 84).

(2) د. سهير القلماوي، د. محمود علي مكي: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. القاهرة (1970) ص (36 - 58).

(3) روسكين جب. ص (188).

للمعري[1].

وكذلك قصة الدو كاميرون Decamerone النثرية المشهورة لجيوفاني بو كاشيو: Giovanni Bocaccio أو الليالي العشرة، التي كتبها على لسان عشرة أشخاص: سبعة رجال، وثلاث نساء، هربوا من الطاعون الذي تفشى في إيطاليا وكل بلدان البحر المتوسط عام (1348)، والذي خصه الكاتبان الأندلسيان: لسان الدين ابن الخطيب القرطبي، وتلميذه ابن خاتمة الميري، برسالتين ما تزالان مخطوطتين على ما قيل حتى اليوم. وكذلك كتاب: Ilcorbaccio الذي وضعه بو كاشيو في مثالب النساء وكيدهن، وخيانتهن، على غرار القصص العربية الإسلامية مما يدل على تأثير الأدب العربي فيها[2].

وكما أثرت الآداب العربية الإسلامية للغرب الإسلامي، في الآداب الغربية الأوروبية، أثرت كذلك فلسفة الغرب الإسلامي في الفكر الأوروبي، وكان لها باع طويل في تطويره خلال العصرين الوسيط والحديث عن طريق الأندلس الإسلامية ومفكريها الكبار الذين اعترف الغرب الأوروبي نفسه بقدرتهم، وبدورهم الكبير، وأكد بيرنارد تراند بأن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلاسفتهم[3]. وذلك أن الفلسفة الإسلامية في الغرب الإسلامي فتحت أمام أوروبا آفاقًا واسعة وجديدة، ووجهت أنظارهم نحو ثقافات لم يكونوا يأبهون لها، حببتهم في الثقافة العربية، فجدوا في طلبها، والأخذ منها. وبواسطتها نفذوا إلى ثقافة اليونان القديمة، وعملوا على كشف ذخائرها[4].

---

(1) سهير القلماوي. محمود علي مكي: أثر العرب والإسلام. ص (114 - 118).
(2) نفس المصدر. ص (118 - 120).
(3) جون بيرنارد تراند: نفس المصدر. ص (55).
(4) د. إبراهيم بيومي: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. ص (191).

فقد اهتم فلاسفة المسلمين بنقل فلسفة الإغريق إلى العربية، وشرحها، ونقدها، وبفضلهم تعرفها الغرب، واشتد حماسه لتعرفها وتذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين، ونقلوها إلى العربية وشرحوها، وعرضوها بصورة شاملة، وأهم فلاسفة المسلمين الذين أثروا في الفلسفة الأوروبية، والعلوم الطبيعية، والطب، والجغرافية، والفنون، فلاسفة الغرب الإسلامي وعلى رأسهم: ابن باجة السرقسطي (1106) وابن طفيل (1107 - 1185)، وابن رشد الذي علقت تعاليمه بتعاليم فلسفة أرسطو[1].

إن ابن رشد أبا الوليد (1136 - 1198) أو أفيروايز Averoes يعتبر أكبر شارح لفلسفة أرسطو التي أعجب بها أيما إعجاب، ووضع لها ثلاثة شروح مما جعل أرنست رينان يقول: إن أرسطو ألقى على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح ما غمض فيه. وأن ابن رشد عندما جاء ألقى على فلسفة أرسطو نظرة خاصة ففسرها وشرح ما غمض منها[2]، ولذلك اعتبر شارحًا أعظم في حين اعتبر أرسطو فيلسوفًا أكبر. ويمتاز ابن رشد بالصراحة، والجرأة في النقد، وفي إعلان آرائه التي عرضته لتهم الكفر والزندقة، فقد انتقد بطليموس، وهاجم ابن سينا، ورد على الفارابي، والغزالي، وكان شديدًا في نقده قاسي اللهجة[3].

ولم يحاول أن يقرب بين آراء أرسطو، والمبادئ الدينية، كما فعل ابن سينا، وابن ميمون. بل عبر عن تعاليم أرسطو بصورة صادقة، وقال بأن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم، وأنكر الخلود والبعث، وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثوابًا أو عقابًا غير ما يلقاه في هذه الحياة الدنيا، واستنكر الاستبداد، وأوضح

---

(1) الفريد قيوم: تراث الإسلام. ص (240).

(2) E.Renan: Averroes et l'averroisme (Paris 1866). P. 12

(3) قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب. القاهرة (1960) ص (206 - 207).

بأنه لا فرق بين الرجال والنساء في الطبع، وإنما في الكم[1].

وقد أثرت فلسفة ابن رشد تأثيرًا كبيرًا، في فلسفة أوروبا، ومنها اقتبس الغرب كل أفكاره الفلسفية. وكان من حسناتها أنها حلت عقال الفكر الأوروبي، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها[2]. غير أن أفكار ابن رشد عارضت اتجاه الكنيسة المسيحية وتعاليمها، فنقمت عليه، وعلى أرسطو بالتبعية، وأصدرت عدة قرارات في القرن (13) حرمت بها تعليم وتبادل آرائهما مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفتهما، ومع ذلك فإن تأثير ابن رشد وأساتذته بقي حتى القرن (15) وما بعده. وأكد دانتي اليجري الشاعر الإيطالي، بأن ابن رشد يعتبر من عظماء الفلاسفة الذين شهدهم التاريخ.

إن تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التي دفعت الأوروبيين إلى عصيان تعاليم الكنيسة، والأخذ بمبدأ الفكر، وتحكيم العقل، على أساس المشاهدة والتجربة، كما أثرت في فلسفة توما الإكويني (1225 - 1274)، تأثيرًا كبيرًا لدرجة أن الفصول التي كتبها عن العقل والعقيدة، وعن عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية، عبارة عن مقابلة لما كتبه ابن رشد في باب: «**فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة**». وأكثر من هذا فإن طريقته في معالجة وجود الله هي طريقة ابن رشد نفسه، ويحوي كتابه «**الخلاصة**» مذاهب إسلامية الأصل؛ مما يثبت أن الأثر الذي تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح لكتابات أرسطو، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير[3]. ويعود ذلك إلى تأثير ابن رشد، وكتبه المختلفة مثل: الكليات في الطب،

---

(1) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوروبية. (مكتبة النهضة المصرية 1957). ص (24 - 29).

(2) طوقان: نفس المصدر. (207 - 210).

(3) Renan ص (237 - 246).

وكتاب الترياق، اللذين ترجما وطبعا عام (1455) بالبندقية، وكتاب السوم الذي ترجم وطبع في بوغدوني عام (1517)، وتوالى بعد ذلك طبعها مرات عديدة[1].

وفي ميدان الرياضيات، خطا المسلمون خطوات هائلة، في تطوير علوم الحساب والهندسة، والجبر، والميكانيكا، وحساب المثلثات، والفلك. فنقلوا أصول هذه العلوم من الإغريق والهنود، ثم عكفوا على دراستها، والاستفادة منها، فأصلحوا ما بها من أخطاء، وأكملوا ما بها من نقص، وأضافوا إليها بعد ذلك معلومات جديدة، خاصة مادة الحساب، لم يكن الأوروبيون على علم بها، ولم يعرفوها إلا منهم وبواسطتهم. فهم الذين عرفوا بنظام الأعداد الهندسية، والصفر، اللذين يمثلان ثورة بحق في علم الحساب، واستطاعوا بهما أن يزيلوا ذلك التعقيد الذي كان في النظام العددي الروماني، واستعلموا نظام الترقيم بدلًا من حساب الجمل الذي كان سائدًا في العصور القديمة خاصة عند الرومان.

لقد تمكن المسلمون من إيجاد خانات للأعداد، ووضع صفوف الآحاد، والعشرات، والمئات، والآلاف، وما بعدها. وصار بالإمكان تغيير قيمة الرقم الواحد حسب الرتبة التي يوضع بها بينما في النظام الروماني لا يتغير أبدًا حتى ولو غير مكانه. فالأرقام التالية تكتب في النظام العربي الجديد بشكل يختلف عن النظام اللاتيني:

CCCCLXXXVII = 487

CCCLXXXIII = 383

MMMDCCCCLII = 3952

DCCCCLXXXXVIII = 998

(1) لوبون: ص (628 - 629).

وذلك على أساس أن كل شكل له قيمة خاصة مثل:

10 = X; 1 = L; 1.000 = M; 500 = D 100 = C; 50 = I [1]

ولما كان لدى الهنود أشكال مختلفة للترقيم فقد اختاروا من عندهم سلسلتين، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية (1، 2، 3، 4، 5) وهي التي تستعمل في المشرق العربي الإسلامي، حتى اليوم. وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية وهي التي استعملت في بلاد المغرب الإسلامي، وسادت في بلاد الأندلس بعد ذلك، ومنها انتقلت إلى أوروبا، وعرفت باسم الأرقام العربية، ويرى البعض أنها مرتبة على أساس الزوايا. فرقم (1) يشتمل على زاوية واحدة، و2 على زاويتين، و 3 على ثلاث زوايا وهكذا على الشكل التالي:

ثم دخل عليها تحريف وتعديل حتى أصبحت على ما هي عليها الآن. وفيما يخص الصفر استعمل الهنود نقطة (.) للدلالة عليه، واسمه عندهم (سونيا)، واستعملوا الدائرة (O) للدلالة على النقطة، فأخذ المسلمون النقطة بدلًا من الدائرة حتى لا يلتبس رقم (5) عليهم، ولكن مسلمي المغرب والأندلس استعملوا رقم الدائرة (O) صفرًا، وعنهم انتقل استعماله كذلك إلى أوروبا[2].

والأصل في تسمية هذه الأرقام غبارية في السلسلة الثانية هو أن الهنود كانوا

---

(1) زيغريد هونكه: ص (70 - 73 و91).

(2) جرجيس فتح الله: تراث الإسلام. ص (593 - 594).

ينثرون غبارًا على لوح الخشب الذي يرسمون عليه هذه الأرقام. وتأتي أهميتها هي والسلسلة الأولى من سهولة تركيب أي عدد منها مهما كان كبيرًا لأنها تقوم على النظام العشري، بحيث تتغير قيمة العدد أو الرقم حسب موقعه. فهو في خانة الآحاد غيره في خانة العشرات، أو المئات، وهكذا. وأعطى الصفر لهذا النظام ميزة خاصة بعد أن نقله المسلمون عن الهنود(1).

ومن أعلام المسلمين في العلوم الرياضية بالغرب الإسلامي: مسلمة المجريطي، الذي يعتبر إمامًا للرياضيين بالأندلس، وتوفي عام (1007م). وعنه تتلمذ كل من ابن السمح، وابن الصفار، والكرماني، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهم(2).

ومن ضمن الذين نقلوا نظام الحساب الغباري، ونظام الصفر، إلى أوروبا، من الأندلس، الباب سلفستر الذي كان يدعى جلبرت قبل أن يصل إلى مركز البابوية، وذلك خلال عهد الخليفة الحكم الأموي أواخر القرن العاشر الميلادي(3).

ومن الذين نقلوه من الجزائر بالمغرب العربي، الرياضي البيزي ليوناردو فيبونانشي الذي كان أبوه الطبيب Bonaccio رئيسًا للمركز التجاري البيزي ببجاية. فقد ولد ليوناردو في بيزا بإيطاليا عام (1180م)، والتحق بأبيه في بجاية في صدر شبابه فاهتم بتثقيفه، وأسند مهمة تعليمه إلى أستاذ بجائي اسمه سيدي عمر، يدعى في البداية باسم ليوناردو فيليوش بونانتشي: Leonardo Filius Bonacci ثم أصبح يدعى بعد ذلك باسم ليوناردو فيبوناتشي: Lionardo Fibonacci واهتم الطفل منذ صغره بعلوم الرياضيات، وساعده اختلاطه بالتجار البجائيين،

(1) د. عبد الحليم منتصر: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. ص (216 - 217).
(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام. ج 3 ص (270 - 273).
(3) زيغريد هونكه: ص (80 - 84).

وغيرهم، على تعلم ما سماه: طريقة العد السريعة بوسيلة عجيبة، استخدم فيها الأرقام الهندية الغبارية التسعة. ودفعه شغفه هذا إلى القيام برحلة طويلة إلى كل بلدان المغرب العربي، ومصر والشام، واليونان، وصقلية، اطلع خلالها على جهود المسلمين في العلوم الرياضية. وفي الأخير وضع عدة كتب من ضمنها: كتاب العد: Liber Abaci عام (1202م) وكتاب الهندسة التطبيقية: Protica Geomitrica عام (1220م)، وكتابان آخران ابتكر فيهما طرقًا جديدة لحل معادلات حسابية وهندسية من الدرجة الأولى والثانية. وبذلك كان من الرواد الأوائل الذين أدخلوا إلى أوروبا الأرقام الهندية، والصفر، والطريقة العشرية، والحساب، والجبر، والهندسة العربية[1].

وكان لتقدم المسلمين في الرياضيات، أثر كبير في تقدمهم في علم الفلك، الذي نقلوا أصوله الأولى من اليونان، فصححوا النظريات الخاطئة لبطليموس السكندري[2]. وأقاموا مراصد بشرق العالم الإسلامي وغربه لرصد النجوم من ضمنها مراصد فاس، وقرطبة، والقيروان.

ومن أعلام الفلكيين المسلمين في الغرب الإسلامي أبو إبراهيم الزرقالي (1029 - 1087) الطليطلي الذي اخترع الأزياج الفلكية التي هي: عبارة عن جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته، ووضعه، وسرعته، وانتقاله، ورجوعه، وما إلى ذلك. وصنع إصطرلابًا جديدًا دعي «**بصفيحة الزرقالي**» تحدث عنها راجيو مونتانوس، ونشر عنها دراسة في القرن (15)، وتحدث عنها الفلكي البافاري يعقوب زيقلر Jacob Ziegler عام (1504م). وكتب عنها

---

(1) المصدر نفسه. ص (88 - 94). ديورانت. ج 17. ص (170 - 171).

(2) M. Delambre: Histoire de l'Astronomie du Moyen Age. (paris 1819). PP. 10 - 60

ترجمة جديدة، يوحنا شونر Johan schoner باللغة اللاتينية عام (1534م)، تحت عنوان: في عالم أبي العلوم الفلكية الزرقالي[1].

ومما يدل على تأثير الزرقالي، أن الفونسو العاشر القشتالي أخذ أزجاله الفلكية وحاول أن ينسبها لنفسه، وصارت تعرف في الغرب الأوروبي باسم: الأزياج الاذفونشية[2]، وحتى المرصد الذي أقامه في قشتالة اعتمد فيه على الخبرة العربية المغربية، وآلاتها الدقيقة[3].

وتمكن إبراهيم السهلي البلنسي عام (1081)، من صنع أقدم كرة معروفة في التاريخ، على ما يظهر، من النحاس الأصفر طولها 209 مليم (81.5 بوصة)، وحفر على سطحها 1015 نجمًا مقسمة إلى 47 كوكبة، تبدو النجوم فيها حسب أقدارها. وجعلت خيرالدة إشبيلية منارة ومرصدًا في آن واحد استعملها جابر بن أفلح الإشبيلي في أرصاده الفلكية التي نشرها في كتابه: إصلاح المجسيطي عام (1240) الذي انتقد فيه بعض آراء بطليموس، وأثبت أن المريخ والزهرة أقرب إلى الأرض من الشمس. وإليه ينسب اختراع بعض الآلات الفلكية، وبعض النظريات في حساب المثلثات الكروية[4].

وقد قام جيرارد الكريموني بترجمة كتاب: المناظر، وغيره، من تراث ابن أفلح إلى اللاتينية عام (1270)، وطبع في نورمبرج سنة (1533)[5]، ومعلوم أن ابن أفلح كان ضمن من أشرف على بناء صومعة أشبيلية، أو برج الخيرالدة الذي اعتبر من

---

(1) زيغريد هونكه: ص (152 - 153).

(2) حيدر بامات (ج. بريفوار): مجالي الإسلام. ترجمة عادل زعيتر القاهرة (1956). ص (133).

(3) زيغريد هونكه: ص (136 - 152 و181 - 194). تراث الإسلام. ص (566).

(4) ديورانت. ج 13. ص (356 - 357).

(5) لوبون: ص (631).

المراصد الأولى والكبرى بالأندلس[1].

وفي عام (1229م) نشر الحسن المراكشي جدّاول فلكية تشمل جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات، وجدّاول بجيوب التمام، وجيوب الأقواس، والأقواس المتماسة. وذلك في كتابه: «**جامع المبادي والغايات في علم الميقات**» الذي ترجم سيديو بعضه في القرن الماضي عام (1843).

وحتى أبو إسحاق البطروجي، الإشبيلي الذي أصبح يعرف عند الغرب باسم البتراجيوس Alpetragius انتقد نظريات بطليموس السكندري الفلكية، التي ادعى فيها أن حركات النجوم ومساراتها تنبني على نظرية أفلاك التدوير، والدوائر المختلفة المركز. وبانتقاده هذا مهد الطريق لكوبرنيكوس رائد الفلكيين الأوروبيين في عصر النهضة ليخطو بهذا العلم خطوات أخرى إلى الأمام[2].

وللبطروجي كتاب في هذا العلم سماه: كتاب الهيئة، ترجمه ميشيل اسكوث إلى اللاتينية عام (1217)، وترجمه إلى العبرية موسى بن ميمون حوالي عام (1529).

إن الفلكيين المسلمين في الغرب الإسلامي هم الذين زودوا أوروبا بالمعلومات والنتائج الفلكية الهامة التي توصلوا إليها. وما يزال حتى اليوم علم الفلك مليئًا بالاصطلاحات العربية، وأسماء الأبراج، والنجوم، والكواكب، كما هي دون تحريف مثل: الطرف: Altaref وكرسي الجوزاء Cursa والكف Caph والأرنب Arneb والبطين Botein والوزن Wezn وسعد السعود: Saadisud والراعي Errai وقرن الثور Tauri والسمت: Azimuth وغيرها[3].

---

(1) جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية. نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة بيروت (1967) ص (291).

(2) زيغريد هونكه: ص (191 - 192 و201)، ديورانت. ج 13 ص (357). أثر الإسلام: ص (566).

(3) عاشور: فضل العرب. ص (42).

وفي علم الطبيعية والكيمياء، لعب الغرب الإسلامي أيضًا دوره الكبير، خاصة في اختراع واستغلال القوة الناجمة عن انفجار مادة البارود التي كانت الصينيون أول من اهتدى إليها على ما قيل. وذلك بفضل استغلال ملح البارود أو نترات البوتاسيوم، والفحم، والكبريت. وفي أواخر القرن (13) ألف حسن الرماح كتابا عن الأسلحة النارية، وملح البارود، أشار إلى اختراع ما يمكن تسميته بالقنبلة أو الطوربيد، وذكر بأنها: «**بيضة تخرج وتحترق**»(1).

وأشار ابن خلدون إلى ما يفيد استعمال المدافع النارية بالمغرب العربي منذ القرن (13) خلال استعراضه لحادثة استيلاء السلطان أبي يوسف علي سلجماسة عام (1273) فقال: «**نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قوة باريها**».

وسرعان ما تعلم الأوروبيون هذا الاكتشاف الجديد، فكتب مرقص جريكوس بيانًا بمسحوق ملح البارود والكبريت والفحم، تحت التأثير العربي في القرن (13)، وعندما هاجم الفونسو الحادي عشر مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس عام (1342) استعمل المسلمون ضده الأسلحة النارية، وكان حاضرًا آنذاك معه كونت دربي: Derby وكونت سالسبوري: Salisbury الإنجليزيان، فشاهدا نتائج هذا المخترع وأسرعا في نقل كيفية صنعه واستعماله إلى بلادهم، واستخدمه الإنجليز بعد أربع سنوات في معركة كريسي Crecy(2) ضد الفرنسيين، كما استعمله الفرنسيون قبلهم عام (1339) للدفاع عن كامبري Cambri(3).

---

(1) المصدر نفسه: ص (43 - 50).

(2) المصدر نفسه. ص (52 - 54). وجلال مظهر. ص (343 - 351).

(3) حيدر بامات. ص (141).

ولا شك أن اكتشاف البارود واستغلاله من طرف المسلمين في الشرق وفي الغرب الإسلامي كان له أهمية في تاريخ العالم من جهة، وتأثير في نهضة أوروبا الحديثة سواء في الحروب أو في المشاريع العمرانية الهائلة والمختلفة الأنواع والأشكال. كما أن تقدم المسلمين وتفوقهم في علم الكيمياء كان سببًا في حذقهم لصناعات الدباغة، وإعداد الجلود، وتنقية المعادن، وسببًا في الشهرة العالمية لحرير غرناطة المتموج الألوان، وموصلي قرطبة الأبلق، ونصال طليطلة. وما تزال المصطلحات العربية في هذا العلم كثيرة في اللغات الأوروبية حتى اليوم ومن ضمنها: الكحول: Alcool و Alcohol والقلويات: Alcail وغيرها.

وكان للمسلمين دور بارز وهام في علم الطب والجراحة. فبعد أن ترجموا تراث اليونان إلى العربية، اهتموا بدراسته وتطويره، وتصدى لذلك جيل من العلماء خصص لهم ابن أبي صبيعة مجلدًا خاصًا من كتابه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. للتعريف بهم، وقد انصبت جهودهم على تعديل الكثير من الحقائق الطبية، وتصحيح غيرها، وإضافة أبواب جديدة في الطب والصيدلة، لم يسبقهم إليها أحد قبلهم، وذلك في الوقت الذي كان رجال الدين بأوروبا يعتبرون المرض نوعًا من الجزاء والعقاب الإلهي لا ينبغي للإنسان أن يعالجه بحيث إذا انتاب أحدًا منهم مرض أو حمى يهرع إلى أقرب كنيسة أو دير إليه، ويبقى هناك منتظرًا حدوث معجزة تشفيه. وروى أسامة بن منقذ حوادث ونماذج كثيرة توضح الفرق الكبير بين مستوى المسلمين الرفيع في ميدان الطب، ومستوى الفرنجة المنحط حتى لأبسط مبادئ الطب خلال الحروب الصليبية[1].

ومن أبرز أطباء المغرب والأندلس، أفراد عائلة ابن زهر بمؤلفاتهم، وابن رشد، وابن البيطار المالقي، وابن أندراس البجائي، وابن حزم الأندلسي، وغيرهم، الذين

---

(1) المصدر نفسه. ص (55).

ترجمت كتبهم عدة مرات إلى اللاتينية منذ (1509م) إلى منتصف القرن (18)، وظلت مرجعًا مهمًا للأوروبيين في أبحاثهم الطبية طوال هذه الفترة.

فابن أندراس أبو القاسم أحمد بن محمد المرسي، استقر ببجاية في بحر العشرية السادسة من القرن السابع الهجري حوالي (1252 - 1260) وتصدى للتطبيب في قصر الإمارة، واشتهر بخبرته الواسعة في العلاج، واستحضار الأدوية، مما جعل المستنصر بتونس يستدعيه إليه ويضمه إلى هيئة أطباء قصره. وله أرجوزة في أسماء أدوية الطب المفردة المختلفة[1].

ويعتبر أبو القاسم الزهراوي القرطبي (936 - 1013) من الجراحين والأطباء الكبار، بالغرب الإسلامي، ابتكر عدة عمليات جراحية دقيقة في العيون، والأسنان، والولادة، أهمها: سحق الحصاة في المثانة، واستخراجها، وكي الجراحات، ولزوم تشريح الأجسام الحية والميتة. وهو الذي اقترح عندما كان طبيبًا في قصر الحكم الثاني، استخدام مساعدات، وممرضات، في حالات إجراء العمليات الجراحية للنساء؛ لأن ذلك أدعى في نظره للرأفة، والحنان، والاطمئنان.

ويشتمل كتابه: «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» المؤلف من ثلاثين فصلًا، على وصف لأكثر من مائة آلة جراحية الكثير منها من صنعه هو، كان لها أبلغ الأثر في الجراحة الأوروبية خاصة في القرن (16)[2]. وقد قام جيرارد الكريموني بترجمة كتابه هذا في وقت مبكر، وبقي مرجعًا وعمدة في الطب لأوروبا أكثر من خمسة قرون حتى عصر امبروازباري: Ambroisepare المتوفى حوالي (1590)[3]، وذلك في

---

(1) أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق محمد بن أبي شنب. الجزائر (1910) ص (45 - 47).

(2) جلال مظهر، ص (248 - 260).

(3) لوبون. ص (519).

مدرستي سالرنو Salerno الإيطالية، ومونبيلي Montpellier الفرنسية، الطبيتين[1]، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - الطب الداخلي.

ب - والأقرباذين والكيمياء.

جـ - والجراحة[2].

ويقال: إن مدرسة سالرنو التي أسسها أربعة أشخاص كان من بينهم واحد عربي يدعى عبد الله وحرف اسمه إلى عفلة[3].

وتعتبر أسرة ابن زهر من العائلات المشهورة في ميدان الطب، والعلوم الطبيعية، والكيمياء بالمغرب والأندلس. أنجبت ستة من مشاهير الأطباء كان كل واحد منهم علمًا على رأس القائمة في عصره، نخص بالذكر ثلاثة منهم وهم عبد الملك بن محمد الإيادي الذي درس بالأندلس، ومصر، والقيروان، وأولى عنايته بالطب. ومن بعده جاء ابنه أبو الفداء زهر الذي أولع بالطب والعلوم الطبيعية. وفي الأخير يأتي ابنه أبو مروان الثالث عبد المالك زهر الذي طارت شهرته الطبية في الأندلس كخلف للرازي في المشرق الإسلامي. لقد امتاز أبو مروان أو Avenzoar كما كان يسمى في الغرب، بالتخصص في دراسة الطب على عكس غيره الذين جمعوا بين الطب والعلوم الأخرى. وبرز تفوقه في الطب الإكلينيكي بعد الرازي[4]. وألف كتاب: «**التيسير في المداواة والتدبير**» استجابة لرغبة صديقه وتلميذه الفيلسوف ابن رشد، شرح فيه فن الاستشفاء، والعلاج، والاحتماء (اتباع أغذية الحمية). واهتم

---

(1) طوقان. ص (154 - 155).

(2) زيغربد هونكه. ص (277 - 291 و340 - 347).

(3) د. محمد كامل حسين. ص (283).

(4) ديورانت ج 13. ص (360).

بدراسة أنواع مختلفة من الأغذية والأدوية البسيطة، والصحية، وخلد مآثر هامة في وصف الأمراض، وترك تحليلات أثرت عنه في الورم المحزمي، والالتهاب التاموري، والسل المعوي، والشلل البلعومي.

وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام، والكسور، وقد عارض جالينوس في آرائه التشريحية وبعض نظرياته الطبية. وبذلك أصبح عضدًا لأطباء أوروبا الذين عملوا على بناء علم التشريح على أسس جديدة في القرن (16) وما بعده، ومنهم فيساليوس[1]. ونظرًا لأهمية آرائه الطبية ترجم الأوروبيون كتابه إلى اللاتينية والعبرية منذ القرن (13)، وظهرت أول طبعة له بالبندقية عام (1490م) كان لها تأثير كبير في عالم الطب. ومن كتب ابن زهر الأخرى، كتاب: الاقتصاد في إصلاح الأجساد. الذي ألفه للأمير المرابطي أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين، أثناء وجوده بمراكش.

ويعتبر الطبيب ابن الجزار (أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد أبو جعفر) الذي عاش في القيروان حتى توفى عام (1004م)، من رواد الطب في الغرب الإسلامي، تضلع فيه واتخذ لنفسه عيادة لاستقبال الناس ومعالجتهم في الفصول الباردة. أما في فصل الصيف فإنه يغلقها ويذهب مع الأساطيل الإسلامية الغازية في البحار لمعالجة المرضى، والجرحى. وساعده ذلك على تطوير معلوماته الطبية، والصيدلية. ومن مؤلفاته الطبية: «**قوت الحاضر**» و«**طب الفقراء والمساكين**» و«**كتاب الأقرباذين**» و«**كتاب الاعتماد**» و«**كتاب الإبدال**» ترجم معظمها إلى اللاتينية، وما يزال البعض منها في الاسكوريال، ودرسدن، وباريس، وأكسفورد، والجزائر[2]. وترجم الطبيب ستيفان Stephan كتاب الأقرباذين بعنوان: زاد المسافرين Via Ticum Peregrinantis.

---

(1) جلال مظهر. ص (244 – 245 و262 – 263).

(2) زيغربد هونكه. ص (288 – 348).

ومن أبرز الأطباء الأفارقة الذين لهم دور كبير في إمداد الطب الأوروبي بالخبرة الطبية الإسلامية، قسطنطين القرطاجني الذي ولد بقرطاجنة في تونس حوالي عام (400 هـ/ 1009م). فقد قام بجولات واسعة في الشرق والغرب بعد أن تزود بالمعلومات الواسعة في مسقط رأسه بتونس، وذلك من أجل الاستزادة بالعلوم والمعارف. ثم رجع إلى تونس، ولظروف غامضة تنصر، واتجه إلى صقلية واتخذه الأمير النورماني روبير جيسكار Robert Guiscard كاتبًا له مدة من الوقت، ثم اعتزل منصبه، واعتكف في دير مونت كاسينو Monte Cassino وأخذ يهتم بالتأليف والترجمة من العربية إلى اللاتينية في ميدان الطب غير أنه أهمل ذكر أسماء أصحاب هذه المؤلفات، وحاول أن ينسبها إلى نفسه، كما أن ترجمته كانت رديئة. ومن الكتب التي ترجمها: زاد المسافرين لابن الجزار باسم: Viaticus وكتاب علي ابن العباس باسم: Pratica Pantegni وكتب الرازي، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وألف نحو 22 كتابًا في مختلف فروع الطب وطريق الوقاية من الأمراض، والعلاج، طبعت كلها بين سنتي (1536 و 1539)[1].

وقد اعتبر قسطنطين أول الرواد الذين قدموا الطب العربي إلى أوروبا اللاتينية، وهو الذي فتح الطريق لجيرارد الكريموني (1114 - 1176)، وأدى إلى ظهور وقيام مدرسة وجامعة مونبيلي التي أصبحت فيما بعد إحدى المراكز المهمة للثقافة بأوروبا إلى جانب مدرسة سالرنو[2].

ومن الأطباء الآخرين الذين اشتهر بهم الغرب الإسلامي وأدوا دورهم بارزًا: أبو بكر بن باجة السرقسطي. والطبيب علي بن عبد الرحمن الطليطلي صاحب الشهرة الواسعة في طرق العلاج للمرضى. والطبيب الفلكي أمية بن أبي الصلت

---

(1) أحمد توفيق المدني: ص (223 - 226).

(2) جلال مظهر. ص (184 - 191).

الداني الذي رحل إلى القاهرة واعتقل عدة سنوات هناك من طرف الحكومة الفاطمية. ومن مؤلفاته: رسالة العمل بالاسطرلاب، وكتاب الوجيز في الهيئة، وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب تقوية الذهن. وقد نفي إلى تونس واستقر بالمهدية وألف لأميرها عدة كتب. والطبيب الفيلسوف أبو بكر بن طفيل صاحب رسالة **«حي بن يقظان»** و**«أسرار الحكمة المشرقية»** و**«الأرجوزة الطبية المجهولة»** و**«رسالة في النفس»**. والطبيب الفيلسوف ابن رشد الذي نكبه المنصور ونفاه إلى قرية اليشانة مدة من الزمن قبل أن يسافر إلى مراكش. والطبيب الفيلسوف أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي الذي عاش بالأندلس، ثم بمراكش، ثم بالقاهرة، حيث تولى مهنة الطب للقائد الإسلامي الكبير صلاح الدين الأيوبي[1]. والطبيب الكاتب والوزير لسان الدين بن الخطيب الذي نشر رسالة عن العدوى وانتشارها بواسطة الاتصال والاختلاط بالمرضى، وذلك عام (1348م) ذلك العام الذي كان أكثر هولًا وفظاعة في الأمراض والأوبئة[2].

هكذا يتضح أن الطب الإسلامي قدم لأوروبا فوائد كثيرة كان للغرب الإسلامي دور بارز فيها من ضمنها الكتب الجامعة التي تناولت معظم فروع الطب، والمادة العلمية الغزيرة المتعلقة بالطب الإكلينيكي، والمعرفة الواسعة للعقاقير والأدوية المركبة والمفردة، والخبرة الواسعة في ميدان الجراحة، ونظام البيمارستانات[3].

وقد أثبت الباحثون الأوروبيون أنفسهم أن الدورة الدموية التي يدعي الإيطاليون أن مكتشفها هو ميقيل سيرفيد Miguel Served المولود في فيلانوفا

---

(1) زيغربد هونكه. ص (340 - 369).

(2) نفس المصدر. ص (263 - 269).

(3) د. محمد كامل حسين. ص (299 - 302).

Villanouva من أعمال أرغون عام (1509)، إنما اكتشفها في الحقيقة والواقع الطبيب العربي ابن النفيس البصري المولود عام (1210) والذي كان كبير الأطباء في مصر عشرات السنين.. وعنه أخذها واقتبسها ميقيل، ونسبها لنفسه[1].

وفي ميدان علم النبات برز ابن البيطار المالقي، وأبو العباس الإشبيلي الذي اهتم بدراسة أنواع النباتات المختلفة التي تنمو في المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر.

ويعتبر أبو محمد بن البيطار المالقي (1190 - 1248) رائد هذا العلم إلى جانب خبرته الطبية. تنقل في عواصم الأندلس الكبرى، وبلدان المغرب العربي، ومصر والشام، واهتم بدراسة الأعشاب والنباتات الطبية والصيدلية، حتى لقب في مصر برئيس العشابين، وبالطبيب الحاذق، والعشاب البارع[2]. وعني بذكر ماهيات الأدوية، وقوامها، ومنافعها، ومضارها، وإصلاح ضررها، والمقدار المستعمل في جرمها، أو عصارتها أو طبخها، والبدل منها عند عدمها. ووصف ما يقرب من 1400 نبات وغذاء، منها ما لم يكن معروفًا إطلاقًا قبل ذلك، وحلل تركيباتها الكيمياوية وخصائصها العلاجية وطرق استخدامها، ورتبها ترتيبًا أبجديًا، وذكر أسماءها بعدة لغات[3].

ومن كتبه التي ألفها في هذا الميدان كتاب: الجامع في مفردات الأدوية والأغذية، وكتاب: المغني في الأدوية، وكتاب: الأقرباذين. ويعتبر كتابه الأول، موسوعة كبيرة، غزيرة المادة، عظيمة الفائدة، بقيت مرجعًا وحيدًا لأوروبا حتى القرن (16) وما بعده، وجعلت ابن البيطار من عظماء علماء النبات، لأنه جمع كل ما

---

(1) هونكه ص (275 - 276).
(2) د. محمد كامل حسين: أثر العرب والإسلام. ص (242 - 243).
(3) زيغريد هونكه. ص (322 - 323). طوقان ص (218 - 221).

ذكره جالينوس وديسقوريدوس اليونانيان وكل ما عرفه المسلمون قبله. وترجمت أجزاء من كتابه الجامع إلى اللاتينية، وطبعت في البندقية عام (1598)، ثم في باريس، وكريمونا، وألمانيا بعد ذلك[1]. وترجمه لوكلير كاملا وطبعه في باريس عامي (1877 - 1881).

وكما اعتنى ابن البيطار بعلم النباتات، اهتم أيضًا بوصف كثير من أنواع الحيوانات التي تستخلص منها بعض العقاقير العلاجية[2]. وإلى جانب نشاط ابن البيطار وغيره في علم النبات والحيوان، نجد علماء آخرين بالغرب الإسلامي يهتمون بدراسة أنواع الترب، والأسمدة، وعلى رأسهم أبو زكرياء بن العوام الإشبيلي في القرن (12م). الذي ألف «**كتاب الفلاحة**» ووصف فيه طريقة زرع 585 نوعًا من النباتات و50 نوعًا من الأشجار المثمرة، وشرح طرق التطعيم، وأعراض الأمراض في الفلاحة، فجاء كتابه أكمل البحوث في العصور الوسطى، وبقيت أهميته حتى القرن التاسع عشر مما دفع كليمان مولر إلى ترجمته وطبعه في باريس عام (1866)[3].

وفي ميدان الجغرافية، كان فضل المسلمين عظيمًا على أوروبا، لأنهم نقلوا تراث اليونان، الجغرافي، واعتكفوا على دراسته وتطويره، فصححوا الأخطاء الموجودة به، وأضافوا له معلومات وخصائص جديدة، بفضل رحلاتهم الكثيرة، ومشاهداتهم الواسعة خلالها لتلك البلدان والأمصار التي زاروها.

ومن الرحالة المسلمين بالغرب الإسلامي، ابن بطوطة، ومن الجغرافيين اللامعين، الشريف السبتي الإدريسي، الذي أسهم هو وغيره بجهد كبير وفعال في

---

(1) جلال مظهر. أثر العرب. ص (273 - 275).

(2) محمد كامل حسين. ص (246).

(3) ديورانت: ج 13. ص (358).

بناء علم الجغرافية، وفي إثرائه بالمعلومات والبحوث النافعة التي استفاد منها الأوروبيون، وترجموها إلى لغاتهم اللاتينية والأوروبية الحديثة. وظل المسلمون في هذا الميدان، كما في غيره، أساتذة أوروبا عدة قرون، وجاءت المعلومات التي توصلوا إليها، هي عين الحقيقة، أو قريبة منها، في حين أخطأ بطليموس الإسكندري، وكذلك غيره من علماء الإغريق، في تقدير طول البحر المتوسط بحوالي 400 فرسخ، على عكس المسلمين[1].

ويعتبر الشريف الإدريسي (1099 - 1166) رائد الجغرافيين المسلمين في الغرب الإسلامي، ولد في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى، واعتكف على الدراسة والتحصيل، ثم قام بعدة رحلات إلى الأندلس، وبلدان المغرب العربي، وجنوب فرنسا، وإيطاليا، واليونان، وآسيا الصغرى، وحتى انجلترا، وفي الأخير استقر به المقام في باليرمو بصقلية، وحظي بالتقدير لدى ملكها روجر الثاني Roger II (1101 - 1154م)، بفضل نبوغه وتضلعه في علم الجغرافيا، فكلفه بوضع كتابه له في هذه المادة، أنجزه بسرعة، وسماه: «**نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق والبلدان والجزر والمدائن والآفاق**»[2]، وأصبح يعرف بالكتاب الرجاوي نسبة إلى روجر فيما بعد. وقد زوده الإدريسي بحولي سبعين خريطة كانت أحسن من خرائط الجغرافيين السابقين له. وجمع بين الجغرافية الوصفية والفلكية[3]، وقسم الأرض إلى سبعة أقاليم عرضية، ووضع خريطة جامعة للكرة الأرضية رسمها على كرة من الفضة وزنها 1800 أوقية، وخطط عليها تلك الأقاليم السبعة المتوازية عرضيًّا ابتداء من خط الاستواء[4].

---

(1) عاشور: فضل العرب. ص (44 - 45).

(2) ديورانت. ج 13. ص (58). طوقان. ص (197 - 200).

(3) ج. ش. كرامرز: تراث الإسلام. ص (141 - 143).

(4) توفيق المدني. ص (236 - 237). جلال مظهر. ص (314 - 329).

ولأهمية كتاب الإدريسي اعتنى الأوروبيون به فترجموه إلى اللاتينية في وقت مبكر، وطبع في روما عام (1619) لأول مرة بصورة مختصرة، وبقي مرجعًا لعلماء أوروبا الجغرافيين طوال ثلاثة قرون وزيادة.

وقد أشار الإدريسي إلى ما يثبت أن مسلمي الغرب الإسلامي كانوا أسبق في اكتشاف أمريكا، وعبور الأطلنطي، من كولومبوس، وذلك عند حديثه عن الإخوة المغرورين الذين خرجوا من لشبونة واتجهوا إلى المحيط الأطلنطي غربًا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة[1].

وحتى فاسكو داجاما الإيطالي لم يستطع أن يصل إلى الهند عبر سواحل إفريقيا الشرقية إلا بفضل الملاح العربي شهاب الدين بن ماجد الذي لا يشير إليه الأوروبيون، وقد اندهش فاسكو عندما وجد لدى ابن ماجد اصطرلابًا من النحاس، وخريطة بحرية دقيقة، وعددًا من الأدوات البحرية المهمة، بينما هو لم يكن يملك سوى اصطرلاب خشبي صغير وغير دقيق[2].

ومما ساعد المسلمين بالمغرب والمشرق الإسلاميين، على تطوير علم الجغرافية، وفنون الملاحة البحرية اهتداؤهم، منذ وقت مبكر، من نهضتهم، للبوصلة أو بيت الإبرة، واستغلالهم لها استغلالًا علميًا، رغم أن مبتكريها الأولين هم الصينيون على ما قيل، وعن المسلمين نقله الأوروبيون إلى أوروبا ليستغل بعد ذلك في النشاط البحري الأوروبي أواخر العصر الوسيط ومطلع الحديث. وليس صحيحًا ما قيل من أن المسمى فلافيوجيوبا الإيطالي الأمالفي هو الذي اخترع هذه الآلة، رغم أن كرامرز يميل إلى ذلك[3]؛ لأن بطرس فون ماريكور: Petrus Ven Maricourt

---

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج 3. ص (293 - 299).

(2) زيغريد هونكه. ص (416 - 423). كرامرز: تراث الإسلام. ص (150 - 151).

(3) كرامرز. ص (152 - 153).

هو الذي نقل عن العرب عام (1269)، معلوماته عن المغناطيس، وعن كيفية استعمال البوصلة التي أشار إليها الإدريسي في كتابه قبل ذلك في القرن الثاني عشر. وأدخل الأوروبيون استعمالها إلى أوروبا، وأشار إليها ما ريكور في رسالة خاصة سماها: Epistole de Magnete وبعده بحوالي خمسين عامًا، أي حوالي عام (1320) اكتشف فلافيوجيوبا البوصلة كما زعموا، وفي الحقيقة أخذ أسرار استعمالها من غيره[1].

ومثلما انتفع الأوروبيون بتراث الإدريسي الجغرافي المغربي، استفادوا أيضًا من تراث الحسن بن محمد الوزان الزياني، أو ليون الأفريقي، الذي ألف كتاب: وصف إفريقيا، فاعتمدوه عدة قرون لتعرف شمال هذه القارة. وقد كتبه الحسن الوزان بالعربية ثم ترجم إلى اللاتينية، عندما كان مقيمًا بالفاتيكان خلال بابوية ليو العاشر[2]. وبقي هذا الكتاب مرجعًا كذلك لأوروبا حتى القرن التاسع عشر. وما تزال حتى اليوم مصطلحات بحرية وتجارية في اللغات الأوروبية مثل: Admiral من أمير الماء (البحر) وArsenal من دار الصناع (صناعة)، و Flouque من الفلك، وCalfate من القلفطة، وBoussol من البوصلة، وTare من طرح السفينة، وFregar من الفرقاطة. وغيرها[3].

وفي ميدان الصناعة، كان للمغرب الإسلامي دور بارز في تعريف الأوروبيين بعدد هائل من الصناعات وفنونها كالورق، والنسيج، والخزف، والزجاج، والسكر، والبارود، والزخرفة، وغيرها.

فصناعة الورق التي اخترعها الصينيون أول مرة، وصلت إلى أوروبا على طريق

---

(1) زيغريد هونكه. ص (47 - 48).

(2) د. محمد محمود الصياد: أثر العرب والإسلام. ص (317 - 318).

(3) السير أرنست باركر: تراث الإسلام. ص (96 - 98). لوبون ٥ ص (441 - 442).

مسلمي الغرب الإسلامي. وكان لمصنع شاطبة الأندلسي، شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد الذي امتدحه الشريف الإدريسي في القرن (12م)، وأطلق عليه اسم رقائق القماش تمييزًا له عن رقائق الجلد، لأنه يصنع من أسمال القطن، والقنب، والكتان، بدلًا من الحرير. ومن الأندلس وصقلية، والمغرب العربي، انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا، وباقي أوروبا، وأقيم أول مصنع في فبريانوا بإيطاليا عام (1276)، ثم في بادوا عام (1340)، ثم في ألمانيا بعد ذلك[1]، وساعد ذلك على تطوير التعليم وتوفير الكتاب.

وقد تعرف الإيطاليون صناعته عندما كانوا يترددون على الأندلس في القرن (12)، خاصة الذين كانوا يذهبون إلى زيارة قبر القديس يعقوب في سانتيوغادي كومبوستيلا Santiogadi Compostala شمال غرب أسبانيا. وكان ذلك سببًا في انتشاره بإيطاليا ثم في أوروبا[2]. وحتى القطن الذي يستغل في صناعة الورق ازدهرت زراعته في بلدان المغرب العربي والأندلس وصقلية، ومن هناك انتقل إلى باقي بلدان أوروبا الغربية ليستغل في صناعة الورق والنسيج كذلك[3]. وكان بفاس وحدها حوالي 400 حجرة لصناعة الورق، وكذلك الأمر في طرابلس الغرب، وبجاية، والقيروان. ومسلمو الغرب الإسلامي هم الذين عرفوا أوروبا بزراعة قصب السكر، وصناعة السكر، أو الملح الهندي، الذي كانت صناعته شائعة في المغرب الإسلامي، مثل طرابلس الغرب، والقيروان، وبجاية، ومراكش، وفاس، وعواصم الأندلس الكبرى، وصقلية. ومن هناك انتقل إلى جنوب أوروبا، وغربها، وإلى جزر ماديرا حوالي عام (1420)، وجزر الكناري حوالي عام (1503)، ومن

---

(1) جلال مظهر. أثر الإسلام. ص (337 – 340).

(2) حيدر بامات. ص (106 – 108).

(3) زيغريد هونكه. ص (32 – 41).

هناك انتقلت إلى العالم الجديد[1].

وقد أشرنا في السابق إلى دور المسلمين في الغرب الإسلامي، في صناعة البارود، نظرًا لخبرتهم الواسعة في علم الكيمياء والطبيعيات، ونضيف هنا دورهم في صناعة الزجاج، والخزف، بمدن المغرب الكبرى، والأندلس، وصقلية، وفي نقلهما بعد ذلك إلى أوروبا بأشكالهما ورسومهما المختلفة، وزخرفتهما الجميلة التي كان يستغل فيها حتى الخط العربي خاصة الكوفي، وأثارت إعجاب الأوروبيين الذين قلدوا ذلك بشكل واسع ما تزال بعض آثاره حتى اليوم في بعض التحف، والصلبان[2]. ومن بجاية تعلم الأوروبيون صناعة الشمع ونقلوها إلى أوروبا، وأصبحوا يطلقون عليه اسم هذه المدينة Bougie[3].

هكذا يمكن القول: إن الغرب الإسلامي بأقاليمه الواسعة، هو الذي بعث الحياة في أوروبا الجنوبية والغربية، وعرفها بالعلوم والصنائع الإسلامية، ومكنها من استغلال مزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك كالقطن، وقصب السكر، والبرقوق، والزعرور، والياسمين، والزعفران، والقرمز، والعنبر، والقنب، والزنجبيل[4]. ومن أقوال الدكتورة زيغريد هونكه في هذا المقام قولها:

في الواقع أن كثيرًا من الكتاب العرب في القرن العاشر الميلادي، يشهدون بوجود تجارة مزدهرة بين عرب شمال إفريقيا من جهة، وبين كل من البندقية، وأمالفي، وباليرمو، من جهة أخرى، تحمل سفنها الستائر الحريرية النادرة، وأكيسة الهياكل، والأوشحة السوداء، والأردية ذات الألوان السماوية الجميلة، وسلال سكر طرابلس الغرب وأكياسه، من القيروان، وسوسة، وقابس، وطرابلس الغرب، إلى

---

(1) جلال مظهر. ص (331 – 334). زيغريد هونكه. ص (49 – 51).

(2) كريستي: تراث الإسلام. ص (96 – 99).

(3) الجيلالي. ج 1. ص (328).

(4) حيدر بامات. ص (106 – 108).

أوروبا. إنها تحف عربية شائقة تستقر بعد طواف مديد في مونت كاسينو Monte Cassino وفي أديرة شبه الجزيرة الإيطالية، وكنائسها، بدليل أنها لا تزال حتى يومنا هذا[1].

هذه لمحات مختصرة، عن مركز هذا الغرب الإسلامي، وجهوده في بناء الحضارة الإسلامية من جهة، وعن دوره في تحضر أوروبا، وتأثيره في تطورها وتقدمها، بما قدمه لها من أسس حضارية هامة، حية، ومتنوعة، بعثت فيها دماء الحياة، ودفعتها إلى الأمام بخطوات عملاقة.

❑❑❑

(1) زيغريد هونكه. ص (32).

بعض مراجع البحث المعتمدة

- أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية.

أعدت الدراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو). القاهرة (1970). ص (466).

- أرنولد (سيرتوماس):

تراث الإسلام. تعريب فتح الله (جرجيس). ط 2 بيروت (1972). ص (616).

- أمين (أحمد):

ظهر الإسلام. جـ 3 القاهرة (1973).

- بو عزيز (يحيى):

جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية. الأصالة. عدد 19 الجزائر - مارس - أبريل (1974) ص (278 - 301).

- حيدر بامات (ج. ريقوار):

مجالي الإسلام. ترجمة زعيتر (عادل). القاهرة (1956). ص (450).

- ديورانت (ول):

قصة الحضارة. ترجمة بدران (محمد). ج 13 و 17 القاهرة (1964 - 1966). ص (365 - 398).

- زكريا (المهندس زكريا هاشم):

فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم. القاهرة (1970) ص (610).

- شكري (د. محمد فؤاد). أنيس (د. محمد):

أوروبا في العصور الحديثة. الجزء الأول من النهضة الإيطالية إلى الثورة الفرنسية القاهرة

(1956 - 1957). ص (255).

- طوقان (قدري حافظ):

العلوم عند العرب. القاهرة (1960). ص (238).

- عاشور (د. سعيد عبد الفتاح):

أ - فضل العرب على الحضارة الأوروبية. القاهرة (1957). ص (107).

ب - أوروبا العصور الوسطى. ج 2. نظم وحضارة. القاهرة (1959). ص (316).

- عاشور (د. سعيد عبد الفتاح). أنيس (د. محمد):

النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة. القاهرة (1959). ص (292).

- العبادي (عبد الحميد):

المجمل في تاريخ الأندلس. القاهرة (1958). ص (216).

- العقاد (عباس محمود):

أثر العرب في الحضارة الأوروبية. ط 4. دار المعارف بمصر (1965). ص (179).

- عنان (عبد الله):

أ - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي القاهرة (1960) ص (467).

ب - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. مجلدان. القاهرة (1964) ص (566 - 806).

- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله):

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق بن أبي شنب (محمد). ط 1 الجزائر (1910). ص (8 + 236).

- كوبلاند (ج. و). فينوجردوف (ب):

الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا. ترجمة زيادة (محمد مصطفى) ط 2 القاهرة (1958). ص (140).

- لوبون (غوستاف):

حضارة العرب. ترجمة زعيتر (عادل). القاهرة (1964). ص (656).

- المدني (أحمد توفيق):

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا الجزائر - ربيع الأول (1365). ص (284).

- مظهر (جلال):

أثر العرب في الحضارة الأوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة: بيروت (1967). ص (439).

- هونكه (زيغريد):

شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية في أوروبا. ترجمة بيضون (فاروق)، دسوقي (كمال). بيروت (1964). ص (563).

- يعقوب (جورج):

أثر الشرق. ترجمة على (فؤاد حسنين). القاهرة (1946).

- De Lambre (M.): Histoire de l'astronomine du Moyen Age (Paris 1819).

- Renan (Ernest): Averroes et l'Averroisme (Paris 1866).

❑❑❑

علاقات الجزائر مع دول وممالك أوروبا فيما بين القرن 16 ومطلع القرن 19[1]

أهمية البحر المتوسط والقوى المتصارعة فيه:

يكتسب البحر المتوسط أهمية من كونه منطقة حضارية، ترعرعت على ضفافه حضارات راقية: أمازيغية، ويونانية، وفينيقية، ورومانية، وعربية إسلامية. ومن كونه طريقًا عالميًا للتجارة والعبور الدوليين بين أجزاء العالم القديم في العصرين: القديم والوسيط، وبينها وبين العالم الجديد في العصر الحديث. بحيث كان، وما يزال، حلقة الوصل بين أجزاء العالم المختلفة وشعوبه، ومخرت عبابه أساطيل بحرية ذات شهرة ومكانة في مختلف عصور التاريخ حتى اليوم.

وفي مطلع العصر الحديث، برزت على ضفافه عدة قوى سياسية، تركزت بصورة خاصة في جنوب غرب أوروبا، وشمال غرب إفريقيا، وشرق البحر المتوسط. واحتد الصراع بينها واشتد خاصة بين الأطراف التالية:

1- الأسبان والبرتغاليين ضد مسلمي الأندلس المطرودين والمطاردين، وضد بلدان المغرب الإسلامي التي تأويهم، وتقدم لهم العون والتأييد.

2- الدول المغربية ضد الممالك الأوروبية وأساطيل قراصنتها في غرب أوروبا وجنوبها.

3- فرنسا وأسبانيا المسيحيتين الكاثوليكيتين ضد بعضهما البعض خاصة في عهد فرانسوا الأول، وشارلكان.

---

(1) ألقي هذا الموضوع في ملتقى الفكر الإسلامي بمدينة باتنة (الجزائر) أوائل شهر سبتمبر (1978م).

4- الأتراك العثمانيين ضد الإمارات المسيحية، وأساطيل قراصنتها في شرق البحر المتوسط وجنوب شرق أوروبا.

وكان إقليم شمال إفريقيا الغربي الذي يتمتع بالوحدة المتكاملة: الجغرافية، والعرقية، والتاريخية، قد قاوم الغزوات الأجنبية الأوروبية الاستعمارية، منذ عهد الرومان، وكون سكانه دولًا كبيرة راقية، وقوية، في حقب كثيرة من التاريخ كان لها دور موجه في أحداث العالم كما هو الحال في عهد ماسينيسا، وصدر الفتح الإسلامي، وفي عهود: الفاطميين، والمرابطين، والموحدين.

غير أنه في القرن الثالث عشر، عندما ضعفت دولة الموحدين، وسقطت، فقد الإقليم وحدته السياسية وانقسم على نفسه، وتكونت به ثلاث دول حاولت كل منها أن تفرض سيطرتها على كل الإقليم دون جدوى، وهي: الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (تونس)، ودولة بني عبد الواد الزيانية بالمغرب الأوسط (الجزائر)، والدولة المرينية بالمغرب الأقصى. ودخلت هذه الدول فيما بينها في صراع حاد ومرير، عانى منه بنو زيان أكثر من غيرهم، في الوقت الذي بدأ فيه الضغط الأوروبي المسيحي يطغى عليها ويهددها.

وكان ذلك من بين العوامل التي ساعدت الأسبان والبرتغاليين على التفوق في الصراع ضدها، وعلى ممارسة الاعتداءات المتكررة على مدن المغرب الساحلية من طانجة غربًا إلى طرابلس الغرب شرقًا، ضمن خطة استعمارية مدروسة.

طبيعة الهجومات الأوروبية ضد الجزائر وأسبابها:

وفي خلال القرنين (14 و15م) اختل التوازن بين قوى جنوب غرب أوروبا، وشمال غرب إفريقيا، وأنهكت شعوب الجزائر وبلدان المغرب الأخرى، بالحروب الداخلية، والخارجية، وتكالبت ضدها دول وممالك أوروبا، واشتدت في شن الغارات والحروب عليها بصفة فردية، وجماعية، مدعمة بالبابوات الذين كانوا

يباركون هذه الغارات، ويدعمونها بالمال، والسلاح، والدعاية.

وقد اتسمت هذه الغارات، والهجومات، والحروب، بالتوحش، والشراسة، في تخريب العمران، وإتلاف الأملاك، وسلب الأموال، وقتل البشر، واسترقاقهم، وإذلالهم، لأنها تدخل في إطار الحروب الصليبية التي حاول الأوروبيون إحياءها بعد أن فشلت في المشرق الإسلامي خلال القرنين (11 و12م). وساعدهم على ذلك نجاح الأسبان في طرد المسلمين من الأندلس، ونجاح الأتراك في غزو شرق أوروبا، وبسط نفوذهم عليه. كما تدخل هذه الغارات في إطار القرصنة البحرية التي باركتها الحكومات الأوروبية كمصدر للكسب والغنم، وكوسيلة لتحطيم قوة المسلمين وإذلالهم، وتمهيد الطريق لاستعمار بلدانهم بعد ذلك، وتفنن القراصنة الأوروبيون في ممارستها بمرور الزمن.

ومن ضمن أسباب ودوافع هذه الغارات والاعتداءات الأوروبية على الجزائر، وبلدان المغرب العربي الإسلامية:

أولًا: ظهور الدولة الوطنية الحديثة بأوروبا، ورغبتها في التوسع الاستعماري خارج القارة.

ثانيًا: الحقد الديني والسياسي، الموروثان عن الحروب الصليبية ضد الشعوب الإسلامية عامة، والرغبة في الانتقام منها، على أرض شمال إفريقيا الغربي.

ثالثًا: رغبة الأسبان والبرتغاليين، في وضع حد لنشاط مسلمي الأندلس المطرودين، ومنع بلدان المغرب من تقديم العون والمساعدة لهم، كما تفعل إسرائيل الآن بالمشرق العربي، ولكن العرب لا يتعظون بتجارب تاريخهم.

رابعًا: احتلال مواقع استراتيجية بصفة دائمة، واتخاذها منطلقًا للتوسع الاستعماري داخل البلاد للاستغلال الاقتصادي والبشري.

خامسًا: الرغبة في التمسيح، والتنصير، ونشر المسيحية، ومقاومة الإسلام في عقر دياره.

وبالطبع فإن انقسام بلدان المغرب على نفسها، وتطاحنها فيما بينها، كان له أثر فعال ومباشر، في حفز القوى الأوروبية المسيحية، على ممارسة العدوان بصورة شرسة، ومتوحشة، على المدن والموانئ الساحلية لهذه المنطقة الحساسة من الحوض الغربي للمتوسط.

وقد بنى الأسبان، والبرتغاليون، سياستهم، على ممارسة الاعتداء، حتى قبل أن ينتهوا من طرد بقايا المسلمين من الأندلس، ففي عام (1401م) احتل القشتاليون تيطوان، وسبوا أهلها وحملوهم إلى أسبانيا. واحتل البرتغاليون سبتة عام (1415م) واتجهت النية في أسبانيا لإشغال النبلاء والأشراف بهذه الحروب الاستعمارية عن المشاكل الداخلية لشبه الجزيرة الأيبيرية. وكان البرتغاليون قد ركزوا في البداية نشاطهم التوسعي الاستعماري في سواحل بلدان المغرب الشمالية، فاحتلوا سبتة، ثم طانجة عام (1438م)، وحينما ظهر نشاط الأسبان هناك وتكثف، حولوا نشاطهم إلى السواحل الغربية الأطلسية، واحتلوا أزمور عام (1468م)، وتنازل بعض دعاة العرش المغربي لهم عن القصر الكبير، وسيطروا على أصيلة عام (1471م)، وتوغلوا في عه إيمانويل الأول أوائل القرن (15م)، إلى جنوب مراكش وتدخلوا في الشؤون الداخلية لدولة المغرب الأقصى، وناصروا بعض الأمراء وزعماء القبائل ضد البعض الآخر، واستولوا على ميناء مزغان (الجديدة) عام (1506م)، وغزوا دكالة عام (1513م).

أما الأسبان فقد ركزوا نشاطهم التوسعي الاستعماري في السواحل الشمالية لبلدان المغرب خاصة الجزائر، منذ أواخر القرن (15). فافتكوا سبتة من البرتغاليين، واحتلوا مليلة عام (1497)، وشرعوا بعد ذلك في السيطرة على الموانئ الساحلية الأخرى حتى مدينة طرابلس الغرب شرقا، تنفيذًا لوصية الملكة الكاثوليكية الحاقدة «إيزابلا» Esabella فاحتلوا المرسى الكبير عام (1505)، ووهران (1509)، وبجاية عام (1510)، وأرغموا مدن: مستغانم، وتنس، والجزائر، ودللس، على دفع

الضرائب لهم، واعترفت إمارة بني زيان لهم بهذا الاحتلال عام (1512)، ولم يفسد خططهم سوى تدخل الأتراك السريع، وبروز نيابة الجزائر كقوة جديدة ذات شأن وبأس في هذا الحوض الغربي للمتوسط.

تدخل الأتراك وقيام نيابة الجزائر:

ينتمي الأتراك إلى قبائل الغز التركستانية، بقلب آسيا، هاجروا موطنهم الأصلي بأذربيجان، واتجهوا غربًا إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول) واستقروا بها، وكونوا دولتهم في نهاية القرن (13م) على حساب الدولة البيزنطية، ومن هناك عبروا بحر مرمرة، ومضيقي البوسفور والدردنيل، ورموا بكل ثقلهم في شرق أوروبا وأطاحوا بالدولة البيزنطية، واستولوا على عاصمتها «**بيزنطة**» في عهد السلطان محمد الثاني الفاتح عام (1453)، واتخذوها عاصمة لهم، ثم أخذوا يوسعون رقعة دولتهم على حساب الإمارات المسيحية النصرانية الأخرى.

وفي السبعين سنة التي تلت فتح مدينة القسطنطينية، ركز الأتراك على تدعيم وجودهم بشرق أوروبا، وحاولوا غزو بلاد فارس، وسيطروا على بلاد الشام ومصر، وتسلموا منصب الخلافة الإسلامية من آخر الخلفاء الفاطميين بمصر عام (1517)، فاكتسب الأتراك بذلك احترام وتقدير الشعوب الإسلامية، وجمع سلاطينهم بين السلطتين: الدينية، والزمنية.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني، توغل الأتراك العثمانيون في شرق أوروبا، عبر نهر الدانوب، حتى وصلوا إلى مدينة (**فيينا**) في وسط أوروبا، وفرضوا عليها الحصار مرتين في القرنين (16 و17)، وتوغلت أساطيلهم في البحر المتوسط الغربي حتى وصلت إلى شواطئ أسبانيا، وبلغ الأتراك أوجهم في الوقت الذي اشتد فيه الصراع بين فرانسو الأول ملك فرنسا، وشارلكان ملك أسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وكانت شعوب أوروبا الشرقية في هذه الفترة ضعيفة، اكتفت فقط بالدفاع والمقاومة المحدودة، واستعانت بقراصنة البحر، وقوات شارلكان الأسباني، وبعض الدويلات الإيطالية وعلى رأسها البندقية، وفرسان مالطة.

فاحتاط الأتراك العثمانيون للأمر، وأذنوا لبعض رجال البحر بارتياد الحوض الغربي للبحر المتوسط، لمقاومة أساطيل القراصنة الأوروبيين، واعتداءاتهم، وذلك لهدفين رئيسيين، وبارزين:

أولهما: الدفاع عن موانئ المغرب العربي الساحلية الإسلامية، وحماية سكانها، وتقديم العون لمسلمي الأندلس المضطهدين والمطاردين.

وثانيهما: إشغال أساطيل القرصنة الأوروبية عامة، والأسبانية خاصة، عن المشاركة في حروب شرق البحر المتوسط التي يتحمس لها البابوات ويدعون لعالميتها ضد المسلمين عامة، والأتراك بصورة خاصة.

فالتحق بهذا الحوض الغربي للمتوسط أبناء الفخارجي يعقوب بن يوسف الثلاثة: عروج، وخير الدين، وإسحاق، منذ حوالي عام (1502)، واستحدثوا لأنفسهم أسطولًا بحريًا، وشرعوا في مواجهة القراصنة الأوروبيين انطلاقًا من جزيرة جربة، وحلق الوادي، وجيجل، وأثمرت جهودهم بمرور الزمن، خاصة بعد أن استقروا بمدينة الجزائر عام (1516)، وضموها هي وباقي بلاد المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية كنيابة جديدة تابعة لها ابتداء من عام (1518)، فبرزت الجزائر الحديثة لتلعب دورها الموجه في الأحداث العالمية في هذا الحوض البحري العظيم غربه وشرقه، لعدة قرون.

الجزائر والأتراك يتصارعون مع شارلكان الأسباني:

وقد شعر شارلكان الأسباني ملك أسبانيا، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بالخطر، وكان يحكم إلى جانب أسبانيا، ألمانيا، والأراضي المنخفضة، وأجزاء

من إيطاليا، والنمسا، ويعتبر نفسه حامي أوروبا والمسيحية الكاثوليكية والمدافع عنهما، واعتبر صراعه ضد الجزائر بمثابة فتح جبهة ثانية ضد الأتراك العثمانيين خاصة بعد إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية في الشرق.

وعلى هذا الأساس حاول أن يغزو، ويحتل، مدينتي: الجزائر، وشرشال، في أعوام (1516 و1519 و1531 و1541)، وعندما فشل نقل نشاطه إلى تونس، واستعان ببعض القراصنة الأوروبيين المشهورين أمثال: أندري دوريا الجنوي الإيطالي، ودون جوان النمساوي، واستغل ضعف الأمراء الحفصيين، وصراعهم الداخلي فيما بينهم حول السلطة، فغزا تونس واحتلها عام (1535) بعد أن طرد منها الأتراك الذين سيطروا عليها في العام الذي قبله. ولكن خير الدين رد عليه بغزو مدينة ماهون بجزر البليار، وأسر حوالي ستة آلاف أسير.

وفي مطلع عقد الأربعينات من القرن (16)، تمكن أندري دوريا الذي يعمل لصالح شارلكان الأسباني منذ عام (1528)، من احتلال معظم موانئ تونس الساحلية الشرقية مثل: حلق الوادي، والمنستير، والمهدية، وسوسة، وصفاقس، وأهدى شارلكان مدينة طرابلس، وجزيرة مالطة عام (1535) إلى فرسان القديس يوحنا الصليبيين الذين طردهم العثمانيون من جزيرة مالطة رودس عام (1522)، بعد أن طردوا قبل ذلك من بيت المقدس في نهاية الحروب الصليبية ومن جزيرة قبرص عام (1309)، فانتقلوا إلى فيترب Viterbe حتى تلقوا هذه الهدية من شارلكان واتخذوا الجزيرة، والمدينة، مركزين لممارسة الاعتداءات على البلدان، والشعوب الإسلامية، وأساطيلها البحرية عدة قرون.

وكان غرض شارلكان من احتلال موانئ تونس، وطرابلس، هو تضييق الخناق على الأتراك بالجزائر، ومحاصرتهم، والقضاء على وجودهم بها. ولكن الأتراك وسكان الجزائر، كانوا أكثر منه حذقًا، وحنكة، فأحكموا الصلة مع الدول العثمانية بالمشرق التي التزمت بمد يد المساعدة لهم، ومتنوا العلاقات مع عدوه اللدود،

فرانسوا الأول - ملك فرنسا - الذي كان يشعر بالخطر الأسباني المحدق به وببلاده، والذي يهدده في كل وقت من الشرق والجنوب، برًّا، وبحرًّا، فأبرم مع الدولة العثمانية معاهدة الامتيازات Capitulations المشهورة عام (1535)، واستنجد بالأساطيل العثمانية والجزائرية، ضد اعتداءات قوات شارلكان على الشواطئ الفرنسية البروفانسية، وقاد خير الدين بنفسه قوات النجدة هذه، وفك الحصار على مدينتي: نيس، وطولون، ودفع الخطر الأسباني عنهما، وقضى فصل شتاء عامي (1543 و1544) بمنطقة الميدي حتى تأكد من زوال الخطر.

رد فعل الجزائر ونتائجه:

لقد كان خطر المد المسيحي الأوروبي، وخاصة الأسباني، والبرتغالي، على بلدان شمالي إفريقيا الغربي. واضحًا، وماثلًا، في أعين وأذهان سكان الجزائر، وفهموا جيدًا أهدافه ومراميه القريبة والبعيدة. ولذلك لم يترددوا في اتخاذ كل الوسائل والسبل، لمواجهته ومنها:

- الاستنجاد بقوة الأتراك الشابة والناشئة، باعتبارهم إخوانًا في الدين.
- والتحالف السياسي والعسكري مع أعداء الخصوم من الأوروبيين أنفسهم في إطار السياسة العامة للدولة العثمانية، كما حصل مع فرانسوا الأول، والسلطان سليمان القانوني.

ولقد تكالبت الدول الأوروبية ضد الجزائر أساسًا، وباقي بلدان المغرب الأخرى بالتبعية، في الفترة الممتدة بين القرن (15) والقرن (19)، وقادت حملات عسكرية ضخمة، ومشتركة، وعديدة، وخاصة في عهد شارلكان الأسباني، ولويس الرابع عشر الفرنسي. وعمل بابوات روما على مباركة هذه الحملات، ودعمها، بالمال، والسلاح، والرجال.

وكانت الجزائر، وشعبها، أكبر هدف لمعظم هذه الحملات العسكرية التي قادها

أباطرة، وملوك، وأمراء، ورهبان، وقراصنة كبار، أمثال: شارلكان Charles - Quint الأسباني، والكاردينال كزيمينيس Ximenes الطليطلي، وأندري دوريا Andre Doria الجنوي، ودون جوان Don Juan النمساوي، وخوان قاسكون Jean Gascon الأسباني، وبيدرو نافارو Pedro Navarro القاسكوني، ودون ديقودو فيرا Don Diego de Vera، ودون هوجو دومونكادو: Don Hugo de Moncado ودوكين Duquesne، ودوستري D'Estres، الفرنسيين، وأوريلي Oreilly الأيرلندي، ودون إنجيلو دوبار سولو Don Anjelo de Barcelo وايكسموث Exmouth الإنجليزي، وارويتر: Ruyter الهولندي.

ونذكر من هذه الحملات على سبيل المثال لا الحصر:

1- حملات بيدرو نافارو، على المرسى الكبير (1505)، ومسرغين (1507)، ووهران (1509)، وبجاية (1510)، وعنابة (1510)، وطرابلس (1511).

2- حملة دييفودو فيرا على مدينة الجزائر عام (1516).

3- حملة دون هوجودو مونكادو، على مدينة الجزائر عام (1519).

4- حملة اندري دوريا، على مدينة شرشال عام (1531).

5- حملة شارلكان، وأندري دوريا، على تونس عام (1535).

6- حملة شارلكان الكبرى والفاشلة على مدينة الجزائر عام (1541)، التي باركها وأيدها البابا بول الثالث، واشترك فيها قراصنة إيطاليا، وصقلية، وفرسان مالطة، وفيرناندو كورتيز، وأبناؤه، وغيرهم من معظم بلدان أوروبا.

7- حملة البابا بيوس الرابع الصليبية ضد طرابلس، وجربة، والجزائر، عامي (1559 و1560)، التي اشترك فيها فرسان مالطة، ونائب ملك نابلي، وقادها نائب ملك صقلية الدوق دومدينا Le Duc de Medina.

8- حملة خوان قاسكون، الأسباني، ضد مدينة الجزائر عام (1567) بمساعدة وتأييد ملك أسبانيا.

9- حملة دون جوان النمساوي، والملك الأسباني فيليب الثاني، ضد تونس عام (1573).

10- الحملة الصليبية الضخمة ضد الجزائر العاصمة عام (1601) التي اشتركت فيها قوات: البابا، وجنوة، ونابلي، والطوسكان، وصقلية، وسردينيا، وبارما، ومودينا، ولابروطان، وجزر الباليار. وقادها الجنوي الإيطالي جان أندري دوريا حفيد الأميراك المشهور أندري دوريا.

11- حملات الهولنديين ضد مدينة الجزائر بقيادة الضابط لامبير فيرهور Lambert Verhoer في أعوام (1620 و1623 و1624 و1662).

12- حملات الإنجليز ضد مدينة الجزائر في أعوام (1620 و1655 و1672).

13- حملة فرسان مالطة على مدينة الجزائر عام (1647).

14- حملات الدوق دوبو فور Duc de Beaufort ضد مواني القل، والجزائر، وجيجل، في أعوام (1663 و1664 و1665)، بأمر من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.

15- حملة دوكين الفرنسي ضد مدينة الجزائر عامي (1682 و1683)، بأمر من لويس الرابع عشر.

16- حملة المارشال دوستري، ضد مدينة الجزائر عام (1688)، بأمر لويس الرابع عشر.

17- حملات الدانهاركيين ضد مدينة الجزائر عام (1770).

18- حملة الضابط أوريلي الأيرلندي، حاكم مدينة مدريد، ضد الجزائر العاصمة عام (1775).

19 - حملات دون انجيلو دوبارسولو، ضد الجزائر عامي (1783 و 1784)، بأمر من ملك أسبانيا شارك الثالث.

20- حملة اللورد ايكسموث - الإنجليزي - ضد مدينة الجزائر عام (1816) بصحبة الأميراك الهولندي فان كابلن Van Capellen.

21- حملة الأميراك هاري نيال Harry Neal - الإنجليزي ضد مدينة الجزائر عام (1824) بسبب مشاكل القنصل الإنجليزي ماكدونل Mac - Donnel.

22- حملة الضابط كولي: Collei عام (1827 - 1829).

ولكن الجزائر واجهت هذا التحدي بمثله، وبنفس الأسلوب، فأنشأت أسطولًا بحريًا من نواة مراكب عروج وخير الدين، ورفاقهما، ووحدت البلدان المغربية تحت علم الدولة العثمانية من تلمسان غربًا إلى طرابلس الغرب شرقا، كما سيأتي، وشرعت بعد ذلك في التصدي للاعتداءات الأوروبية، وهجوماتها المتكررة، والمتوالية، دون انقطاع. وكانت المرحلة الأولى لهذا التصدي، هي تقوية دفاع الموانئ، والعمل على تصفية الوجود الأسباني في الجيوب التي يحتلونها، ثم ملاحقة المعتدين حتى إلى عقر ديارهم التي اتخذت أوكارًا للقرصنة، والقراصنة، في شواطئ: إيطاليا، وفرنسا، وأسبانيا، وجزر البليار، وصقلية، وسردينية، ومالطة وغيرها.

وفي هذا الإطار تعاون سكان تلمسان مع قوات صالح رايس، وردوا عنها قوات السعديين الغازية، والقوات الأسبانية الطامعة فيها، وضموا المدينة والدولة إلى حكومة الجزائر المركزية عام (1554)، ووضعوا حدًا نهائيًا لأطماع الأسبان فيها وتلاعبهم بمصيرها. وتعاون سكان بجاية مع قوات صالح رايس كذلك، وطردوا المستعمرين الأسبان منها بصفة نهائية في العام التالي (1555)، وحرروها من الظلم والجبروت.

وبرز في المياه الشرقية التونسية بحار عثماني من طراز خير الدين، ومن رفاقه،

هو درغوث باشا، تصدى للقرصان الإيطالي «أندري دوريا» واعتداءاته، فتعاون معه مراد أغا، وسنان باشا، على افتكاك مدينة طرابلس وتحريرها من فرسان مالطة عام (1551)، فعينته الدولة العثمانية واليًا عليها تكريمًا لجهوده، وحولت إلى نيابة ثانية تابعة لها تحت إشراف الجزائر ورعايتها فيما يخص السياسة الخارجية، وتعيين ولاتها.

وبعد طرابلس افتك درغوث باشا ميناء قابس من الأسبان عام (1556)، وتوغل إلى القيروان في الداخل، ووضع بها حامية عسكرية تركية، بقيادة حيدر باشا تمهيدًا لفرض الحصار على الأسبان في شمال تونس. وتمكن عام (1559) من دحر القوات الأوروبية التي حاولت احتلال طرابلس من جديد، وفي العام التالي (1560) هاجم بقواته جزيرة جربة، وطرد منها القراصنة الأوروبيين الذين تمركزوا فيها، وأسر عددًا كبيرًا منهم، وقتل أعدادًا لا تحصى ألفت رؤوسهم جبلًا بحاله، نظرًا للعنف الذي استعمل خلال المعركة من الطرفين.

ورغم مقتل درغوث باشا في معركة مالطا عام (1565)، وهزيمة الأساطيل العثمانية والجزائرية في معركة ليبانتو Le Pante الشهيرة بالسواحل الغربية اليونانية عام (1571)، أمام أساطيل الحلف الصليبي الذي ألفه البابا بيوس الخامس، وكبار قراصنة أوروبا، لينتقموا من سيطرة العثمانيين على قبرص عام (1570)، رغم كل هذا فإن سكان الجزائر، وتونس، وطرابلس، وقوات الأتراك البرية والبحرية تمكنت من تحرير تونس وطرد الأسبان منها المرة الأولى عام (1569 إلى 1573)، والمرة الأخيرة والنهائية عام (1574). فأعدوا قوات بحرية وبرية مشتركة، وزحف العلج علي وسنان باشا من البحر، وزحف عرب أحمد بحرًا من الجزائر، وحيدر باشا من القيروان، ومصطفى باشا من طرابلس برًّا، والتقوا جميعًا في تونس، وحلق الوادي، وأجهزوا على المستعمرين الأسبان وقواتهم العسكرية، وشتتوهم، وقضوا عليهم جميعًا، وقبضوا على الأمير الحفصي الأخير، والحاكم الأسباني الكونت سيربيلون

Le Conte de Serbellon، وحرروا البلاد بصفة نهائية، وألحقوها بالدولة العثمانية كنيابة ثالثة تحت إشراف الجزائر كذلك على غرار طرابلس.

الجزائر تطرد الأسبان من وهران والمرسى الكبير:

لقد وعت الجزائر الدرس جيدًا، وأدركت الأبعاد الحقيقية للحملات الأوروبية الصليبية ضدها. ولذلك صمم شعبها، وقيادتها، على تصفية الوجود الأسباني الاستعماري في البلاد، بمختلف الوسائل، وبأي ثمن مهما كان غاليًا. فبعد أن تمكنت الدولة الجزائرية من تطهير الشواطئ التونسية والطرابلسية، بصفة نهائية، من أوكار القراصنة، مارست سياسة الهجوم سنوات طويلة على مراكز القرصنة في أوروبا نفسها، وأرغمت معظم دول وممالك أوروبا على شراء السلم والأمن لها، ولأساطيلها في البحر، بالمال، والهدايا القنصلية، ومعاهدات الصداقة، والأمن، خاصة في القرنين (17 و18) اللذين يمثلان العصر الذهبي للجزائر، عسكريًا، وسياسيًّا، واقتصاديًا.

وكانت قضية تحرير وهران، والمرسى الكبير، من الاهتمامات الكبرى للجزائر، وأصبحت الشغل الشاغل للسكان، والدولة معًا، فتم نقل مركز بايليك الغرب من مازونة إلى معسكر ليكون قريبًا من الأعداء، وانكب القادة من زعماء السكان، وإدارة البايليك، ورجال الحكومة المركزية بالعاصمة، على وضع الخطط، وإعداد الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك المطلب الوطني الكبير، وتعددت الحملات العسكرية الجزائرية ضد المحتلين الأسبان في وهران، والشواطئ الأسبانية نفسها في إطار سياسة الاستنزاف، وهاجمت القوات الجزائرية حلفاء الأسبان في البحر والشواطئ الأوروبية، وتمكنت من غنم ما يقرب من 1200 سفينة ومركب بحري فيما بين (1613 و1621) تابع للأسبان، والفرنسيين، والإنجليز، والألمان، والهولنديين، والدانماركيين، والإيطاليين، منها: 447 هولندية، و193 فرنسية، و120 أسبانية، و60 إنجليزية، و56 ألمانية.

وقد بذل كل من حسان باشا (1563)، ومحمد قوصه (1606)، وشعبان الزنا في (1686)، والباي إبراهيم (1687)، عدة محاولات لإنقاذ وهران، والمرسى الكبير وتحريرهما من نير الاستعمار الأسباني، وتحمس حتى الكتاب والشعراء، فألهبوا حماس الناس بأشعارهم.

وفي عام (1707) حشد الباشا محمد بكداش جيشًا جرارًا، حرر به المدينتين التحرير الأول في مطلع عام (1708)، على غرار تونس عام (1569)، واستبشر الناس وفرحوا، ولكن الأسبان جددوا الكرة عليهما عام (1732)، واحتلوهما مرة أخرى لمدة حوالي 60 عامًا أخرى، ثم عزمت الجزائر، وصممت على إزالة القرحة الأسبانية من جسمها، وحشد البطل العظيم الباي محمد بن عثمان باشا الكبير، قوات عسكرية كبيرة، وأكره الأسبان على الجلاء عنهما بصفة نهائية عام (1792) بعد استعمار دام قرابة قرنين وستين عامًا، وسجلت الجزائر شعبًا، وقيادة، صفحة مشرقة في تاريخها العسكري الحديث ولم يهنأ لها بال حتى طهرت البلاد كلها من الأوكار الاستعمارية، وأرغمت الاستعماريين على الرحيل بالقوة.

مكانة الجزائر الدولية وطبيعة علاقاتها مع أوروبا:

كانت الجزائر أقوى دول المغرب العربي الإسلامي، بسبب كبر مساحتها، وطول سواحلها، وغناها الاقتصادي، ووفرة تجارتها ورواجها، مع الخارج، وامتداد دواخلها إلى قلب القارة فيما وراء الصحراء الكبرى، حيث قامت تجارة ناجحة بينها، وبين تلك الأقطار في العصور الوسطى.

وكانت علاقاتها مع الخارج أوسع مدى، وكلمتها أكثر تأثيرًا في الحرب والسلم، وأكسبها هذا الموضوع صفة الزعامة على سائر نيابات المغرب الأخرى. واعترفت دول أوروبا لها بذلك، وأخذت تدفع لها الضرائب والهدايا، أكثر مما تدفعه لتونس وطرابلس بعد استقلالهما في القرنين (17 و18) وأصبحت تهابها، وتبرم معها

معاهدات السلم والصداقة، حتى تتجنب نقمتها، وغضبها.

وقد أورد هنري فارو، ما تدفعه دول أوروبا للجزائر من الضرائب، وصنف الدول على الشكل التالي:

- الولايات المتحدة الأمريكية، وهولندا، والبرتغال، ونابلي، والسويد، والنرويج، والدانمارك، تدفع ضريبة كل عامين.

- الدانمارك، والنرويج، والسويد، تدفع ضرائب أخرى في شكل أسلحة، وحبال، وصواري، وذخيرة البارود، ورصاص، وحديد، تقدر قيمتها بملغ 25 ألف فرنك لكل دولة.

- أسبانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وهانوفر، وسردينيا، والطوسكان، وراقوس، والبندقية، تدفع هدايا دورية للدايات، والباشاوات، وأعضاء الديوان، عند إبرام المعاهدات، أو تعيين القناصل لها بالجزائر.

- هامبورغ، وبريم، تدفعان أدوات الحرب، والتموينات البحرية.

- النمسا، وروسيا، لا تدفعان الضرائب، ولكن تدفعان أموالًا طائلة لفداء أسراها الكثيرين بالجزائر.

أما ليون فاليير، فقد أورد بشيء من التفصيل، ما تدفعه دول أوروبا للجزائر، وذلك على النحو التالي:

- مملكة الصقليتين، تدفع مبلغ 44 ألف بياستر سنويًا، منها 24 ألف نقدًا، والباقي في شكل بضائع.

- مملكة الطوسكان: تدفع 23 ألف بياستر كلما قدم قنصل لها إلى الجزائر.

- مملكة سردينيا: تدفع مبلغًا كبيرًا من المال كلما جددت قنصلها بالجزائر.

- البرتغال: تدفع نفس مبلغ ما تدفعه الصقليتان.

- أسبانيا: تدفع مبالغ مالية كلما جددت قنصلها.

- النمسا: تدفع هدايا دورية مباشرة، وعن طريق الدولة العثمانية.

- إنجلترا: تدفع 600 جنيه إسترليني كلما جددت قنصلها.

- هولندا: تدفع نفس مبلغ إنجلترا.

- أمريكا: تدفع نفس مبلغ بريطانيا.

- لا هانوفر، وبريم، الألمانيتان: تدفعان مبالغ مالية كبيرة كلما جددت قناصلها.

- السويد، والدانمارك، تدفعان مبالغ مالية كبيرة سنوية في شكل مواد حربية قيمتها 400 بياستر فور (قوية).

هناك دول أخرى تدفع كل عشر سنوات، أو عند تجديد المعاهدات، 10 آلاف بياستر قوية، وتقدم هدايا عندما يتسلم قناصلها مناصبهم.

وقد اعتادت الدول الأوروبية دفع هذه الالتزامات، والوفاء بها في الظروف التي تكون فيها ضعيفة، وغير قادرة على المواجهة، أما عندما تأنس في نفسها القوة، وتضيق ذرعًا بالإتاوات والضرائب، والهدايا المفروضة، فإنها تنكث العهود، وتعلن العصيان والتمرد، وتعمد لتنظيم الحملات العسكرية، والغارات والهجومات الغادرة منفردة أحيانًا، ومشتركة أحيانًا أخرى في شكل أحلاف، وعصابات، وقائمة الحملات العسكرية الأوروبية ضد الجزائر طويلة، وعريضة كما مر.

ومصدر قوة الجزائر في العصر الحديث، يرجع إلى وعيها الكامل بالأخطار الأوروبية المحدقة بها، واهتمامها الكبير بإعداد نفسها لمواجهتها سياسيًا، وعسكريًا، واقتصاديًا، وفعالية موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في معظم الحوض الغربي للمتوسط، واهتمامها ببناء قوة عسكرية بحرية رادعة كأداة لفرض إرادتها على الخصوم، تتمثل في الأسطول البحري المهم الذي مكنها من القيام بدور موجه في

الأحداث العالمية لهذا الحوض المائي الحيوي الهائل.

وقد برز في العصر الحديث بحارة جزائريون كبار ذاع صيتهم في كل أنحاء العالم القديم، والجديد، أمثال: صالح رايس، والعلج علي، والرايس حميدو، والرايس عمر، والرايس محمد، والرايس مصطفى، والرايس علي بتشيني، واشتهر الأسطول الجزائري بعدة سفن ومراكب حربية ذات شهرة مثل: ديك الحصن، والجناح الأخضر، والحظ السعيد، والظافر، ونصر الإسلام، والثريا، وحامي الديوان، وطريق الخلاص، وهول البحر، والغزالة، ومفتاح الجهاد، ونفير الإسكندر.

وزيادة على القوة البحرية، اشتهرت الجزائر بإمكانيات اقتصادية متنوعة، كانت أوروبا دومًا بحاجة إليها، وتستورد منها، ومن أمثلتها: الأصواف، والجلود، والعسل، والشمع، والحبوب، والزيوت، وكل أنواع الفواكه والخضر. وقد صدرت الجزائر في عام (1788) وحده، من موانئ الجزائر، ودللس، وعنابة، وأرزيو: 150 مائة وخمسين ألف حمولة قمح قدر مجموعها بمائة (100) ألف قنطار. وقصة الديون الجزائرية على فرنسا في آخر القرن (18) ومطلع القرن (19)، ذات الصلة بمشكلة عائلة باكري، وبوشناق اليهودية، خير دليل على غنى الجزائر المادي وقوتها الاقتصادية.

ورغم أن علاقات الجزائر بدول أوروبا، تتسم بطابع الحروب، والكوارث بصورة عامة، بسبب كل ما ذكرناه آنفًا، إلا أن ذلك لم يمنع نمو هذه العلاقات، وتطورها، وتحسنها، في بعض الأحيان والأزمنة، ومع بعض الجهات الخاصة، وأكثر الدول احتكاكًا بالجزائر، بلدان شمال أوروبا، وإنجلترا، وفرنسا، وهولندا، والدويلات الإيطالية، وأسبانيا، والبرتغال، والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد بلغ مجموع ما أبرمته إنجلترا من اتفاقات، ومعاهدات، مع الجزائر 27

معاهدة منها اتفاق عام (1759). ووقعت هولندا معها عدة اتفاقات منها اتفاق عام (1682)، ووقعت فرنسا 58 اتفاقًا ومعاهدة بين (1619 و1830)، تولى رعاية مصالح فرنسا خلالها بالجزائر 60 قنصلًا ونائب قنصل، وتردد على الجزائر 96 محافظًا، ومبعوثًا. وأول القناصل الفرنسيين بارتول Bartholle، وآخرهم دوفال Duval، وأول المحافظين والمبعوثين دولافوريست De Laforest، وآخرهم دوبيري .Duperr

التفسيرات الأوروبية المغرضة لأعمال البحرية الجزائرية:

لقد دأب الأوروبيون على نعت نشاط البحرية الجزائرية في العصر الحديث بالقرصنة، ووصف رجالها بالقراصنة، وهو ادعاء مغرض بعيد عن الحقيقة والواقع. لأن أول من مارس أعمال القرصنة وتوسع في تطبيقها بكل وحشية، وشراسة، هم الأوروبيون أنفسهم في أعقاب الحروب الصليبية، وبداية التراجع الإسلامي بالأندلس، وذلك بدافع من الحقد الديني، وروح الانتقام، والرغبة في الغنم البحري المادي. والدليل على ذلك هو مباركة الحكومات الأوروبية لأعمال قراصنتها، وتقديم الحماية والعون المادي لهم، كما فعلت إنجلترا، وفرنسا، والنمسا، والإمارات الإيطالية، والألمانية، بل وحتى بعض دول شمال أوروبا مثل الدانمارك.

وقد تحدث ابن خلدون عن نشاط بحارة بجاية ضد القراصنة الأوروبيين الذين يسميهم بالفرنج، في البحار، وشرح كيف كانوا يجهزون أنفسهم، ويخرجون لهذا النوع من الحروب في عُرض البحار، ويعودون بغنائم وافرة.

وفي مطلع العصر الحديث، اشتدت هجمات القراصنة الأوروبيين ضد الجزائر، وبلدان المغرب الإسلامي الأخرى، بسبب نجاح الأسبان في عملية استرداد الأندلس، ووصول المد التركي الإسلامي إلى الحوض الغربي للمتوسط، واضطرت الجزائر لإنشاء أساطيل بحرية مماثلة لتدافع عن نفسها، وترد العدوان، وتقاوم

سياسة التنصير والتمسيح، وتنقذ المسلمين من الأسر، والتعذيب، والسلب، والنهب، والتخريب، والقتل، والتشريد.

وكانت خطة الجزائر في البداية هي الدفاع ضد هذه الاعتداءات، والتحرشات، وضد إرادة التنصير والتمسيح، ثم لما أخذت هذه الاعتداءات، والتحرشات، صبغة الحملات الصليبية، وتحولت إلى أحلاف كبيرة تشارك فيها بلدان كثيرة، انتقلت الجزائر من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم والتتبع. وأخذت قواتها البحرية، تضرب أوكار القراصنة الأوروبيين في عقر ديارهم، وعلى شواطئ بلدانهم، ولقنتهم دروسًا لا تنسى حتى اضطرت حكوماتهم أن تشتري السلام والأمن لها، ولمراكبها البحرية، بالمال، والمعاهدات، وتبادل الأسرى.

وكان عمل البحرية الجزائرية مقاومة ضد العدوان، وجهادًا ضد إرادة التنصير والتمسيح، وليس قرصنة كما ادعى وزعم الأوروبيون، وحتى مع التسليم بأنه قرصنة في بعض الحالات والفترات، فإن الأوروبيين هم الذين سبقوا إليه ومارسوه كحركة للغنم، والسلب، والنهب، وهم الذين أرغموا الجزائريين على عمل المثل في إطار رد الفعل.

ويحتفظ التاريخ لنا في سجلاته، بأمثلة كثيرة، عما ارتكبه الأوروبيون من مجازر، وأهوال، وما اقترفوه من جرم، ضد شعب الجزائر، وبلدان المغرب الأخرى خلال ممارستهم لأعمال القرصنة أواخر العصر الوسيط، وطوال العصر الحديث.

بل إن الأوربيين مارسوا مع القرصنة، حرفة تجارة الرقيق، في الشواطئ الإفريقية، إحياء لما كان يقوم به أجدادهم الرومان في العصور القديمة.

لقد قامت أوروبا في العصر الحديث، وخلال استعمارها للشعوب العربية الإسلامية، والإفريقية بأعمال وحشية، تجاوزت كل حدود التصور، في الفظاعة، والقساوة، فأبادت شعوبًا بأكملها، وقضت على حضارات إنسانية راقية، ونهبت

خيرات البلدان الاقتصادية، وحطمت الآثار الفكرية والعمرانية، وطمست منجزات الشعوب الفنية والثقافية، ومسختها. ومع ذلك لا تشعر بالخزي والعار، ولا تكترث لذلك.

ونحن عندما قام أجدًّادنا الجزائريون بالدفاع عن أنفسهم، وحماية شعوبهم، وأوطانهم، ومقدساتهم وردوا على العدوان بمثله، وصموا بالقرصنة، والقراصنة.

إن أوروبا ما تزال حتى اليوم، تطبق نفس الأساليب، وتقوم بنفس الأعمال، وترتكب نفس الجرائم، في فلسطين، والصحراء الغربية، وجنوب إفريقيا، وفي جزر، وأرخبيلات المحيطات: الهادي، والهندي، والأطلسي، كالفليبين، وجزر القمر، وتسترشد دائمًا بالمثل السائر، قتل وحش في غابة جريمة لا تغتفر، وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر. فعندما يذبح الفلسطينيون بالجملة في جنوب لبنان، والأفارقة السود في الزامبابوي، وجنوب القارة، وسويتو، والصحراويون في الساقية الحمراء ووادي الذهب، والمسلمون في تشاد، والفليبين وإريتريا، والصومال الغربية، لا تحرك أوروبا ساكنًا، بل إنها تدعم هذه الأنظمة التي تذبح، وتقتل، وتزودها بأسلحة الدمار الفتاكة، وعندما يتعرض مواطن أو مجموعة مواطنين من أبناء جنسها، أو بعض مصالحها الاقتصادية، لخطر، تحشد جيوشها وأساطيلها، وترتكب أبشع الجرائم، وأشنعها، وأخسها بدعوى: حماية رعاياها كما حصل في الساقية الحمراء، ووادي الذهب، وكاتانقا سابقًا، وشابًا حاليًا، وتشاد[1].

لقد آن الأوان لكشف مخازي الاستعمار الأوروبي، وجرائمه، ضد الشعوب التي استعبدها، وأذلها، ومنها بلادنا الجزائر وآن الأوان كذلك لغربلة تاريخنا، وإزالة الزيف، والتدليس اللذين ألصقا به عن قصد، ودحض الأقاويل والأباطيل التي

---

(1) وكما يحدث الآن في البوسنة والهرسك بقلب أوروبا، وتحت أعين ونظر الساسة الأوروبيين الذين يزعمون أنهم متحضرون ومتقدمون.

ابتدعت فيه، وإبراز الحقائق الناصعة عن كفاح الأجدّاد البطولي، ومنجزاتهم الحضارية الخلاقة عبر مسيرة التاريخ الطويلة.

ورغم أن مثل هذا العمل شاق، وطويل، إلا أنه ضروري، بل واجب مقدس، حتى يعود للجزائر وجهها الحقيقي الأصيل، والناصع، ويتوازن عمل البناء الذي تقوم به اليوم وتنجزه، وتخرس إلى الأبد أشداق المتقولين، وهي مهمة الباحثين الجزائريين، في جامعات الجزائر الناشئة.

❑❑❑

بعض المراجع المعتمدة

أ - بالعربية:

- بو عزيز (يحيى) الموجز في تاريخ الجزائر، جـ 1 (المطبوعات الوطنية - الجزائر 1965) ص220.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر، جـ 6 (دار الكتاب اللبناني - بيروت 1959).

- ابن آشنهو (عبد الحميد بن أبي زيان) دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر (الجزائر 1972) ص232.

- الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ الجزائر العامن، جـ 2 (الجزائر 1955) ص 413.

- شكري (د. محمد فؤاد): أنيس (د. محمد): أوروبا في العصور الحديثة، جـ 1 (القاهرة 1957) ص 367.

- العربي (إسماعيل): العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الأمريكية (1776 - 1816) (الجزائر - 1978) ص 307.

- العقاد (د. صلاح): المغرب العربي، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى (القاهرة 1962) - ص 498.

- المدني (أحمد توفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492 - 1792) (الجزائر - 1976) - ص 533.

- الميلي (مبارك بن محمد الهلالي): تاريخ الجزائر في القديم والحديث، جـ 3 (الجزائر 1964) - ص33.

- رفعت (محمد): تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية (دار المعارف - مصر 1959) - ص514.

ب - بالفرنسية:

- GALIBERT (M. Leon). - L'Algerie ancienne el moderne, Paris, 1844, 634 p.

- GRAMMONT (H.D.DE.). - Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, Paris, 1887, 420 p.

- HA1DO (Fray Diego De). - Histoire des Rois d'Alger, traduit et annotde par Grammont (H.D.DE.), Alger 1881, 222 p.

- JUUEN (CH.)A - Histoire de 1'Afrique du nocd, Tunisie, Algene, Maroc de la conquete arabe a 1830, 2eme ed., Payot-Paris, 1962, 367 p.

- LACOSTE (YVES), NOUSCH1CA, PRENANT (A.). - L'Algerie passe et present, le cadre et les Stapes de la colonisation de 1'Algerie aauelle, Paris, 1960, 562 p.

- MASSON (Paul). - Histoire des etablissements et ducommerce francais dans 1'Afrique barbarisque 1560-1773.

- RINN (Louis). - Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey, Alger, 1900. Venture de paradis. - Alger au XVIll" siecle, Alger, 1898.

- BERJAUD (Leo). - Boutin, agent secret de Napoleon ler et percusseur de L'Algerie francaise, Paris, 1950, 320 p.

□□□

اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ماكتبوه[1]

كانت الصحراء الكبرى الإفريقية، عالمًا مجهولًا بالنسبة للأوروبيين قرونًا طويلة، ولم يكتسب هرمر: Homere وسيلاكس: Scylax وبروماتوس Promathus، إلا معلومات جد محدودة عنها. غير أن هيرودوت قدم عنها، لأول مرة، معلومات لا بأس بها للأوروبيين، بعد أن قام برحلة إلى برقة ودواخل ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد. فذكر أنها كانت قبل نصف مليون سنة، أقل جفافًا، وانعدامًا للماء، بدليل أن قبائل القرامانت: Les Gramantes، التي ينحدر منها سكان توبوس: Toubous، في تيبستي، مارست حروبًا بالعربات التي تجرها الخيول، ضد الأحباش، وهو ما أكده الباحث الأثري هنري لوت: Henri Lhote المتخصص في دراسة ما قبل التاريخ للصحراء، وقال بأن العربات كانت تجرها الخيول من ليبيا إلى أدرار السوداني، واكتشفت رسوم في صخور تاسيلي بالهفار تثبت ذلك عام (1932م)، من طرف الضابطين: دوبري ونولي.

وفي عهد القرطاجنيين، حاول حانون القرطاجني ربط الصلات التجارية بين شمال القارة، ووسطها، بواسطة مجرى واد درعة، ونهر السينيغال بعد أن قام برحلة إلى المحيط الأطلسي عبر مضيق هرقل (جبل طارق)، وراجت في قرطاجنة بضائع الصحراء التي كانت القوافل تحملها من النيجر إلى طرابلس عبر مرزق، وبلاد

(1) وقد حضر هذا الملتقى هنري لوط مكتشف صخور التاسيلي.

ألقي هذا الموضوع في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث عشر بمدينة تمنغست (الجزائر) أواخر أوت وأوائل سبتمبر (1979م).

الفرامانت، مثل: الذهب، والجلود، وريش النعام، والعبيد، التي تباع بالأقمشة، والحلي، والأحجار الكريمة.

وخلال الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي، اقترب الرومان من أطراف الصحراء الشمالية، وأقاموا قلاعًا، وقواعد عسكرية، وسكنية، في بنغازي، وطرابلس، وغدامس، وإفريقيا القنصلية، وتبسة، والأوراس، ونوميديا الشرقية، وموريطانيا القيصرية.

وفي مطلع القرن الأول المسيحي تمكن كورنيليوس بالبوس: Cornelieus Balbus من عبور الصحراء عام (19م) من ليبيا إلى تاسيلي أزجير بالهفار، في محاولة للوصول إلى مجرى نهر النيجر، واقتفى أثره آخرون بعد ذلك إلى السودان، والآير، ومن ضمنهم: سبتوميوس فلاكوس: Septimus Flacus وجوليوس ماترنوس: Julius Matternus.

وفي العصر الإسلامي جاب هذه الصحراء الكبرى طولًا، وعرضًا، رحالة، ومؤرخون عديدون، وتعرفوا أرجاءها، وأسرارها، وكمائنها، وسجلوا ذلك في رحلاتهم وكتبهم، ومنهم: ابن حوقل، والبكري، وابن بطوطه، وابن خلدون، والإدريسي، والحسن الوزان، والمغيلي، والعياشي، والتجاني، وغيرهم.

الاكتشافات الأوروبية في القرن (19م):

أما الأوروبيون فقد بدءوا اهتمامهم بالصحراء عندما شرعوا في الكشوف الجغرافية البحرية الاستعمارية خلال القرن الخامس عشر وما بعده. فقام مغامر جنوبي برحلة إلى حوض النيجر عبر توات عام (1447م)[1]. وقام البرتغاليون

---

(1) Ch. De La Ronciere: decouverte d'une reation de voyage date du Touat et decrivant en 1447. Lebassin du Niger. (Bul. Soc. Geo. Paris (Paris - 1918). PP. 1 - 22.

بالدوران حول القارة الإفريقية للوصول إلى بلاد الهند بحثًا عن البهارات، وغيرها من سلع الشرق الأقصى.

وفي أواخر القرن (18) ومطلع القرن (19م) اشتد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين، والإنجليز، والألمان، حول القارة الإفريقية، وكان من أسباب هذا التنافس:

أولًا: إيجاد مجالات للصناعة والتجارة الأوروبيتين فيما يخص الأسواق والمواد الخام.

ثانيًا: إيجاد مجال لإسكان فائض السكان على الآماد البعيدة.

ثالثًا: القيام بدراسات علمية متنوعة: طبيعية، وبشرية، واقتصادية .

وكان الإنجليز أول من أبدى اهتمامًا بإفريقيا والصحراء، بعد أن تقلص نفوذهم في أمريكا الشمالية، وفقدوا مستعمراتهم هناك. فأسسوا عام (1788م) جمعية دواخل إفريقيا:

Assoeiation for the promoting of the Discovery of the interior of Africa .

وكلفوها بتجنيد المغامرين وتوجيههم إلى إفريقيا لاستكشافها وغزوها، فجندت عددًا لا بأس به منهم وكلفتهم بالقيام برحلة إلى أعماق الصحراء. فقام جون لديار: John Ledyard بعبور الصحراء من الشرق إلى الغرب عبر وادي النيل إلى أعالي النيجر. وعاد إلى مصر وتوفي من جراء التعب والإرهاق. وتبعه لوكا: Lucas، نائب القنصل البريطاني السابق في طنجة. فقام بمحاولة استكشاف انطلاقًا من مدينة طرابلس الغرب. ولكن مقاومة السكان أرغمته على التراجع. فقام الماجور هوجتون Le Major Houghton برحلة إلى دواخل القارة من السينيغال، وقتل على مشارف الصحراء.

وفي أعوام (1975 - 1797) قام مونقوبارك: Mungo Park برحلة إلى السودان من بيزانيا في قامبيا بغرب إفريقيا. ووصل إلى باماكو، وأعالي نهر النيجر. وأذنت جمعية دواخل إفريقيا للألماني هو رنمان: Hornnemain بالقيام برحلة إلى النيجر انطلاقًا من مصر، فاتجه عام (1798) من القاهرة إلى واحة سيوه، ومرزق، ثم عاد إلى طرابلس، وانطلق من هناك مرة ثانية إلى أطراف النيجر عام (1800)، وتوفي في تمبو كتو.

وخلال حروب نابوليون الأول في أوروبا، اهتم الأوروبيون أكثر باستكشاف إفريقيا، وغزوها. فعاد مونقوبارك مرة أخرى إلى النيجر عام (1805)، وهلك هو ورفيقه في العام التالي قرب برنوح (بوروح) بسبب مقاومة سكان أوليمندن لهما فقام بعدهما الألماني رونتجن: Roentgen برحلة من المغرب الأقصى إلى الصحراء، وقتل هو الآخر في بلاد حاجة خلال شهر جويلية (1809م).

وفي عام (1818) كلفت الحكومة البريطانية جوزيف ريتشي: Joseph Ritchie أحد كتاب قنصليتها بباريس بأن يتجه من طرابلس إلى السودان فصحبه ضابط البحرية الكابيتان ليون: Lyon وغادر طرابلس في مارس (1819)، إلى مرزق، وهلك في الطريق فعاد ليون إلى طرابلس. وتألفت بعثة أخرى لمواصلة طريقها كان من بين أعضائها الطبيب أودنيكس: Oudnex وضابط البحرية كلابرتون: Clapperton وضابط الجيش البري الكابيتان دنهان: Denhan وغادرت طرابلس إلى غات، وبحيرة تشاد وقد توفي أودنيكس في جوان (1824)، وواصل كلابرتون، ودنهان الرحلة إلى كانو، وكاوا. ثم عادا إلى طرابلس في جانفي (1825).

وفي نفس العام كلفت الحكومة البريطانية الماجور الكساند قوردون لاين: Le Major Alexandr Gordon Laing بالقيام برحلة إلى إفريقيا. فغادر طرابلس في ماي (1825)، وزار غدامس، وقاده الشاب عثمان بن الحاج بكري بن الحاج

الفقيه، إلى عين صالح، وأزاواد، ثم إلى تمبوكتو إلى أن اعترضته مشاكل وصعوبات، من طرف سكان برييش، فعزم على التوجه إلى أروان بصحبة أحمد عبده ولد الرحال. وفي الطريق قتله مرافقه ولد الرحال لأسباب اختلف الكتاب في شرحها(1).

أما الفرنسيون فقد بدءوا مغامراتهم في الصحراء الإفريقية منذ رحلة روني كايي Rene Caillie في أعوام (1824 - 1828م) واشتد حماسهم بعد احتلالهم لمدينة الجزائر عام (1830م)، ولكن المقاومة البطولية الصامدة التي واجهوها من طرف الشعب الجزائري في الشمال، عاقتهم عن ذلك قرابة أربعين عامًا، وتمحورت اهتماماتهم في ثلاثة محاور رئيسية وبارزة هي:

المحور الأول: وهو الهدف الأساسي لهم، ويتمثل في الغزو والتوسع الاستعماري، الذي اعتادوا نعته (**بالاستكشاف**) وتعرف هذا المحيط الواسع، من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء المتناثرة هنا وهناك.

واقترن هذا الغزو والتوسع الاستعماري بمحاولة تعرف إمكانيات الصحراء: الاقتصادية، والبشرية، لاستغلالها، واستثمارها. واستكشاف المظاهر الجغرافية: التضاريسية، والمناخية، والطوبوغرافية، والطاقة المائية الجوفية الكامنة. كما اقترن هذا الغزو والتوسع الاستعماري، بدراسة المجموعات السكانية، وعاداتها، وتقاليدها، وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية.

المحور الثاني: برز كنتيجة للاهتمام الأول، ولخدمته، وتدعيمه، ويتمثل في محاولة وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية، والبرية، وأسلاك الهاتف، لتسهيل سبل التنقل في ظروف آمنة، للقوات العسكرية، والمغامرين بين مختلف

---

(1) Georger Kehl: Exploration et Penetration Sahariennes dans la Premiere moitie du XIX siecle. Bul. Soc. Geo. Arch. Oran (Oran - 1953) pp. 5 - 10.

المناطق الصحراوية. فأخذوا يدرسون المظاهر الطوبوغرافية، والتضاريسية، والمناخية، لتحديد المناطق التي تصلح لمد هذه الخطوط الحديدية، وشق الطرق البرية، وتحديد اتجاهاتها وإبراز المحاسن، والصعوبات، وتقديم الحلول، والاقتراحات.

فتعددت رحلات المستكشفين، والدارسين، المتخصصين، والمغامرين، من المرتزقة، وتعددت وجهات نظرهم، وحاولوا أن يستغلوا طرق القوافل الصحراوية حتى يستفيدوا منها في مشاريعهم الاستعمارية، ويفتحوا الطريق للتجارة الفرنسية لتتغلغل إلى قلب القارة، كما حاولوا أن يستفيدوا من كتب الرحالة العرب وكبار المؤرخين. وأخذت طرابلس حظًّا وافرًا من دراستهم الاقتصادية. وتمكنوا من تعرف شبكة الطرق الصحراوية، ووضعوا لها رسومًا وخرائط متعددة ومتنوعة.

المحور الثالث: برز كنتيجة للاهتمامين السابقين، الأول، والثاني، ولخدمتهما، وتدعيمهما. ويتمثل في محاولة خلق بحر داخلي صحراوي من أجل إحداث تغيير جذري في الظروف الطبيعية، والمناخية القاسية للصحراء. فاتجهت أنظارهم إلى أحواض الجريد التونسي، وأحواض بسكرة، وواد سوف، في الطرف الشمالي لحوض ايغرغر، لاتخاذها نواة لهذا البحر الداخلي الصحراوي، الذي سيربط بالبحر المتوسط عن طريق شط فجاج إلى خليج قابس. وقاموا بدراسات واسعة للمنطقة من جميع النواحي. وتعددت رحلات الدارسين إليها قبل، وبعد احتلال تونس، وتضاربت وجهات نظرهم بين محبذ، ومعارض.

وسنتعرض لهذه المحاور واحدًا بعد آخر فيما يلي:

المحور الأول: البعثات الاستكشافية والغزو الاستعماري إلى جنوب الجزائر والصحراء:

كانت ثورات الشعب الجزائري في الشمال، سببًا في تحول الواحات الصحراوية

في الجنوب، إلى معاقل للثوار، والمجاهدين، الذين يفرون إليها للاعتصام والاستعداد.

ولذلك عزم الفرنسيون على التوسع إلى أعماق الصحراء خاصة بعد أحداث ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة بسكرة عام (1849م)[1]. وحركة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط، وورقلة، وتقرت[2]. وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني[3].

واشتد هذا الاهتمام أكثر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من أجل ربط مستعمراتهم ببعضها البعض في الشمال، والغرب، والوسط.

وجاء تعرض بعض حملاتهم، وبعثاتهم العسكرية التوسعية، إلى هجمات المقاومين الجزائريين في أعماق الصحراء، ليقوي من عزمهم، ويحفزهم أكثر، إلى التوسع والسيطرة على كل الواحات الصحراوية، ووضع حاميات عسكرية بها تضمن لهم الأمن، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة ما دعوه: (**نشاط أتباع الطريقة السنوسية بليبيا**)، ومنع سلطان المغرب الأقصى من مد نفوذه إلى واحات توات.

وكان حادث مقتل فلاتر Flatters ورجال بعثته، من طرف التوارق أوائل عام (1881م)، البداية الجدية للتوسع الفرنسي إلى أعماق الصحراء. وسنحاول فيما يلي تتبع هذه البعثات، والحملات العسكرية، والاستطلاعية، بإيجاز غير مخل، لتبيان

(1) انظر دراستنا بعنوان: أضواء على ثورة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام (1849م). مجلة الثقافة عدد 32. (الجزائر - أبريل - ماي 1975) ص (39 - 50).

(2) انظر دراستنا بعنوان: وثيقتان جديدتان عن ثورة الشريف محمد بن عبد الله. الثقافة. عدد 33 (الجزائر - يونيو - يوليو - 1976م) ص (11 - 28).

(3) انظر دراستنا بعنوان: أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى (1864 - 1873م). الثقافة. عدد 46. (الجزائر - أغسطس - سبتمبر 1978م) ص (11 - 32). وعدد 51 (ماي - جوان 1979) ص (31 - 50).

أهداف الفرنسيين من ورائها.

كان روني كايي هو أول المغامرين الفرنسيين إلى أعماق الصحراء، فعبرها من السينيغال إلى تمبوكتو، وعاد على طريق تافيلالت إلى فاس، والرباط، وطنجة، فيما بين عامي (1824 و1828م). وكان في نيته أن يخترق الصحراء إلى الشرق نحو مصر والحجاز، في زي تاجر متظاهر بالإسلام، ولكن واجه صعوبة فاكتفى بالوصول إلى تمبوكتو، والعودة منها إلى طنجة[1].

وفي مطلع الخمسينات بدأت الرحلات والبعثات تكثر، نحو الجنوب، فقام الدكتور هنري بارث الألماني برحلتين في عامي (1849 - 1855م). من طرابلس إلى غدامس، وغات، بفزان، وإلى تشاد، وتمبوكتو، عبر قورارة، وتوات، وتيديكلت، وفقد في رحلته صديقيه ريتشارد سون، وأوفيرويج[2].

وفي نفس الفترة قام إدوارد فوجيل: Edouard Vogel برحلة من طرابلس إلى أعماق الصحراء عام (1853م)، وقتل بواداي بعد ثلاث سنوات، وقام بونمان برحلة إلى غدامس عبر سوف عام (1857م)[3]. كما قام كل من كولومب، ودوفيري، برحلتين: الأولى إلى القصور الصحراوية جنوب عمالة وهران عام (1853م)، تعرف الواحات، والطرق، ومعابر القوافل[4]. والثانية إلى بلاد التوارق

---

(1) Rene Caillie: Memoires, Extraits,Analyses et Rapports, (Bul. Soc. G. Paris - 1830) Tome 15 pp. 101- 114, 149 - 162 et 213 - 241.

(2) Dr. Henri Barth: Voyages et decouvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les annees 1849 - 1855. Traduit de l'Allemand par Paul Ithier (Paris. A. Bohne 1860) 4 vol. 370 + 318 + 337 + 304 pp.

(3) Auguste Cherbnneau: Relation du voyage de M. Le Capitaine de Bonnemain a R'Dames 1856 - 1857. (Paris. A. Bertrand 1857). 36 p.

(4) JEAN FRANCAIS DE COLOMB: EXPLORATION DES KSOURS =

أزجير لدراسة تقاليد السكان، وعاداتهم، وأساليب حروبهم، ثم قام بعد ذلك بعدد كبير من الرحلات إلى مختلف مناطق الصحراء خاصة بلاد التوارق، ومزاب[1].

وفعل بيرنار داتانو، مثل دوفيري، فقام برحلة إلى جنوب طرابلس، وغدامس، وإلى بلاد التوارق أزجير[2]. وتعرف كولونيو قورارة، وأوقيروت عام (1860م)[3]. وقام فون بورمان Von Beverman برحلة من بنغازي إلى السودان، حيث قتل.

وتعتبر بعثة كل من ميرشير: Mircher وبولينياك: Polignac وفاتون

= ET DU SAHARA DE LA PROVINCE D'ORAN (ALGER - 1858) 63 P.

(1) قام هنري دوفيري: بعدة بعثات إلى مختلف مناطق الصحراء، وكتب عدة تقارير، ودراسات عنها منها:

A) Notes sur les Touaregs et leur pays (Paris - 1863). 24 p.

B) Exploration du Sahara; les touaregs du Nord. (Paris 1864) T. ler XXXVI + 501 + 39 p.

C) Histoire. dei explorations au sud et au sud-ouest de Geryville. (Paris 1872) 39 p.

D) Itineraires de Methlili a Hassi BerghSoui et d'El-Goleaa a Methlili d'apres un journal de voyage 1859. (Paris) IMP. Martinet; (S ; D.) 35 p.

E) Journal d'un voyage dans la province d'Alger, Fevrier, Mars, Avril 1857 (Paris-1900) VII + 84 p.

F) Le Nord du Sahara central. (Bui. Soc. G.A. Alget 1903) pp. 25.45.

G) Sahara algerien et tunisien. Journal de route de Henri Duveyrier public et annote par ch. Maunoir et H. Schimir. Precidi d'une Biographic de H. Duveyrier par Charles Maunoir. (Paris - 1905) XXIII + 214 p.

(2) Bernard d'ATTANOUX: Voyage d'esploralion chez les Touaregs. Azeider. (Lille - 1859) 17 p.

(3) Le commandant Colonieu: voyage au Gourara et a l'AouguerDtit I860. (Bui. Sol. G, Paris 1892 - 1893 - 1894) pp. 41.97.53.97 et 430 - 466.

Vatonne والطبيب هوفمان: Heffman وإسماعيل بوضربة، إلى غدامس عام (1862) دفعًا جديدًا للتوغل الفرنسي إلى الجنوب، وخدمة أغراض التجارة الفرنسية: فقد تمكنت هذه البعثة من إبرام اتفاق مع زعيم التوارق الشيخ الحاج أيخنوخن يوم 26 نوفمبر (1862م)، نص على فتح أبواب التجارة والأسواق للبضائع الفرنسية، في بلاد التوارق، وحماية المفاوضين الفرنسيين، وتقديم العون والمساعدة لهم في تنقلاتهم(1).

وفي نفس الفترة كان جيرارد روهلف الألماني يقوم برحلاته المتعددة عبر الصحراء، وهو جندي قديم في حرس الشرف بالجزائر، وكان أول أوروبي يخترق الصحراء من الغرب إلى الشرق خلال الفترة الممتدة من (1862م إلى 1885م)(2).

ورغم فشل حملة قاليفي في احتلال القليعة أواخر عام (1872م)، ومطلع عام (1873م)(3) ومقتل كل من: دورنو - دوبيري: Deurneaux du Pere وجوبير: Joubert عام (1874م) قرب عين أزهار بين غات وغدامس، عام (1874م)، والرهبان الثلاثة: دوشار Douchard ومينوري Menoret وبولميي Paulmier عام (1876م) قرب عين صالح، فإن الرحالة والمغامرين الأوروبيين لم يتوقفوا عن نشاطهم التخريبي في الصحراء؛ فقام الطبيب ناشتيقال Nachtigal برحلة من مصر

---

(1) Mission a Ghadamcs (septembre - decembre 1862) Repports offidelsel documents a I'appui (Alger - 1863).35 p.

(2) Malte (N.A.) risume historique ct geographique de I'exploration de Gerhard Rohlfs auTouat et a In-Salah d'apres Ic journal de cc voyage publif par les soins d'Aug. termar avec une carte d'ensemble des voyages de H. DUVEYR1ER et de G. ROHLFS dans l'Afrique septentiionale. (Paris - 1866) - 159 p.

(3) Colonne expeditionnaire du general GALL1FET dans le Sahara. (BUL. R. OFF. 1875) pp. 24. 27.

إلى تيبستي، وسواحل إفريقيا الغربية، وسجل معلومات كثيرة عن المنطقة الممتدة بين طرابلس وتشاد، وفعل مثله فون باري: Von Bary فاتجه من طرابلس إلى الآير، ومات في مرزق من شدة الإرهاق والتعب.

ونظم فيل رحلة إلى حوض الحضنة، والصحراء أواخر الستينات[1] وصوليلي إلى عين صالح، والصحراء الوسطى في السبعينات[2]، وايروين دوباري إلى غات، والتوارق أزجير، وتاسيلي، وتوفي في غات خلال الرحلة نفسها عام (1877م)[3]. والدكتور أوسكار لينز: Oskar Lenz إلى تندوف وتمبوكتو عام (1880م).

مقاومة التوارق للتوسع الفرنسي إلى الهقار:

كان نشاط الإنجليز التوسعي الاستعماري في إفريقيا، حافزًا للفرنسيين ودافعًا لهم لينشطوا أكثر في التوسع والاحتلال بالصحراء الكبرى، وقرر دوفريسيني: De Freycinet في أكتوبر (1879م) أن يسند إلى الضابط فلاتر: Flatters مهمة القيام بعملية استكشاف لمد طريق صحراوي من الجزائر إلى النيجر، وتشاد، فتألفت البعثة من 150 شخصًا بينهم 25 فرنسيون، وانطلقت من ورقلة يوم 25 مارس (180م) إلى بحيرة منقنج، وتعرفت إقليم العرق، وواد أيغرغر، ووضعت خريطة لقسم كبير من بلاد التوارق أزجير، وبسبب مقاومة التوارق لها عجلت بالعودة يوم

---

(1) Vill: Voyage d'exploration dans les bassins du Hodna ^t du Sahara (Paris'- 1868) VII + 790 p.

(2) Paul SOLfilLET:
Exploration du Sahara central, voyage de Paul Solcilet d'Alger a l'Oasis d'In - Salah. Rapport presente a la chambre de commerce d'Alger (Alger - 1874) 141 p.

(3) ERWING DE BARY: Le dernier rapport d'un europeen sur Ghat et les Touaregs d'Air (journal de voyage d'Erwing de Bary 1876 - 1877). Traduit par HENRI SCHIRMER (Paris - 1898) 221 p.

11 ماي. وفي يوم 4 ديسمبر (1880م) قامت هذه البعثة بقيادة فلاتر نفسه برحلة أخرى ثانية للمهمة نفسها، إلى أمقيد والهقار. فتتبعت وادميه إلى حاسي سيدي عبد الكريم، وحاسي نسوكي، وهضبة تادمايت، وحاسي مسقم، ووصلت إلى أمقيد يوم 13 جانفي (1881م)، وعبرت هضبة تينقارت، وعين انزيهان - تيكسين، إلى سبخة أمدغور، ومن هناك اتجهت إلى تيماسينين، ووصلت طلائع القافلة بقيادة فلاتر إلى بير الغرمة يوم 16 فيفري، وهناك قام الأدلاء التوارقيون بقتل فلاتر، ورفاقه مثل: روش، وقيار، وماسون، ودونري، ويانو، ولم يفصح الفرنسيون عن الأسباب الحقيقية لذلك، ولكن الفكرة الوطنية لها دخل كبير في ذلك. وكان من نتائج بعثة فلاتر هذه تعرف طريق القوافل بين القليعة، وورقلة، وعين صالح، وأدلس، وعسيو، وغات، وغدامس.

وقد مهد مقتل فلاتر ورفاقه، لسلسلة من الاغتيالات للأوروبيين في الصحراء من طرف التوارق، ومنهم الرهبان الثلاثة: ريتشارد Richard وبوبلار Pouplard وموررا Morat قرب غدامس عام (1881م). والضابط بالا Palat عام (1886م)، والضابط كاميل دول Camille Douls عام (1889م) بين أولف وأكابلي، بتهمة تواطئه في مقتل زعيم عين صالح عبد القادر بن باجوجة[1]. وقرامبل Grampel في بلاد الكوني من طرف أنصار رابح السوداني، والماركيز موري Le Marquis Mores قرب غدامس عام (1896م).

ولهذا السبب اهتم الفرنسيون بإنشاء مراكز عسكرية أمامية في أعماق الصحراء فيما بين عامي (1893 و1894)، لمواجهة هذه الأخطار، وتنظيم عمليات الغزو والتوسع الاستعماري، وعملوا على تنظيم حملات، وبعثات أخرى إلى الصحراء الغربية والوسطى، والسودان الأوسط، وتشاد، والنيجر، شمال شرق نيجيريا

---

(1) E.M. La mort de M. Douls et la facon de voyager. (BUL. SOC. G. COM. Paris -1889). T. XII. Pp. 175.

الإنجليزية، وباقيرمي التي تربط تشاد بالكونغو الفرنسي.

وفي هذا الإطار قام فيرديناند فورو بتسع رحلات بين عامي (1882م و1898م)، اخترق خلالها الصحراء، ومهد لحملة فورو ولامي الأخيرة عام (1898م) وما بعده.

لقد شهد عقد التسعينات، سلسلة من البعثات، والحملات العسكرية إلى مختلف أرجاء الصحراء مثل: حملة باجول، وشاتوليي، وبارث إلى قورارة، وتوات، وتيديكلت[1]. وبعثة كولو إلى جنوب القليعة حيث قتل هو ورجاله يوم 31 أكتوبر (1891م)[2]. وبعثة موني، وقرامبل، وديبوسكي: Dybowski، وميزون: Mizon، وميستر: Maistre إلى شمال السودان، ومعظم مناطق إفريقيا الوسطى والغربية[3]. وبعثة هورس، وتوتي إلى بلاد التوارق والنيجر[4].

وهناك ثلاث حملات نالت شهرة، في أواخر القرن التاسع عشر، لأنها اكتسحت معظم الصحراء الكبرى وضمته إلى الإمبراطورية الفرنسية وهي:

- حملة إيميل جنتيل Emile Gentil، في أعوام: (1895 - 1897 و1899م - 1900م)، تعرف مصبات الكونغو، وأودية مياه تشاد، فتنقل بين الكونغو، وأوبانقي، وشاري، ووادة، ونانة، وقريبينقي، وتصدى له سلطان بورنو، رابح وأتباعه، فانسحب إلى بينوي بعد أن أخضع باقيرمي إلى السيطرة الفرنسية.

---

(1) Le capitaine Bajolle: le sahara d'Ouargla, de Oued Mia a Oued Ighaghar (Alger - 1887). 55 p.

(2) Le massacre de mission Collot. (Bul. Com. A.F. 1898) pp. 381-382.

(3) Servin - Desplaces: La mission Menteit et la politique de la France en Afrique du Nord (N.R. 1898) pp. 148 -141.

(4) A. PERIE: Les Touraegs et les missions Toutee et Hourst (Bul. S.G. Alger 1896 - 1897) pp. 143 - 146.

وقد تصدى رابح وابنه فضل الله لمقاومة قوات الضابط بروتوني: Bretonnet، وهزماه في طوقباو، وأسروا له الضابط بيهاقل: Behagle، وأعدماه خلال عام (1899م) في غياب جنتل، وتواصلت العمليات العسكرية في المنطقة، واستبسل رابح وابنه، وأتباعهما في مواجهة الغزو الفرنسي للمنطقة خلال عام (1900م).

- حملة فولي شانوان: Voulet - Chanoine، وجولان مينيي: Joulland Meynier إلى إفريقيا الوسطى في عامي (1899 و1900م)، وذلك لدراسة الحدود التي وضعت بين مناطق النفوذ الفرنسي، والإنجليزي، كما حددتها اتفاقية 14 جوان (1898م)، والاتصال بحملتي: جنتل، وفورو - لامي، وقد خربت هذه الحملة كل قرى حوض النيجر، ولكنها حصلت فيها فوضى، وتقاتل ضباطها فيما بينهم وقتل فولي، وكلوب، ثم دخلت إلى زندر أواخر شهر جويلية (1899م)، وتمكنت من قتل السلطان أحمادو خلال معركة روجي أواخر شهر سبتمبر من نفس العام.

- حملة فورو، ولامي، في عامي (1900 و1898م)، وهي أهم هذه الحملات جميعًا، فقد كان (**فيرديناند فورو**) قد شرع في غزو الصحراء منذ عام (1876م)، وقام بحوالي ثماني رحلات فيما بين عامي (1882 و1897م) بتكليف من وزارة الأشغال العامة. وحاول عام (1897م) أن يصل إلى منطقة الآير بالهفار، ولكن التوارق واجهوه وقاوموه فقطع رحلته، وعاد، حتى لا يكون مصيره مثل فلاتر.

وفي 5 مارس (1898م) عين للقيام بحملة هامة وكبيرة تنطلق من جنوب الجزائر، على أن تنطلق في نفس الوقت حملة ثانية من السينيغال، وحملة ثالثة من الكونغو لتلتقي جميعًا في بحيرة تشاد.

وقد وضعت هذه الحملة تحت إمرة فورو، وعين الضابط لامي قائدًا للحرس فيها، وجند لها 296 عسكريًا، وألف جمل، ومجموعة من الأدلاء، وكميات كبيرة من

المؤن والأغذية، والذخائر. وغادرت صدراتة قرب ورقلة يوم 16 أكتوبر (1898م) في اتجاه زندر التي وصلت إليها يوم 2 نوفمبر (1899م)، وفقدت في الطريق معظم الجمال بسبب الإرهاق وطول الطريق. وفي أواخر ديسمبر شرعت في العودة وخاض التوارق ضدها معركة كبيرة في أزجير خلال شهر جانفي (1900م) ووصلت إلى التشاد في شهر فيفري، والتقت بحملتي: جنتل، وجولاند[1].

وخلال الصدام مع قوات رابح يوم 22 أبريل (1900م)، قتل لامي قائد الحرس، وثمانية عشر شخصًا من أفراد الحملة، بينهم بعض الأطباء، كما قتل رابح نفسه شمال غرب كوسري. وبعد عامين من هذا التاريخ قتل ابنه فضل الله في معركة فوجييه يوم 22 أوت (1902م). وكان من نتائج حملة فورو ولامي هذه، إبرام اتفاقية عام (1899م) مع الإنجليز لتقسيم القارة فيما بينهم، وتجنب الصراع[2].

وهكذا تمكن الفرنسيون في مطلع القرن العشرين من احتلال عين صالح، وواحات تيديكلت، وقورارة، وتوات، وايجلي، وتيميمون، وفقيق، وشاروين، وتاليمين، وبني سمير في الجنوب الوهراني فيما بين عامي (1900 – 1903). وعين لابيرين على رأس القيادة العسكرية التي استحدثت لجنوب الجزائر الصحراوي عام (1902م) فاتخذ عين صالح مركزًا لقيادته. وأقنع الراهب دوفو كولد بالانتقال من

---

(1) F. Foureau: La mission Foureau – Lamy a la suite de la mission Foureau – Lamy. Les reconnaissances du capitaine pein. (Bul. Com. A. F. 1899). Et Henri Schirmer: les resultats geographiques de la mission saharienne. Mission Foureau – Lamy. (Bul. SOC. G. Paris 1906). T. XIII. pp. 30 – 39.

(2) Des Gilleuls: l'oeuvre scientifique et pacificatrice des grandes missions sahariennes. Revue historique de l'armee. N 4. (Paris – novembre 1959) pp. 67 – 88.

بني عباس إلى بلاد الهفار ليساعد في إخضاع التوارق للسيطرة الفرنسية الاستعمارية.

وخاض التوارق معركة تيت المشهورة يوم 7 ماي (1902م) ضد قوات الضابط كوتنيس Cottenes، واشتدت الحملات العسكرية ضدهم بتدعيم وتخطيط من لابيرين، ودوفو كولد، الذي قيل: إنه لو كان موجودًا بالصحراء عام (1881م) لما قتل فلاتر ورجاله[1].

وقد نشط كل من فيلات: N. Villatte وإدوارد أرنو، وموريس كورتي، ودينو: Dinauk، وكليرجي: Clerget، ودو: D'Eu، وفلاماند: Flamand، وبان: Pein، وبيلي: Billet وريسبورق: Risbourg وفريزو: Grisot، وسيرفيير: Serviere في مقاومة سكان الصحراء وغزو واحتلال واحاتها المختلفة من سواحل المحيط الأطلسي إلى صحراء فزان بليبيا.

وأقام الجنرال ليوتي حاميات عسكرية على طول الحدود الجزائرية المغربية ابتداء من عام (1903م)، وتمكنت القوات الفرنسية من وضع حد لنشاط سكان فيقيق، وأنشئ خط سكة حديد المحمدية إلى سعيدة وبشار لتأمين مواصلات القوات الفرنسية، وتموينها، وتم ربط الجزائر بالسودان الشرقي عبر تشاد، وبالسودان الغربي عبر مالي، واحتلت واحة جانيت عام (1911م). وتيندوف عام (1934م).

وخلال عمليات الاستكشاف، والغزو الاستعماري، إلى الجنوب، اهتم الفرنسيون بدراسة الإمكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المناطق، وتعرف المظاهر الجغرافية الطبيعية، التضاريسية والمناخية، ومصادر المياه، وثروة التمور، وغيرها، وذلك من أجل استغلالها، واستثمارها، والاستفادة منها خلال ذلك التوسع وبعده.

---

(1) Jean du Chaffal: de Foucauld saharien (R.H.A. 1959) pp. 89 - 94.

فدرس أحد الضباط الفرنسيين، جغرافية منطقة توات، ومناخها، وأساليب السقي، والإنتاج الفلاحي، والأوضاع الثقافية، والعمرانية.

ودرس الضابط أوجبيرا: Augieras، الجوانب العلمية، والفلكية والمظاهر الطوبوغرافية، لواحات: الساورة، وتوات، وموريطانيا.

وتحدث باجول عن التكوين الجغرافي والطبوغرافي، والآبار المائية، لصحراء ورقلة، من واد مية إلى واد أيغرغر. وتوسع موريس بن حازيرة في دراسة كل مظاهر الحياة: الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والدينية، لسكان التوارق بالهقار: واستعرض عاداتهم، وتقاليدهم، وبعض جوانب تاريخهم السياسي والحضاري.

واهتم بيربروجي: Berbrugger، بدراسة الآبار المائية، والإنتاج الفلاحي لمنطقة واد ريغ. وتوسع الضابط برنار في دراسة حوض الساورة، وزوزفانة، وقصورهما. واهتم داتانو بدراسة الأرض، والإنتاج، والسكان، للمنطقة الصحراوية، وكيفية الاستغلال الاقتصادي بها، كما اهتم بدراسة بعض مظاهر حياة التوارق في أقصى الجنوب.

ودرس بيسي: Besset، منطقة تيدكلت من الناحية الجغرافية والسكان، والسلالات، والعادات؛ ومصادر الثروة، كما تحدث عن مناطق المويدير، واهنيت، والهقار، وأدرار، وتانزروفت. وفعل مثله الضابط هنري بيسويل: Henri Bissuel، فدرس تاريخ وعادات التوارق، وأسلحتهم، وأساليب حروبهم، ودرس منطقة تادمايت، وتيديكلت، وتوات، وقورارة، ودعا إلى ضرورة تركيز الاحتلال فيها لأهميتها في ربط الجزائر بتشاد.

وتحدث جاك بوركار: Jacques Bourcart عن النتائج العلمية، والجيولوجية والعسكرية، التي توصلت إليها بعثة أولفسي جنوب تونس، وسوف، وتقرت، وورقلة، وواد مية، وتادمايت، وأهنيت، وأولف، وقورارة، وواد

الناموس، وفيقيق.

ودرس كانسيل: Cancel جغرافية عرق ايقيدي، وواد الساورة، وتعرض كابوري: Capot - Rey لأهمية آبار واد ريغ من الناحية الاقتصادية، والسياسية، وركز كاركاسون على دراسة عادات وتقاليد التوارق، على غرار ابن حازيرة، ولكنه أضاف إلى ذلك اهتمامه بدراسة تجمعات السكان، في الأقاليم الصحراوية.

واهتم الضابط أوجان دوما: Eugene Daumas منذ فجر الاحتلال الفرنسي للجزائر، بدراسة المظاهر الجغرافية، والتاريخية، والطرق للمناطق الصحراوية بين بسكرة، وورقلة، وغرداية، والأغواط، ودرس دولوك: Delluc مصادر المياه، ومظاهرها في الجنوب الوهراني: بايجلي، وجنان الدار، وتاغيت، وبني عباس[1].

المحور الثاني: مشاريع خطوط السكك الحديدية للنقل الصحراوي:

في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون جادين في الغزو والتوسع إلى جنوب الجزائر والصحراء، أولوا اهتمامهم بموضوع المواصلات التي تمثل العنصر الأساسي والفعال، وكان هدفهم من ذلك:

أولًا: تسهيل عمليات تنقل قواتهم العسكرية الغازية، وتذليل ظروف استقرارها في المراكز العسكرية المختلفة التي أنشائوها فعلًا، أو التي سينشئونها مستقبلًا، في الواحات، والمناطق الإستراتيجية.

ثانيًا: ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال، والغرب والوسط.

ثالثًا: خدمة التجارة الفرنسية، وفتح الأبواب والسبل لها في كل أسواق إفريقيا.

وقد اهتموا في بادئ الأمر بتعرف طرق القوافل الصحراوية القديمة، وتحديدها بواسطة الحملات العسكرية، والبعثات الاستكشافية، المكثفة التي كانوا

---

(1) G. Delluc: Hydrologie de l'extreme-sud oranais. (R. INT. 1901) T. XIV. Pp. 987 - 998.

يرسلونها إلى الجنوب. وبواسطة دراسة كتب الرحالة العرب الذين جابوا الصحراء وكتبوا عنها أمثال: ابن بطوطة، والإدريسي، وابن حوقل، والحسن الوزان، وابن خلدون، والبكري، وغيرهم. ومن ضمن من درس هذه الطرق، وتعرفها قودراي Goudray الذي اهتم بعلاقات تلمسان الزيانية مع بلاد السودان من الناحية التجارية، وإدوارد بلان: Edouard Blanc الذي كتب عنها دراسة هامة، ووضع لها خريطة جامعة، حدد فيها حتى تلك التي سلكها المغامرون الأوروبيون أواخر القرن (18) ومطلع القرن (19م)، وأوردها على الشكل التالي:

1- طريق مراكش إلى تمبوكتو، ويمر على تارودانت، وتاوريرت، وتيندوف، ويخترق رمال ايقيدي، وعرق شيش، ويتجه إلى تاوديني، كما يخترق الجوف شرقا، مارًّا بأونان، وأروان، ليتجه إلى تمبوكتو، وقد سلكه الدكتور أوسكار لينز عام (1880م).

ولهذا الطريق فرع من تيندوف يتجه إلى الجرف الأصفر، وأوقلت العزل، وفرونة، وزمور، والقلتة، وسماميت، وحاسي بوتالان، ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبوكتو، وفرع إلى قصر البرشان، وعطار، وأوجيفت، وتيوروت على شاطئ المحيط الأطلسي.

2- طريق فاس ومكناس إلى تمبوكتو، وتمر بقصبة المخزن، وأم دربيينه. ويتبع حوض وادي غير إلى ايجلي، ثم حوض وادي الساورة إلى توات، وأكابلي، وبئر تيريشومين، ووالن، وعين رنان، ومبروك، وتمبوكتو.

وهناك طريق آخر يخرج من مراكش ليتصل بهذا الطريق في توات، ويمر على ممسينة، والمسيتر، والمعسف، وتامليتت، إلى أكابلي وبيرتير يشومين، وسلكه روني كايي.

3- طريق وهران وارزيو إلى تمبوكو، ويمر على خيار على خيثر، ومشرية، وعين

الصفراء، وفيقيق، ويتبع مجرى وادي زوز فانة إلى ايجلي، حيث يلتقي بطريق فاس إلى تمبوكتو.

ولهذا الطريق فرع آخر إلى شرق الأول مستقيم يبدأ من خيثر إلى البيض، والأبيض سيدي الشيخ، والمنقب وتوات، حيث يلتقي بطرق وهران، وفاس، ومكناس، إلى تمبوكتو، وقد سلكه كولونيو عام (1860م).

4- طريق مدينة الجزائر إلى تمبوكتو، ويمر على البليدة، وبوغار، والأغواط، وغرداية، والقليعة، وعين صالح، وأكابلي، وبيرتيريشومين حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبوكتو، وقد سلكه الضابط بالا: Palat.

ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو، وتنتيلوست، حيث يتفرع إلى فرعين كذلك، فرع إلى أقادم، وماو، شرق بحيرة التشاد، وكوكا جنوبها، وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أقاديس حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين: فرع إلى سوكوتو، وفرع إلى كاتسنا.

5- طريق سكيكدة وقسنطينة إلى أمقيد، والهقار، وتمبوكتو، ويمر بباتنة، وبسكرة، وتقرت، وورقلة، والبيوض، وأمقيد، وتيميساو وأيفرنان، إلى مبروك، وتمبوكتو، أو إلى شط بوروم (برنوح). وقد مر على جانب منه فلاتر عبر حوض أيغرغر.

ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى الوادي بسوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، وجبادو، وبلما، وأقاديم، وماو، وفرع من البيوض إلى عين صالح، وفرع ثالث إلى غات.

6- طريق طرابلس إلى تمبوكتو، ويمر على سناون، وغدامس، وتيماسينين، والبيوض، حيث يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبوكتو.

ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات، وبيرعسيو، وأقاديس، إلى سوكوتو، وكاتسنا غربًا، وإلى أقاديم، وماو شرقًا.

7- طريق طرابلس إلى مرزق عبر سبهة، ثم بئر بكر، وتيجري، وتومو، (واحات كاوار)، حيث يتفرع إلى فرعين: فرع إلى بلما، وأقاديم، وماو، وكوكا بتشاد، وفرع إلى ايشر شرقًا بوداي، وهذا الطريق سلكه فوجيل عام (1854م)، وبارث خلال عودته عام (1855م)، وبورمان عام (1862م) وروهلف عام (1866م)، وناتشيفال عام (1870م).

وقد سلك فرع مسيدا كل من بارث (1850م)، وباري (1876م)، وفرع سكنه كل من فوجيل عام (1854م)، ودوفيري عام (1861م)، واشتيفال عام (1869م)، وروهلف عام (1879م).

8- طريق طرابلس إلى جغبوب، وسيوة، والفرافرة، والأقصر، بصحراء مصر. ويتصل بهذا الطريق عدة طرق أخرى آتية من مراكز العمران الساحلية بالشمال مثل: سرت، وبنغازي، ودرنة، والقصر الجديد.

9- طريق بنغازي إلى وداي. ويمر على أوجيلة، وجالو، وسرهن، وكبانو، وتاهيتا، حيث يتفرع إلى فرعين: فرع إلى ماو، وفرع إلى ايشر، وهو الذي سلكه روهلف عام (1874م).

10- طريق أسيوط، وإسنا، وأسوان، إلى دارفور بالسودان، ويمر على سليما، والفاشر، وعندما يصل إلى الفوجا يتفرع إلى فرعين: فرع إلى دنقلة القديمة عبر مجرى وادي ماليك. وفرع إلى سنار، أو الخرطوم، ويمتد فرع الخرطوم إلى بربارة، وسواكن على سواحل البحر الأحمر شرقا، وقد سلك هذا الطريق كل من برون: Browne عام (1793م)، وكوني: Cuny عام (1853م)، وناشتيقال عام (1874م)، وموزون: Moson عامي: (1876 - 1877م). وأنسور: Ensor الأمريكي عامي:

(1875 - 1876م)، وماساري: Moson عام (1880م).

وأهم الأسواق التي تتجه إليها هذه الطرق في أعماق الصحراء، تتجمع في ثلاث مناطق مهمة ورئيسية هي:

أولًا: سوق تمبوكتو الذي كانت له أهمية خاصة في السودان الغربي.

ثانيًا: أسواق تشاد في السودان الأوسط ومن ضمنها: بورنو، وباقيرمي، وسوكوتو، ووداي.

ثالثًا: أسواق السودان الشرقي ومن ضمنها: دارفور، وكوردفان[1].

المشاريع الفرنسية للنقل الصحراوي:

دشن الفرنسيون مشاريع النقل الصحراوي باقتراح كاباني: Cabanis مشروع خط حديدي يمتد من الجزائر إلى بوسعادة، وورقلة، على أن يتفرع بعد ذلك إلى فرعين: واحد إلى تونس، وطرابلس، والآخر إلى عين صالح، والهقار، وذلك منذ عام (1853م)[2].

وبرز بعد ذلك المهندس أدولف دوبونشيل، واهتم منذ عام (1858م)، بدراسة مشاريع المواصلات الحديدية بالصحراء، وتأثر كثيرًا بالتوسع الاستعماري الإنجليزي في إفريقيا، وألح على ضرورة مقاومة المنافسة الإنجليزية، بمد هذه الخطوط الحديدية، لربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض، واقترح خطًا يمتد إلى الترانسفال في أقصى جنوب القارة، واستغرقت جهوده قرابة ثلاثة عقود، وإليه يرجع الفضل في إقناع البرلمان الفرنسي على اعتماد ثلاثة مشاريع لثلاثة خطوط عام (1880م)[3].

---

(1) Edouard Blanc. – Les routes de l'Afrique septentrionale au Soudan (Bul. Sol. G. paris –1890) pp. 169 – 216.

(2) F. CABANIS. – Grand chemin de fer d' Afrique (paris – 1853). 32 p.

(3) A. DUPONCHEL: =

وأعد المهندس بويان مشروعًا لمد ثلاثة خطوط حديدية: واحد من تيارت إلى الماية، والثاني من سعيدة إلى رأس الماء، ومشرية، والثالث من مشرية إلى المقرار، والوتيد، وذلك بعد أن قام بدراسة في عين هذه الأماكن[1].

واستعرض دوماق عدة مشاريع، واقترح مدة أربعة خطوط: واحد من سكيكدة إلى قسنطينة، وعين صالح، والثاني من مدينة الجزائر إلى الأغواط، وعين صالح، والثالث من مستغانم إلى تيارت وعين صالح. والرابع من ورقلة إلى بحيرة تشاد[2].

واقترح دوريان خطًّا من وهران إلى توات عبر تلمسان، وسبدو، والعريشة، وعين بن خليل، وعين سفيسيفة، ونخلة إبراهيم[3].

واقترح كولونيو خطًّا من مستغانم إلى تيارت، وعين صالح، والسرسو، والمنيعة، والقليعة، وتيميمون، بعد أن شارك في اللجنة العليا التي أسستها وزارة الأشغال العمومية لدراسة مشاريع السكك الحديدية بين الجزائر، والسينيغال[4]،

= a – Le chemin de fer transaharien. Jonction coloniale entre l'Algerie et le soudan. Etudes peliminaires du projet et rapport de mission avec carte generale geologique (Montpelicr – 1878) VII – 371 p.

b – L'Afrique centrale et le transaharien. (Montpelier – 1888) 18 p.

(1) Ministere des Travaux publics documents relatifs a la mission dirigee au sud de l'Algerie par M. Pouyanne. Ingenieur en chef de mines (paris – 1866) 228 p.

(2) DEMAEGHT. – Le tarnsaharien (Bul. Soc. G. Oran – 1879) pp. 235 - 242.

(3) I. DERIEN. – Le chemin de fer tansaharien d'Oran au Touat par Tlemcen, l'oued Messaoura (Oran – 1879) 40 p.

(4) Le General COLOGNIEU. – Le trace central du chemin de fer=

وألح الضابط باريو على الأهمية العسكرية للخط الحديدي الذي يربط الجزائر بالسينيغال والسودان، من أجل نقل القوات الفرنسية لمقاومة ثورات السكان وانتفاضاتهم[1]. وقام أوقوست شوازي برحلة خاصة إلى الأغوط، والقليعة، وورقلة، وواد ريغ، وبسكرة، لدراسة مد طريق حديدي بين الجزائر والنيجر[2]، ووضعت وزارة الأشغال العامة دراسة خاصة عن رحلته[3].

وقام كل من دوفيري، وبروسلار، وماج، بدراسة خاصة لخدمة مشاريع الاتصالات بين الجزائر والسينغال بواسطة القطارات الحديدية[4]. واهتم كل من شوازي، وباروا: J. Barois، ورولان: Rolland، والطبيب فيجيربير: H. Weisgerber بدراسة علمية متنوعة: طوبوغرافية، وجيولوجية، ومائية، وإحصائية، ومناخية، وصحية، وإعلامية لكل مناطق الصحراء. ودرسوا الشروط اللازمة لمد خط حديدي من الجزائر إلى السودان. واقترحوا خطًّا من الأغواط إلى القليعة، وتوات. وخطًّا من بسكرة إلى ورقلة، وايغرير، وإلى بلاد التوارق.

= transaharien (Langres - 1880) 29 p.

(1) J. DEPARIEU. - Le chemin de fer transaharien (Cor. 1879) pp. 540 - 558.

(2) Auguste CHOISY. - Le Sahara. Souvenir d'une mission a Golea. (Paris - 1881) 11 + 290 p

(3) Ministere des Travaux Publics. - Chemin de fer transaharien. Documents relatifs a la mission dirigee au Sud de l'Algerie par M.A. Choisy. (Paris - 1890 -1895) 2 vol. Texte et 1 vol. PI.

(4) Transaharien. Resume Topographique, Scientifique et Litteraire pour servir a l'etude des communications entre l'Algerie et le Senegal d'apres les travaux executes sur le terrain par MM. HENRI DUVEYRIER, le capitaine BROSSELARD, le lieutenant de vaisseau MAGE, etc. (Alger - 1890) 156 p.

واقترح مدير الكباري والجسور: ايمي فيكتور Ayme Victor مشروعًا لربط النيجر بالجزائر. ودرس مشروع خطين: واحد من وادي غير وآخر من وادي ريغ، على أن يلتقيا ويتصلا ببعضهما البعض عبر ورقلة، والقليعة وتيميمون[1].

واهتم بوطي بدراسة مشاريع السكك الحديدية الصحراوية، واقترح ثلاثة خطوط هي: خط غربي من وهران إلى توات، والنيجر. وخط شرقي من سكيكدة إلى بسكرة، وتشاد. وخط في الوسط من مدينة الجزائر إلى البرواقية وتشاد[2].

واقترح الضابط بيرنار مد خط حديدي من بسكرة إلى النيجر، وإلى تشاد[3].

ووضع موريس أونوري رسالة دكتوراه في النقل الصحراوي، من روني كايي، ودوبونشيل، إلى سنة (1900م)، وحلل فوائدها الاقتصادية، والتجارية، والسياسية، بل وحتى العمرانية[4].

أما بوليو فقد ألح على ضرورة إنجاز هذه الخطوط الحديدية الصحراوية حتى لا تسقط السينغال، والسودان، والكونغو، أوبانقي، وتشاد في أيدي الأعداء، ويعني بهم الإنجليز المنافسين لهم في ميدان الاستعمار[5] وهي وجهة نظر استعمارية بحتة.

وقد تواصل الاهتمام بمد هذه الطرق الحديدية الصحراوية طوال الربع الأول

---

(1) Victor AYME. - L'Afrique francaise et le transaharien. (Par's - 1891) XVIII - 139 p.

(2) J. BOUTY. - Notes sur les divers trac6s de chemin de fer transaharien en etude en Algerie (Bui. Soc. G. Arch. Oran, 1891) pp. 261 - 296.

(3) L.C.F. BERNARD. - Le chemin de fer transaharien (R.C.M 1900) pp. 63 -67, 85 -89, 114 -16.

(4) Maurice HONORE. - Le transaharien et la penetration francaise en Afrique (Paris, 1901), 143 p.

(5) Paul LEROY - BEAULIEU. - Le chemin de fer transaharien. (R.D.M., 1899) T. CL IV PP. 83-120.

من القرن الحالي العشرين، ومن ضمن الذين انشغلوا بذلك: الضابط: نو: Nou وبير فينكيير: L.Pervinquiere، والمهندس سولير: A. Souleyre وفوانو: L. Voinot، ونييجير: Nieger، وهنري لوران: H. Lorin وروومنس: Roumens، والمهندس شويش: V. Schwich، وألبير سوزيد: A. Sauzede، وكاميل ساباتيي: Camille، وفودفروي: F. Godefroy، وبيروني: Peyronnet وألفريد قينار: A. Guignard، وروبير راينو: R. Raynaud.

وانصبت جهودهم جميعًا، على تعرف التكاليف اللازمة لمثل هذه المشاريع، والفوائد والمزايا التي ستكتسب من وراء إنجازها سياسيًّا، وعسكريًّا، واقتصاديًّا، وذلك بالنسبة لمستقبل الوجود الفرنسي في إفريقيا.

وكانت خلاصة هذه المشاريع كلها في النصف الأول من القرن الحالي، وضع نواة لثلاثة خطوط حديدية إلى جنوب الجزائر وأعماق الصحراء، فرعت كلها من الخط العرضي الدولي الرئيسي الذي يخترق الشمال الإفريقي من مدينة تونس شرقًا إلى الدار البيضاء غربًا على سواحل المحيط الأطلسي، وهي:

- **الخط الأول**: يمتد من مدينة قسنطينة إلى ورقلة عبر بسكرة، وتقرت.
- **الخط الثاني**: يمتد من مدينة البليدة إلى الجلفة عبر المدية.
- **الخط الثالث**: يمتد من المحمدية إلى بني عباس عبر سعيدة، وبشار.

وكان من المفروض أن تمد هذه الخطوط الثلاثة إلى باقي بلدان الصحراء الأخرى في غرب إفريقيا، ووسطها، لتتصل بشبكة النيجر عبر تمبوكتو، وشبكة مواصلات السينغال، وموريتانيا، ولكن بهاظة التكاليف المادية، ووعورة الطبيعة الصحراوية، وقساوة مناخها، وتطور علم وحركة الطيران، جعلت الفرنسيين يحجمون عنها، خاصة بعد أن داهمتهم أهوال الحربين العالميتين: الأولى، والثانية، وحركات الاستقلال الوطنية بالقارة، التي طردتهم في النهاية، وصفت وجودهم

بصفة نهائية.

وتهتم الجزائر اليوم، بعد استعادتها لاستقلالها الوطني، بأمر المواصلات الصحراوية، لمقاومة العزلة والتخلف، فأنشأت طريق الوحدة الإفريقية العملاق، وشرعت في إنجاز مد الخط الحديدي من بني عباس إلى تيندوف، ومن ورقلة إلى غرداية والأغواط، وتعتزم مد خط حديدي عبر الهضاب العليا من الغرب إلى الشرق، وتطور باستمرار شبكة الخطوط البرية البترولية.

المحور الثالث: مشروع البحر الداخلي الصحراوي الإفريقي:

لقد واجه الفرنسيون صعوبات كثيرة في غزو جنوب الجزائر والصحراء، بسبب صلابة مقاومة السكان من جهة، وقساوة الطبيعة المتمثلة في شدة الحرارة، والجفاف، وتباعد المراكز العمرانية عن بعضها البعض، من جهة أخرى.

وعندما نجح فيرديناند دوليسبس، في حفر قناة السويس، تحفزوا، وتشجعوا للبحث في مشروع إحداث بحر داخلي صحراوي، لعله يحدث تغييرًا في الظروف الطبيعية القاسية، ويسهل عليهم أعمال التوسع، ويذلل سبل الاستعمار، والاستغلال، الاقتصادي، لإمكانيات الصحراء المادية والبشرية.

وتحمس ضابط الأركان العامة فرانسوا رودير: Le commandant لهذا المشروع الضخم، ووطد صلاته بعدد آخر من المغامرين، وعلى رأسهم دوليسبس، حتى يعضدوه، وتكونت في فرنسا هيئة خاصة لذلك، وحددت منطقة أحواض الجريد التونسي كنواة لهذا البحر الداخلي، الذي يمكن تحديد معالمه على الشكل التالي[1]:

تعتبر المنطقة المحصورة بين خليج قابس شرقا، وجبال أولاد نايل، وهضبة

---

(1) انظر دراستنا بعنوان: الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس البحر الإفريقي، مجلة الأصالة عدد 25 (الجزائر جويلية أوت 1975) ص (97 - 118).

ميزاب غربًا، وجبال الأوراس، والنمامشة، وتبسة، والظهر التونسي، شمالًا، وجبال مطمامة، والهفار جنوبًا - حوضًا داخليًّا واسعًا يدعى بالعرق الشرقي الكبير، ويشتمل على عدد كبير من الأحواض، والشطوط الداخلية المالحة، خاصة في الشمال الشرقي أهمها: منخفض الجريد بتونس، الذي يشتمل على شط فجاج، وشط الجريد، وشط الغرسة، ولا يبعد كثيرًا عن خليج قابس، ومنخفض ملغيغ بالجزائر الذي يشتمل على شط عسلوج، وشط ملغيغ، وشط مروان، غرب منخفض الجريد.

ويمتد إلى جنوب أحواض ملغيغ، عدد آخر من الشطوط تعتبر جزءًا من منخفض وادي ريغ، وحوض ايغرغر، الذي ينحدر من السفوح الشمالية لجبال الهفار.

وإلى الشمال الغربي من منخفض ملغيغ توجد في الهضاب العليا مجموعة من الأحواض والشطوط الداخلية المالحة في حوض شبه مستقيم، ومستطيل، من الشرق إلى الغرب أهمها: شط لحضنة، والزاغر الشرقي، والزاغر الغربي، والشط الشرقي الكبير، مفصولة عن حوض ملغيغ بمرتفعات جبال الزاب، والزيبان بين بسكرة، وباتنة، وحوض الحضنة.

وتدعي بعض النظريات الجغرافية، والجيولوجية، بأن هذه الأحواض، كانت تمثل في العصور القديمة، بحرًا داخليًّا واحدًا يدعى: (**بحر أو بحيرة تريتون**)، تحدث عنه الرحالة اليوناني هيرودوت، وسيلاكس، وله ثلاثة منافذ إلى البحار المجاورة: واحد إلى البحر المتوسط شمالًا عبر مجرى نهر الشلف. والثاني إلى المحيط الأطلسي غربًا عبر ممر تازة. والثالث إلى خليج قابس بشرق تونس عبر شط فجاج. ثم إن هذا البحر جفت بعض أجزائه، وبقي البعض على شكل أحواض، وشطوط، وزواغر داخلية أهمها: مجموعة أحواض منخفض الجريد، ومجموعة أحواض منخفض ملغيغ، ومجموعة أحواض الهضاب العليا.

وتقع أحواض منخفض ملغيغ على انخفاض خمسة وعشرين مترًا من مستوى سطح البحر، وحولها مناطق سهلية واسعة ذات تربة رسوبية التكوين، تنتشر بها مجموعة كبيرة من القرى العمرانية ذات كثافة سكانية عالية، خاصة منطقة وادي سوف.

ويسود هذه المنخفضات مناخ صحراوي قاس، جاف، وحار صيفًا، وبارد شتاء. ومن أجل ذلك يعاني السكان باستمرار، كوارث الجفاف غالبًا. وتضطرب أوضاعهم الاقتصادية الفلاحية، والحيوانية.

وشاعت فكرة لدى بعض الجيولوجيين في القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي بأنه يمكن خلق بحر داخلي في هذه المنطقة، أو إحياؤه وبعثه من جديد، إن صح أنه كان موجودًا في السابق. وذلك من أجل إحداث تغيير جذري في مناخها، الذي سيؤدي إلى تغيير في أوضاعها الاقتصادية، والعمرانية، لصالح السكان.

ونواة هذا البحر الداخلي ستكون في البداية، أحواض: شط الجريد، وشط الغرسة، وشط فجاج، التي ستوصل بخليج قابس شرقًا عبر شط فجاج الذي يمثل الذراع الشرقي لمنخفض الجريد الكبير، ولا يبعد عن الخليج إلا بحوالي خمسة عشر كلم، وذلك بواسطة حفر قناة بحرية إليه.

ثم بعد ذلك يوصل هذا البحر في مرحلته الثانية بأحواض منخفض ملغيغ، بوادي ريغ في الغرب وبمنخفض حوض ايغرغر، في الجنوب، عبر وادي سوف.

إنه مشروع ضخم جدًّا، وعظيم الفائدة، ولكنه عند إنجازه، سيغمر مناطق واسعة، تعتبر من أهم مناطق العمران، والاقتصاد في المنطقة. وتحمس له رودير، وشرع في وضع الدراسات حوله منذ عام (1873م)، واعتمدت الجمعية الوطنية الفرنسية في العام الموالي، مبلغًا ماليًّا لدراسة منطقة الشطوط دراسة علمية. وسافر رودير من قسنطينة إلى بسكرة، ثم إلى أحواض ملغيغ. ودرس تاريخها، وجغرافيتها

الطبيعية، والفلكية، ومناخها، وتضاريسها، ومستواها عن البحر، وتربتها، وسكانها، وإمكانياتها الاقتصادية، وأهمية هذا البحر المقترح في إحداث التغير المنشود، والمناطق التي سيغمرها، وطولها، وعرضها وارتفاعها، والنتائج التي ستنجم عن إحداثه، ومواقف سكان المنطقة. ووضع عددًا من الخرائط، والأشكال، والمقاييس[1]. وفعل مثله دوليستر، مهندس المصلحة الطوبوغرافية[2]، ودوفيريي

---

(1) من ضمن التقارير والدراسات التي وضعها رودير، ونشرها:

A) Une mer interieure en Algerie avec carte exploration (pairs, 1874). 31 p.

B) La mission des chotts du Sahara de Constantine (Bul. Soc. G. Paris, 1875) Tx. pp. 113 – 125.

C) Rapport sur les opera:...s de la mission des chotts (Bui. Soc. G. Paris, 1875), Tx. pp. 574 – 586.

D) Rapport a M. Le Ministre de l'lnstruction Publique sur la mission des chotts. Etudes relatives au projet de mer intfrieure. (Paris, 1877), 115 p.

E) Rapport sur la mission des chotts (Bui. R. OFF. 1877), pp. 702 –723.

F) Repport a M. Le Ministre de l'lnstruction Publique sur la derniere exploration des chotts. Complement des eludes relations au projet de mer interieure par le Commandant ROUDAIRE. Nivellement m&eorologie, sondages, reponse aux objections, procedes d'execution. Frais d'execution. (Paris, 1881), 187 p.

G) La Mer interieure africaine. Lettre. Preface de M. Ferdinand de Lesseps (Paris, 1883), 108 p.

H) La mer int6rieure africaine et l'ancienne baie de Triton (N.R. 1884) T. XVIII pp. 5 – 40.

(2) E. DELESTRE. – A propos de la mer interieure ou fausse=

مندوب الجمعية الجغرافية لدى بعثة رودير، الذي درس مستوى الشطوط عن البحر، وهندستها الجغرافية[1].

وتحدث أوكتاف ساشو، عن فيضانات الصحراء، وبحر الجزائر، وسكة حديد سكيكدة إلى تمبوكتو. وتأثر بمشروع المهندس الإنجليزي دونالد ماكينزي: Donald Madenzei، الذي بالغ في الموضوع، وادعى أنه يمكن إغراق الصحراء بمياه المحيط الأطلسي عندما ينجز مثل هذا البحر الداخلي[2].

ورغم أن رودير اكتشف أن شط الجريد يقع فوق مستوى سطح البحر على عكس أحواض ملغيغ، وشط الحضنة، إلا أنه لم يفقد الأمل في إنجاز المشروع، واعتمد حماسه هو، ودوليسبس على النتائج الحسنة التي سيحققها هذا البحر من مختلف النواحي والمجالات:

فمن الناحية العسكرية والسياسية، يسمح هذا المشروع بنقل القوات الفرنسية بسهولة إلى جنوب الجزائر وتونس، ومنع السكان من الثورة ضد السيطرة الفرنسية، وهي نظرة استعمارية بحتة.

ومن الناحية الاقتصادية يسمح هذا البحر: برفع منسوب المياه الجوفية في الشمال. وخلق مساحات واسعة خصبة للاستغلال الزراعي بالصحراء. ورفع نسبة الرطوبة في الجو بفضل تبخر مياه هذا البحر. والزيادة في الأمطار النازلة سنويًّا بفضل كثرة الرطوبة. وفي الأخير خلق حاجز طبيعي قوي ضد جو

= interpretation geographique (Paris, 1874), 23 p.

(1) Henri DUVEYRIER. - Premier rapport sur la mission des chotts du Sahara de Constantine (Paris, 1875),22 p.

(2) Octave SACHOT. - L'inondation du Sahara. Le mer algerienne et le chemin de fer de Philippeville a Tombouctou. (R. BR. 1879), T. VI., pp. 317-332.

الصحراء القاسي.

أعد رودير ملفًا ضخمًا وقدمه إلى المجلس العلمي بالأكاديمية الفرنسية في باريس، فحوله هذا المجلس إلى دوليسيبس بدعوته من مصر إثر تدشين قناة السويس، فاستحسنه، وشجعه، وتحمس له كثيرا، ولكن الآراء في المجلس العلمي، وفي البرلمان الفرنسي، ولدى أصحاب رؤوس الأموال، تضاربت كثيرًا. ولذلك وافق البرلمان الفرنسي على اعتماد مالي جديد عام (1878م) للقيام بدراسات جيولوجية جديدة في المنطقة يشترك فيها دوليسبس نفسه، وتألفت لجنة رسمية عامي (1881 - 1882م)، لدراسة التعقيدات المالية والمشاكل الأخرى للمشروع، ترأسها دوفريسيني: De Freycinet واكتشف أن التكاليف تزيد على ثلاثة مليارات، وأن ما سيحفر من التربة يزيد على ستة أضعاف ما حفر في قناة السويس.

وسافر رودير، ودوليسبس، إلى منطقة قابس عام (1883م) لدراسة المشروع على الطبيعة، وعندما عادا من هناك، برزت معارضة قوية للمشروع من طرف أعضاء الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم وعلى رأسهم: أوقوست بوميل: A. Pomel الذي يعرف الجزائر وتونس جيدًا، وقضى وأكد عدم وجود أية صلة بين البحر، وهذه الشطوط في القديم. وكوسون: E.Cosson الذي يعرف الجزائر وتونس جيدا، وقضى حوالي اثنين وثلاثين عامًا في استكشاف المنطقة، والدكتور روير، الذي قام كذلك برحلة دراسية إلى المنطقة، وحاول أن يتعرف الجذور التاريخية لبحر تريتون[1] .

---

(1) DR. A.M.F. ROUIRE:

A) L'ancienne mer interieure d'Afrique, Son veritable emplacement sa disparition graduelle. (N.R. 1883), pp. 296 - 325.

B) L'emplacement de la mer interieure d'Afrique, (Paris, 1884), 16 p.

C)La decouverte du bassin hydrographique de la Tunisie Centrale et=

وقد اهتمت وزارة الخارجية الفرنسية بالموضوع فألفت لجنة خاصة لدراسة مشروع رودير الذي قام لها[1]. وطرحته (الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم) للنقاش، في دروتها الثالثة عشرة خلال مؤتمر بلوه، وقدم كوسون دراسة عن الكشف العلمي الذي قامت به البعثة في تونس من الناحية الصحية، وقدم الدكتور روير، والمهندس جورج أولان، وأ. لوتورنو: Le Tourneau خريطتين عن مشروع المواصلات لهذا البحر الداخلي[2].

الأمير عبد القادر يؤيد المشروع:

وحتى الأمير عبد القادر الذي كان بعيدًا عن الميدان، يعيش في منفاه بدمشق، وليس له اختصاص في الموضوع، رمى بدلوه في المشكل، وعرض تأييده للمشروع[3]. فكاتب دوليسبس مهنئًا، ومشجعًا، وكاتب سكان قابس، والمناطق المجاورة، يحثهم على تأييد المشروع الذي سيغمر الكثير من أراضيهم، وقراهم العمرانية، وأوضح لهم الأهمية التي ستنجم عن إنجاز هذا البحر. وحاول أن يدعم

= l'emplacement de Lac TRITON (ancienne mer interieure d'Afrique). (Paris, 1887), XIX + 186 p.

D) La Tunisie moderne et la Tunisie ancienne. Histoire de la decouverte du fleuve Menfes et du fleuve Triton (Bui. G. Alger 1896 - 1887), pp. 55 - 76.

(1) Ministere des Affaires Etrangeres - Commission superieure pour l'examen du projet de mer interieure dans le Sud de rAlgerie et la Tunisie, present par M. Le Commandant ROUIRE (Paris, 1882), 548 p

(2) Le projet de creation en Algerie et en Tunisie d'un mer dite interieure devant le congres de BLOIS (Pans,1885), 40 p.

(3) L'exploration du globe. Journal des conquetes de la civilisation sur tous les points (Paris 24.11.1879),pp. 825 - 856.

آراءه، وأفكاره بآيات من القرآن الكريم. وأحاديث من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وقد ادعى الفرنسيون بأن تأييد الأمير لمشروع البحر الداخلي، كان تلقائيًا، وليس بإيعاز أحد، ولكن دوليسبس اعتبر تأييده، بمثابة **(جواز مرور)** لإنجاز المشروع، وإنجاحه[2]. إن الأمير عبد القادر لو لم يطلب منه ذلك ما أمكن أن يقحم نفسه، ولا يمكن التسليم بدعوى الفرنسيين دون نقاش إلا عندما تظهر وثائق جديدة. غير أن الأمير اتضح بعد نظره هنا.

كان دوليسببس شديد الحماس لإنجاز مشروع البحر الداخلي بعد موت رودير عام (1883م)، وحاول أن يقنع جول فيري: Jules Ferry رئيس الوزراء الفرنسي برأيه فلم يفلح؛ لأن جول فيري أبلغه بأنه لا يمكن له أن يعارض رأي **(الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم)**. ومع ذلك قرر دوليسبس أن يرسل المدعو لاندا: Landas، إلى قابس للقيام بتحقيق جديد، في الوقت الذي عين فيه روير عضوًا جديدًا في **(الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم)**، واغتنم دوليسبس فرصة مأدبة المقاولين الفرنسيين يوم 30 إبريل (1885م) في فندق الكونتينانتال بباريس، فأعلن لهم بأنه سيغرق جنوب الجزائر وتونس بالمياه، وأنه سيعلن في شهر جوان عن نداء لجمع ثلاثمائة مليون فرنك للبدء في إنجاز المشروع، وأنه سيحفر قناة قابس، وقناة باناما، كما حفر قناة السويس.

---

(1) L'Afrique exploree et civilisee. Journal mensuel (Geneve, Suisse,Novembre 1879). n° 5, pp. 81 – 82 et Abd El Kader: la mer du Sahara dans l'Afrique septentrionale (Bul.Soc. G. Arch, Oran, 1883), pp. 46 – 48.

(2) Bulletin de la Societe de Geographie Commerciale de Paris. (Paris, 1882 -1883) pp. 342 – 343.

بقي أمر البحر الداخلي يشغل البال حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وطرح عام (1896م)، للنقاش مرة أخرى من طرف عدة هيئات علمية ورأسمالية. وكانت معظم النظريات معارضة بسبب بهاظة التكاليف، والصعوبات التقنية، ووجود شط الجريد فوق مستوى سطح البحر حسب بعض النظريات.

فدفن المشروع حتى عامي (1952 - 1953م)، ثم بعث من جديد بعد أن أكدت الحفريات التي كانت تجري للبحث عن زيت البترول، على وجود صلة بين البحر المتوسط، ومنطقة الشطوط، في العصر الجليدي، على نظرية بوميل في القرن الماضي.

وفي عام (1957) تألفت جمعية لأبحاث التقنية لدراسة البحر الداخلي (أرتميس):

Association des recherches techniques pour l'etude mers interieures Du sahara (A.R.T.E.M.I.S.).

وتزعم الكونت إيفيز ميشال دوبيريدون، فكرة إحياء مشروع رودير. وتمكنت الجمعية من إيصال ملف هذا البحر الداخلي إلى مكتب الجنرال دوفول عام (1958)، واقترحت استعمال خمسين قنبلة هيدروجينية لشق قناة هذا البحر، بين واحدة وأخرى بضعة ثوان. على أن يكون عمقها 400 و500 ياردة، وعمقها بين 1.5 و2.25 والربع ياردة. وتمد عبر شط الجريد، وليس شماله. ويقام سد ضخم في توزر لتوليد الكهرباء. وتنجز هذه القناة والبحر في ظرف بضعة شهور بدلا من ثماني سنوات التي اقترحها رودير في القرن الماضي.

وبعد عام (1959) واصل اتحاد التعدين الفرنسي (هيرسنت) بحث الموضوع مع وزارة الأشغال العامة للحكومة التونسية[1]. ولكن فرنسا كانت منشغلة

---

(1) جورج غيرستر: الصحراء الكبرى. ترجمة خيري حماد. (بيروت - يوليو 1961) ط 1. ص (336 - 341).

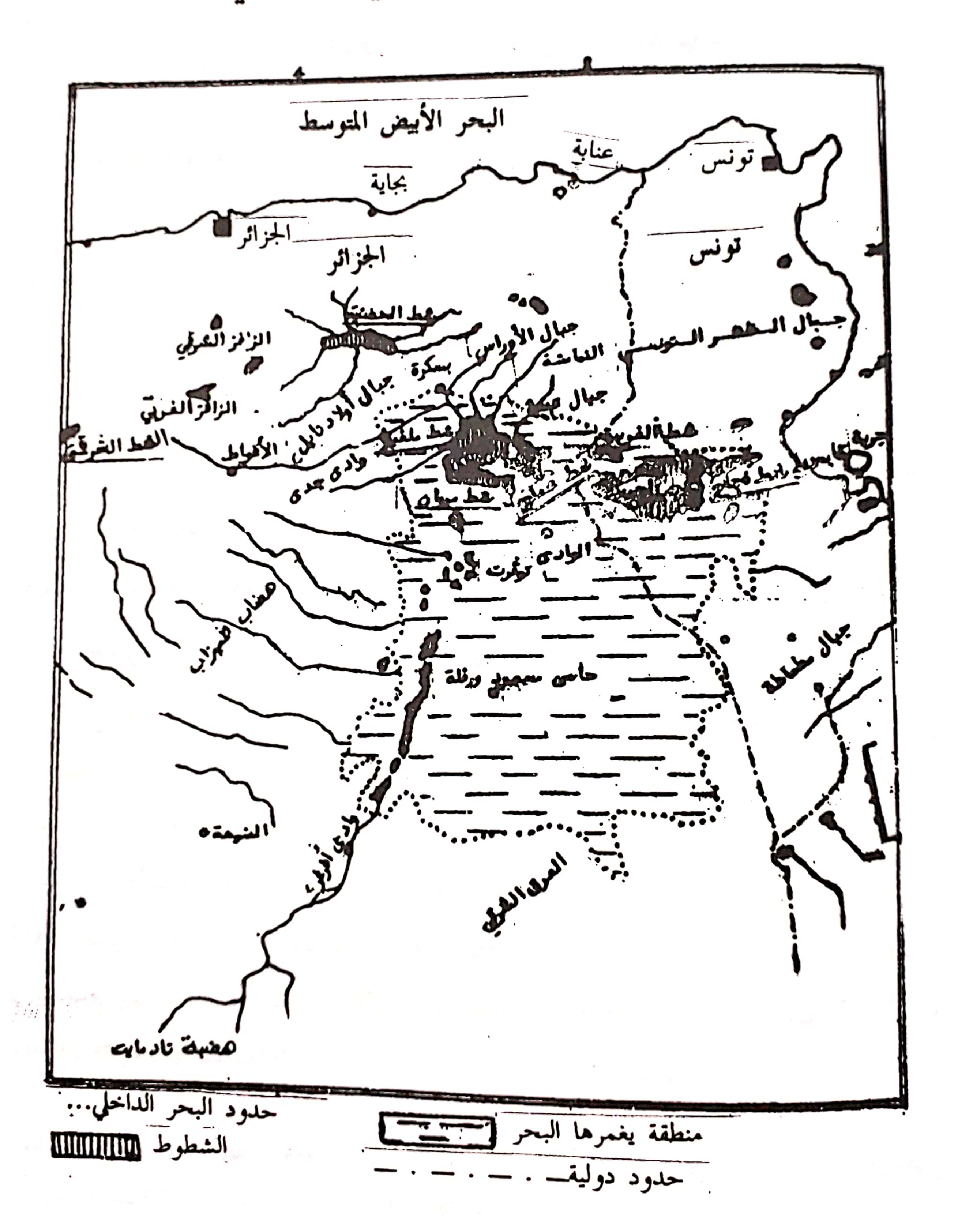
بمحاربة ثورة الجزائر الوطنية، ولم يكن باستطاعتها الاهتمام بأمر هذا البحر، ثم طردت بصفة نهائية من الجزائر وكل إفريقيا.

إن مشروع هذا البحر الداخلي الإفريقي، عظيم الأهمية، كثير الفوائد والمزايا. وياحبذا لو يعاد التفكير في إنجازه مرة أخرى بعد أن تحررت شعوب المنطقة من الاستعمار الأوروبي. فتسعى كل من تونس، والجزائر ولربما ليبيا، لدراسته من جديد وفقًا للتطورات العلمية والتقنية الحديثة. وتعمل على إنجازه بواسطة الخبرة الدولية، ورؤوس أموال الدول البترولية العربية الغنية التي تملك أرصدة ضخمة في البنوك الأجنبية الأوروبية، والأمريكية، ولربما اليابانية كذلك.

إن هذا البحر، رغم ما سيغمره من أراض، وقرى عمرانية، كثيرة، ستكون له آثار ونتائج إيجابية على مستقبل الصحراء وسكانها، في الآماد البعيدة. لأنه سيقضي على الجفاف الحاد، والعزلة الشديدة، والتخلف الفظيع. ويسمح للأساطيل البحرية أن تصل إلى أعماق الصحراء لإفراغ وشحن حمولاتها المختلفة، وإيصال مرافق الحضارة إلى السكان العزل بسهولة، وييسر الاتصال بين أعماق الصحراء والعالم الخارجي.

وإذا ما أنجز هذا البحر الداخلي، فإنه سيضاف إلى قائمة المنجزات العملاقة للجزائر، وجيرانها من بلدان الشمال الإفريقي، وسيقضي على خرافة التفوق الأوروبي كذلك، ويفتح المجال على مصراعيه للرأسمالية العربية لتستثمر في مشاريع التنمية الاقتصادية العربية الإسلامية، بدلًا من استثمارها في مشاريع الأغنياء المترفين في أوروبا، وأمريكا، ولربما اليابان.

خريطة مشروع الداخلي الأفريقي



اهتمامات الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار من خلال ما كتبوه[1]

المحاور العامة لاهتمام الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء:

يندرج اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار، ضمن اهتمامهم العام بجنوب الجزائر والصحراء، الذي بدأ منذ احتلالهم لمدينة الجزائر عام (1830)، ولكن المقاومة البطولية الصامدة التي واجهوها من طرف الشعب الجزائري في الشمال عاقتهم عن ذلك قرابة أربعين عامًا.

وقد أخذ الفرنسيون يتطلعون إلى جنوب الجزائر، وأقاصي الصحراء، مع نهاية مقاومة الأمير عبد القادر، والحاج أحمد باي، وتنوعت اهتماماتهم بذلك إلى ثلاثة محاور رئيسية، وبارزة، ركزوا عليها كثيرًا، وهي:

المحور الأول: وهو الهدف الأساسي لهم، ويتمثل في التركيز على الغزو والتوسع الاستعماري الذي اعتادوا نعته بالاستكشاف، وتعرف هذا المحيط الواسع والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء المتناثرة هنا وهناك. واقترن هذا الغزو والتوسع الاستعماري بمحاولة تعرف إمكانيات الصحراء الاقتصادية والبشرية، لاستغلالها واستثمارها، وبمحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية الطبيعية، التضاريسية والمناخية، والطوبوغرافية، والطاقة المائية الجوفية. كما اقترن هذا الغزو والتوسع بدراسة المجموعات السكانية وعاداتها، وتقاليدها، وتاريخها السياسي، والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية.

---

(1) نشر بمجلة **(الأصالة)** العدد الخاص بالتوارق والهوفار بمناسبة انعقاد مؤتمر الفكر الإسلامي بتمنغست أواخر أوت وأوائل سبتمبر (1979م).

المحور الثاني: برز كنتيجة للاهتمام الأول، ولخدمته، وتدعيمه. ويتمثل في محاولة وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية، والبرية، وأسلاك الهاتف. وذلك لتسهيل سبل التنقل في ظروف آمنة، للقوات العسكرية الغازية، والمغامرين، بين مختلف المناطق الصحراوية الدانية والقاصية.

فأخذوا يدرسون المظاهر الطوبوغرافية، والتضاريسية، والمناخية، من أجل تحديد المناطق الصالحة لمد تلك الطرق البرية، والحديدية، وتحديد اتجاهاتها، وإبراز المحاسن والفوائد، والصعوبات التي تعترض ذلك، وتقديم الحلول، والاقتراحات اللازمة. فتعددت رحلات المستكشفين، والدارسين المختصين، والمغامرين المرتزقة. وتعددت وجهات نظرهم كذلك حول تلك المشاكل، والحلول، والاقتراحات.

المحور الثالث: والأخير، برز كنتيجة للاهتمامين الأول، والثاني، ولخدمتهما معًا، كذلك. ويتمثل في محاولة خلق بحر داخلي صحراوي، من أجل إحداث تغيير جذري في الظروف الطبيعية، والمناخية القاسية للصحراء، فاتجهت أنظار الفرنسيين إلى أحواض الجريد التونسي، وأحواض بسكرة، ووادي سوف، في الطرف الشمالي لحوض ايغرغر، لاتخاذها نواة لهذا البحر الداخلي الصحراوي الذي قيل: إنه كان موجودًا في الزمن القديم، وإن هيرودوت تحدث عنه، ويدعى بحر تريتون. وسيربط هذا البحر بخليج فابس في شرق تونس، بواسطة قناة تمتد من نهاية شط فجاج الشرقي الذي يعتبر الذراع الشرقي لشط الجريد الكبير الذي لا يبعد كثيرًا عن البحر والخليج[1].

دوافع اهتمام الفرنسيين بالتوارق ومنطقة الهقار:

يرجع سبب اهتمام الفرنسيين، بالواحات الصحراوية الجنوبية، ومنطقة الهقار،

---

(1) انظر دراستنا بعنوان: الأمير عبد القادر ومشروع قناة فابس والبحر الإفريقي، مجلة الأصالة، عدد 25 (الجزائر جويلية - أوت 1975) ص (97 - 118).

إلى تحولها إلى معاقل للثوار والمجاهدين الذين كانوا يفرون من الشمال إليها، للاعتصام بها، والاستعداد مرة ثانية للمقاومة. وقد بدأ هذا الاهتمام يطغى على عقولهم، منذ أحداث ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة بسكرة[1]، وحركة الشريف محمد بن عبد الله بواحات الأغواط، وورقلة، وتقرت[2]. وثورة سكان الجنوب الوهراني بزعامة أولاد سيدي الشيخ[3].

واشتد هذا الاهتمام أكثر في عقدي: الثمانينات، والتسعينات، بعد أن استعمروا غرب إفريقيا، وذلك من أجل ربط مستعمراتهم ببعضها البعض في الشمال، والغرب، والوسط. وجاء تعرض بعض حملاتهم، وبعثاتهم العسكرية التوسعية، الاستكشافية، إلى هجمات الجزائريين في أعماق الصحراء، ليقوي عزمهم، ويحفزهم أكثر إلى التوسع والسيطرة، على كل الواحات الجنوبية الصحراوية، ومنها منطقة الهقار، ووضع حاميات عسكرية بها، أو في بعضها، تضمن لهم الأمن، والاستغلال بحرية، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة ما دعوه: نشاط اتباع الطريقة السنوسية بليبيا، ومنع سلطان المغرب الأقصى من التوسع إلى بعض الجهات الأخرى خاصة منطقة توات.

وكان حادث مقتل الرجال التسعة لبعثة فلاتر FLATTERS الثانية عام (1881)، من طرف فرسان التوارق، بداية حقيقية لجهود الفرنسيين في التوسع بجد، إلى منطقة الهقار بأعماق الصحراء، فكلفوا الجنرال طوماسين

---

(1) انظر دراستنا بعنوان: أضواء على ثورة الزعاطشة والشيخ بوزيان عام (1849)، مجلة الثقافة: عدد 32. (الجزائر إبريل - ماي 1976) ص (39 - 50).

(2) انظر دراستنا بعنوان: وثيقتان جديدتان عن ثورة الشريف محمد بن عبد الله، مجلة الثقافة، عدد 33 (الجزائر يونيو - يوليو 1976) ص (11 - 28).

(3) انظر دراستنا بعنوان: أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ الأول (1894 - 1873). مجلة الثقافة، عدد 46 (الجزائر وأغسطس - سبتمبر 1978) ص (11 - 32).

THOMASSIN بالتفاوض مع زعماء أولاد سيدي الشيخ الشراقة، والغرابة معًا، لإقناعهم بالتوقف عن العنف، والعودة جميعًا إلى الجزائر، حتى يضمنوا لقواتهم الغازية، الأمن والسلاح، والرجال المحاربين، وتم لهم ذلك عام (1883)، بعد أن انتهت أحداث الشيخ بوعمامة ورفاقه.

وقد كان حظ التوارق، ومنطقة الهقار من اهتمامات الفرنسيين هو الغزو، والتوسع، والاستعمار، والاستغلال، وليس شيئًا آخر. فأكثروا من إرسال الحملات العسكرية إلى هناك بعنوان: الاستكشاف، والاستعلام، وانكبوا على دراسة المنطقة من كل النواحي: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والطبيعية، والبشرية، وتوارد على المنطقة عدد من المغامرين والمرتزقة من جنسيات مختلفة. حاول كل منهم أن يدرس جانبًا معينًا، ويحوز قصب السبق فيه، ويصبح بطلًا. فظهرت دراسات كثيرة بعضها متخصصة، والبعض الآخر في إطار الدراسة العامة لمنطقة الصحراء ككل.

ومن ضمن هذه البعثات الاستكشافية التي مهدت للاستعمار الفرنسي لمنطقة التوارق والهقار، بعثات: هنري دوفيري المتعددة إلى مناطق التوار ومزاب. وبعثة بيرناردتانو إلى جنوب طرابلس وغدامس، وإلى بلاد التوارق أزجير، وبعثة إيدين من جانيت إلى بيلما، وبعثة ايروين دوباري إلى غات والتوارق أزجير وتاسيلي، وبعثة دو، إلى عين صالح وتيديكلت، وبعثات فلاتر إلى بلاد التوارق، وبعثات فيرديناند فورو، ولامي، المتعددة إلى معظم مناطق الصحراء، وبعثة فلاماند إلى عين صالح وتيديكلت. وبعثة فيلات لاختراق الصحراء من تيديكلت إلى النيجر عبر الهقار. وبعثات كورتي المتعددة كذلك إلى معظم مناطق الصحراء.

وقد قام هنري دوفيري Henri Duveyrier برحلة مبكرة إلى بلاد التوارق الشماليين فدرس منطقتهم التي يسكنونها، من حيث التضاريس، ومصادر المياه، واستعرض قبائلهم المختلفة، وإنتاجهم الفلاحي، وتاريخهم السياسي، وعاداتهم،

ومركز مملكتهم القديمة. ودامت رحلته من (1859 إلى 1862). ومنحته الجمعية الجغرافية ميدالية ذهبية على أعماله هذه[1].

وأورد بوضربة تفاصيل كثيرة عن بلاد التوارق خلال رحلته التي قام بها إلى غات أواخر الخمسينات، وتحدث عن الاستكشافات التي أنجزها من الأغواط إلى غات، وعن نقاط المياه، وحالة الأراضي التي مر بها من الناحية الاقتصادية[2]. وفعل مثله ايروين دور باري: Erwing de Bary، فقام برحلة إلى غات، وبلاد التوارق خلال عامي (1876 - 1877) وسجل أحداث رحلته في جريدة طريق يومية، وبحث في التاريخ السياسي للتوارق الشماليين، ودرس أوضاع منطقة تاسيلي[3].

واعتنى أوقيستان بيرتار، ولاكروا، بدراسة الغزو الفرنسي للصحراء منذ حملة الاحتلال الفرنسية عام (1830) إلى مطلع القرن العشرين فوضعا دراسة مفصلة وموسعة قسماها إلى سبعة أقسام، وتناولا في كل قسم جانبًا معينًا، ومنها الزحف الاستعماري على بلاد التوارق واحتلالها أواخر القرن الماضي ومطلع الحالي (العشرين)، الذي أطلق عليه عهد المسح، والتقسيم، والاحتلال. وذلك على النحو التالي:

---

(1) Henri Duveyrier:

A - Notes sur les Touareg et leur pays (Paris Imp. L. Martinet, 1863), 24 p.

B - Exploration du Sahara. Les Touareg du Nord (Paris, Challamel, 1864), T. I XXXV + 501 p.

(2) I.Bouderba: Voyage a Ghat (du 1 aout au 1 decembre 1858). (Bul. Soc. G. Paris, 1860) T. XX, P. 145 - 190.

(3) Erwing de Bary: Le dernier rapport d'un Europeen par Ghat et le Touareg de l'AIr (Journal d'Erwing de Bary, 1876 - 1877). Traduit et annote par Henri Schirmer (Paris, Fisebacher 1898). 221 p

1- المحاولات الأولى للغزو والاحتلال فيما بين عامي (180 و1852).

2- عهد الماريشال راندون من (1852 إلى 1864).

3- عهد الهدوء والسكون فيما بين عامي (1879 و 1864).

4- عهد وضع مشاريع المواصلات الصحراوية من (1879 إلى 1881).

5- عهد المسح، والاستكشاف الواسع للصحراء فيما بين عامي (1881 و1890).

6- عهد تقسيم القارة الإفريقية بين الفرنسيين والإنجليز، إلى نهاية القرن.

7- عهد احتلال الواحات الجنوبية الغربية في مطلع القرن الحالي ونتائج ذلك[1]

واهتم القبطان بيرنارد بدراسة أحداث ونتائج رحلة فلاتر الأولى إلى بلاد التوارق منذ إعدادها وتجهيزها بورقلة يوم 26 فيفري (1880) إلى عودتها إلى الأغواط يوم 3 جوان من العام نفسه، واستعرض أسباب إخفاقها. وأكد أن البعثة تقرر تحطيمها، وإفشالها منذ البداية، وذلك من خلال المعلومات التي استقاها من بعض أعضائها الذين شاركوا فيها، كما استعرض أسباب إخفاق الحملة الثانية في ديسمبر (1880) ومقتل فلاتر نفسه في قلب بلاد التوارق أوائل عام (1881)[2].

---

(1) Augustin Bernard et le commandant N. Lacroix La penetration saharienne 1830 - 1906 (Alger, Imp, Algerienne, 1906). X + e195 p.

(2) Le capitaine F. Ch. E. Bernard:

A) Quatre mois dans le Sahara. Journal d'un voyage chez les Touareg suivi d'un apercu sur la deuxieme mission du colonel Flatters (Paris, C. Delagrane, 1881) VII + 170 p.

B) Le Sebkha d'Amdghor et le massacre de la mission Flatters. (Bui.

وكان فيرديناند فورو Ferdinand Foureau من الضباط الذين قاموا بعدة رحلات إلى الجنوب عددها تسعة، اخترق خلالها الصحراء الكبرى طولًا، وعرضًا، مع الضابط لامي LAMY، ووضع عدة دراسات عن رحلاته. فاهتم بالتوارق ومنطقة الهقار. وتحدث عن الطرق الثلاثة التي تعرفها في منطقة غدامس عام (1892)، ولم تكن معروفة ومطروقة قبل ذلك من عين الطيبة إلى حاسي مويلح، ومات الله، وزاوية تيماسين، وحاسي ايمولاي، وحاسي تويزة. وتحدث عن رحلته إلى بلاد التوارق أزجير عام (1894)، وإلى تادمايت، وباتن، وعين صالح، ولقويلي، وتاسيلي أزجير، ووادي مهيرو، وعرق إيساوان وشرح هزيمته أمام السكان. وبتكليف من الحاكم العام قام فورو، بتخطيط طريق من القليعة إلى عين صالح، وعين القنارا، وتاسيلي أزجير، ودرس هيئة الأرض، ومقاساتها، والظروف المناخية والفلكية، وذلك خلال عامي (1894 و1895).

وقد سجل أحداث رحلته الأولى في دفتر طريق من بسكرة إلى تيماسين، ومنكرور، في تاسيلي أزجير داخل عرق ايساوان، والعرق الكبير. وكذلك أحداث رحلته الثانية من بسكرة إلى البيوض. فشرح طبائع التوارق، وعاداتهم، وتقاليدهم، وتنظيماتهم، واستعرض هجوم شعانبة الجرامنة عليه في البيوض، وأولاد رحمون، مما اضطره إلى قطع رحلته.

وفي عامي (1896 - 1897) قام برحلة طويلة في الهضاب الجزائرية، والتونسية، شمال العرق، وفي داخل العرق الكبير، والهضاب العليا الجزائرية. وسجل ما اكتشفه لدى التوارق أزجير، والعرق من الآثار، والعلوم، وحدد المراكز

Soc. G. Paris, 1882) T. HI, p. 415 - 417. C) Deux mission chez les Touareg en 1880 - \M\ (Alger, A. Jourdan, 1896). 335 p. D) Les deux missions transahariennes du lieutenant-colonel Flatters, (Bui. Soc. G. Alger, 1909) p. 43 - 61.

العسكرية الفرنسية المؤقتة التي أقيمت في تيماسين، وتحدث عن دور الضابط دو D'EU في حمايته، وحماية رفاقه خاصة لامي، وبان: PEIN [1].

وقام الضابط ميرى Mery برحلة إلى غدامس، صحبة ميرشير، وبولينياك، اهتم بها سيرفان ديسبلاس Servan - Desplaces [2]، كما قام ميري برحلات إلى بلاد التوارق أزجير من أجل الحصول على حرية المرور للقوافل الفرنسية إلى

---

(1) Ferdinand Foureau:

A) Une mission chez les Touareg (Paris, Soc. G. 1893) 47 p.

B) Ma mission de 1893- 1894 chez les Touareg Azdjer, le Tademayt, le Baten et In - Salah, Legible, le Tassili des Azdjer, l'Oued Mihero, L'Erg d'Issaouan (Paris, Lib. Imp. Reunies, 1894) 65 p.

C) Repport sur ma mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer. Octobre, 1894 a mai 1895 (Paris, A.Challamel, novembre, 1895) 199 p.

E) Les Touareg de l'Est (Bui. Soc. G. Com. Paris, 1874 - 1895) T. XVI, p. 298 - 310. r

F) Dans le grand Erg. Mes itineraires sahariens de decembre 1895 a mars 1896 (Paris, A. Challamel, 1896) 106 p.

G) Mes missions dans le Sahara (Marseille, Imp. Barthelet, 1897) 16. p.

H) Mon neuvieme voyage au Sahara et au pays touareg, Mars-Juin 1897 (Paris, A. Challamel, 1898) 151 p.

I) La mission Foureau - Lamy a la suite de la mission Foureau - Lamy, les reconnaissances du capitaine Pein (Bui. Com. A.F. 1899) pp. 176 - 178.

(2) Servan - Desplaces: La politique franco - touareg (N.R. 1893) T. LXXXIII, P. 165 - 169.

السودان الأوسط[1]. وفعل مثله بيرنار داتانو Bernard D' Attanoux[2].
وكانت نتيجة هذه البعثات والحملات، إقناع بعض عناصر التوارق بالخضوع للسلطات الفرنسية. فحضر بعضهم إلى الحاكم العام مرتين: الأولى في 19 نوفمبر (1892)[3]، والثانية في العام التالي[4]. ثم في مطلع القرن العشرين حضر أمينوكال الهقار موسى أق أماستان إلى عين صالح في 20 جانفي (1904)، وكان ذلك بداية لخضوع منطقة الهقار، والتوارق إلى السيطرة الفرنسية[5]. ولعب أمينو كال هذا دورًا بارزًا مع الضابط الفرنسي نديليك: Nedelec في مقاومة الثائر كاوسن Kaoussen خلال شهر فيفري (1918)، في نهاية الحرب العالمية الأولى[6].

وحتى عامر بن حوه، وبيرنجير، وايمار. وبروسلار، قاموا برحلات إلى منطقة التوارق، ووضعوا دراسة عنها متنوعة. فعامر بن حوه الذي كان عضوًا في رحلة فلاتر الثانية، وضع دراسات عن الرحلة منذ إعدادها وسفرها إلى تحطيمها على يد التوارق، وشرح كيف نجا وعاد سالمًا[7].

---

(1) La question du Touat et la penetration par le sud algerien (Bul. Com. A. F. 1892) N I p. 16; IV p. 8-12 p. 18-19 VI p. ll; VII p. 1-17; IX p. 15; X p. Z5; XI p. 3; XII p. 5-7.

(2) Bernard d'Attanoux: Voyage d'exploration chez les Touareg Azdjer (Lille, Imp. L. Danel, J. 1895) 17 p. et Deux missions chez les Touareg (R. G. 1893) T. XXXII pp. 457 - 463.

(3) Le Sud algerien en 1892 - 1893 (Bul. Com. A.F.1893) N°s I a XII

(4) Le Sud algerien 1893 - 1894 (Bui. Com. A.F. 1894) N°s I P 3; II, p. 1-12

(5) Notre action au Sahara (Signe: un Saharien) (Bul. Com. A.F. 1904)V83 - 84

(6) La pacification du Sahara (Bui. Com. A.F 1918) p 142

(7) Ameur Ben Haoua: Documents inedits sur la deuxieme mission=

وبيرنجر أورد ثلاث رسائل عن الرحلة: اثنتان له. واحدة من اينيفل: Inifel يوم 17 ديسمبر (1880)، والثانية من أيقيري: Eguere يوم 26 جانفي (1881). أما الرسالة الثالثة فلفلاتر نفسه قائد البعثة، أورد فيها تفاصيل جديدة عنها[1].

أما ايهار فقد اهتم بدراسة التوارق من نواح عديدة، وبالاستكشافات الأولى التي وجهت إلى بلادهم[2]. وهو ما فعله الضابط أردايو الذي توسع في دراسة أوضاع التوارق، والحملات الاستكشافية إلى بلادهم من عام (1854 إلى 1910) والتنظيمات الاجتماعية، وأوضاع واحة جانيت، وأهميتها في التجارة والنقل الصحراوي[3].

واعتنى بروسلار برحلتي فلاتر، وكان عضوًا في الأولى، فتحدث عن التوغل إلى السودان للاحتلال، وشرح مشروع الخط الحديدي الذي سيربط الجزائر بالسودان والسينغال، كما شرح الألفاظ العربية والبربرية المستعملة[4].

وتناول كل من موريس بن حازيرة، والضابط بيسي، وبيتريكس، وبيسويل، منطقة الهقار، والتوارق، بالدراسة والتحليل، من مختلف الجوانب، فتحدث ابن حزيرة عن كل أوضاع التوارق الذين قضى لديهم ستة أشهر، بالهقار، وذلك من

= Flatters. Red, d'Ameur Ben Haoua. Traduit et annote par A. cause (Mars 1894) (Blida, Imp. A. Mauguin 1894) 3 p.

(1) Beringer et Flatters: Mission du colonel Flatters dans le sahahara central (Bul. Soc. G. paris. 1881) T. I, p. 250 -257 .

(2) Aymard (capitaine): Les Touareg (paris, Hachette, 1911) 242 p.

(3) Le lieutenant Ardaillon: Notes sur les Touareg Azdjer. Apercu sur l'oasis de Djanet et sur utilisation au point de vue du commerce transaharien (Bui. Soc. G. Alger, 1911) p. 355 -372.

(4) Henri Brosselard - Faidherbe: Les deux missions Flatters au pays des Touareg Azdjer et Hoggar. 2me edition (Paris, Jounet, 1889) 304 p.

النواحي: التاريخية، والسياسية، والحضارية، والعرقية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية[1]. واعتمد بيسي على مذكرات فورو، ولامي، في دراسته التي أنجزها خلال دورة بوليسية في صيف عام (1903)، إلى بلاد التوارق أزجير، وتيخمار، وأمقيد، ونقوشه، كما اعتمد معلومات بعثتي فلاتر، ودرس جغرافية تيديكلت، وسكانها، وسلالاتهم، والعادات، والتقاليد، ومصادر الثروة، كما درس بلاد التوارق، ومويدير، وأهنيت، وأهقار، وأدرار، وتانزروفت. واقترح ضرورة مواصلة احتلال هذه المناطق[2].

واعتنى بيتريكس بتسجيل ميزات وخصائص شعب التوارق. والوسائل المستغلة لإخضاعه. واقترح أسلوبين لغزو بلاده والسيطرة عليها وهما: فرقة أوليميندن، وفرقة أدرار ايفوراس[3]. واقتفى بيسويل أثره في التاريخ لعادات التوارق، وأسلوب تسلحهم وحروبهم[4].

وفعل الأمر نفسه بول كاسون، فتحدث عن طبيعة التوارق، والأقاليم الصحراوية وتجمعات السكان[5]، وتناول بوري التوارق بالدراسة من خلال نشاط

---

(1) Maurice Ben Hazera: Six mois chez les Touareg du Ahaggar (Alger, T.P.A. Jourdan, 1908) XXIII + 233 p.

(2) G. Besset:

A) D'In - Salah a Tikhamar par Amguid. Une tournee de police en pays Azdjer. Rapport du lieutenant Besset (Bui. Soc. G. Alger 1904) p. 642 -685.

(3) Betrix: La penetration saharienne touareg (Paris, Shallamel 1911) 63p.

(4) Le capitaine Henri Bissuel: Les Touareg de l'Ouest (Alger, A. Jourdan, 1888) XIX + 210 p.

(5) Paul carcassonne: Maures et Touareg (R. F. Mus. Mai 1902) p. 34 - 44.

الأب فو كولد التنصيري بينهم[1].

وركز روني بوايي على أهمية احتلال عين صالح والواحات الجنوبية لصالح عملية التوغل الفرنسي الاستعماري إلى أقصى الجنوب وما وراء الهقار[2].

وانصب اهتمام كوفي على دراسة فروع قبائل التوارق جنوب عين صالح[3]. في حين ركز ديريكاقيكس على النتائج العلمية التي توصلت إليها بعثتا فلاتر، وذلك من خلال رسائل الفرنسيين أنفسهم الذين شاركوا فيهما[4]. وتحدث دوراند عن قبائل التوارق، وأعدادها، وطبائعها، والمشاكل التي تنشب بينها[5]. في حين ركز فوك على مشاكل السنوسية والتوارق معا، وهو يستعرض الأوضاع في الصحراء[6]. وحاول أحد الضباط أن يتعرف أسباب مقتل دول عام (1889)، من طرف التوارق، بين أوليف وأكابلي، وذلك من خلال وجهة نظر بعض التوارق أنفسهم

---

(1) Le capitaine Guy Bouree: A travers le Sahara avec le pere du Foucauld (Notes de route). (Bul. Soc. G. Maroc, 1924). T. IX, p. 3 -12.

(2) Le capitaine Rene: La question saharienne. Oasis de figuig, du Gorarra, du Touat, du Tidikelt. Les Touareg (Mars 1897) (Paris, G. Kleiner, 1900) 68 p.

(3) Le capitaine Cauvet: Notice sur fraction touareg au sud d'In -Salah (Bul. Com. A.F. 1903).

(4) Lieutenant - colonel V. Derrecagaix: Exploration du Sahara. Les deux mission du lieutenan colonel Flatters (Paris, Soc. G. 1882) 143 p.

(5) A. Durand: Notes sur les Touareg et sur les populations agrigees, alliees ou voisines d'apres les legendes et les renseignements recueillis dans le Tidikelt (Bul. Soc. G. Alger, 1904) p. 686 - 713.

(6) A. Fock: la situation au Sahara central. Senoussya et Touareg (Bul. Com. A.F. 1895) p. 359 - 360.

الذين كانوا أصدقاء له[1].

وتحدث شودو عن الاستكشافات التي تمت فيما بين فيفري (1905) ونوفمبر (1909) عبر عين زيزة، وتيميسا، وأدرار، وتامنراست، وايفراون، وأقاديس، وزندر، ومبر، وكولو، إلى تشاد، والعودة عبر تاهو، ونيامي، وقاو، على النيجر[2].

واستعرض كورتي رحلاته مع أرنو، ونتائج استعلاماتهما عام (1907) في أدرار ايفوراس مع القبطان دينو الذي قام إليهما من عين صالح. كما تحدث عن فرسان المهاري التابعين لقافلة قاو، وقافلة بامبا، واستعرض الأوضاع المختلفة في الأقاليم الواقعة بين أدرار ايفوراس، وآير، والاستكشافات التي تمت عامي (1909 و1910)[3] وبحث فيلات قصة بعثته طوال عام (1909) ما بين جانفي وديسمبر من عين صالح إلى تامنراست[4].

وسجل كوتنيست أحداث حملته إلى الهقار فيما بين 23 مارس و23 ماي (1902)، واستعرض نتائج معركة تيت التي هزم فيها التوارق الهقاريون يوم 7 ماي، وذلك من الناحية السياسية بصورة خاصة[5].

---

(1) E. M.: La mort de M. Douls et la facon de voyager au Sahara (Bui. Soc. G. Com. Paris, 1889 -1890) T. XII, p. 171 - 175.

(2) R. Chudeau: D'Alger a Tombouctou par l'Ahaggar, l'AIr et le Tchad (Bul. Soc. G. Paris, 1907) T. XV, p. 261 - 270.

(3) Lieutenant Maurice Cortier:

(A) L'Adrar des Iforass (Bui. Soc. G. Paris, 1908) T. XVII, p. 265 - 280.

(B) Le pays des Touareg: Icullimniden (Bui. Soc. G. Paris, 1910) T. XXI, p. 221 - 236.

(4) N. Villatte: A travers le Sahara du Tidikelt au Niger par le Ahaggar (Bul. Soc. G. Paris, 1911) T. XXIII, p. 160 - 192.

(5) Lieutenant Cottenest: D'In - Salah au Hoggar (Bui. Soc. G. Alger,=

واهتم كل من لابيرين، وفيليكس قوتي، بدراسة أوضاع التوارق، ومناطق الجنوب، خلال رحلاتهما التي قاما بها إلى هناك. فلابيرين درس المظاهر الجيولوجية، والمورفولوجية، من خلال رحلاته هو ورحلات نييجير، وبيسي، وفلاماند، خاصة بالنسبة لأقاليم: تيديكلت، وأدرار، والهقار، وأهنيت، وتانزروفت، وتاسيلي، وتيفديست، وعين صالح[1]. وقوتي ركز على ضرورة تركيز السيطرة الفرنسية بالصحراء بعد أن قام بعدة رحلات استكشافية، في أدرار ايفوراس، ووادي تيلمسي من 15 جويليه إلى 3 أوت (1905). ودرس الغزو الفرنسي للتوارق، والصحراء الغربية، وتعرض لرحلة فلاتر الثانية الفاشلة والمحطمة، ورحلة فلاماند عام (1899)، ولغزو عين صالح، وأسباب معركة تيت، وهزيمة الهقاريين فيها يوم 7 ماي (1902)[2].

واعتنى قيو - لوهان بالعمليات العسكرية التي قادها ضد التوارق أواخر عام (1902)، ومطلع العام التالي، فشرح أسباب سيره ضدهم من أول أكتوبر إلى 15

= 1903) p. 321 - 347.

(1) Le commandant Lapirrene: Une tournee dans le sud de l'annexe du Tidikelt du 14 mars au 3 juillet 1904 (Bul. Com. A.F. 1905) supp. p. 37 -63 et 123 - 139.

(2) E. F. Gautier:

(A) Le Sahara Touareg (Bui. Soc. G. Com. Paris, 1903) T. XXV, p. 442 -443.

(B) A travers le Sahara francais d'In-Ouzel au Niger (Paris, Masson, 1907) pp. 1 – 28 et 103 – 120.

(C) La conquete du Sahara. Essai de psychologie (Paris, A. Colin, 190[illegible]) 261 p.

(D) La conquete du Sahara Touareg (R.P. 1910) T. II, p. 542 - 560.

ديسمبر (1902)، وأوضح النتائج السياسية، والعسكرية، والجغرافية، التي توصل إليها[1].

أما مونتي، وباريزوف، وبولهياك، وبان، وبولينياك، فقد ركزوا على دراسة أوضاع التوارق، والهقار بعد أن قاموا برحلات إلى هناك. فتحدث مونتي عن تاريخ التوارق، وعاداتهم، وسلالاتهم، وتنظيماتهم، وعن الطرق والتجارة، والصناعة لديهم كما تحدث عن أحداث تخريب وتحطيم رحلة فلاتر الثانية[2]. واهتم باريزون بالحياة والسكان، ووسائل الاتصال، بين عين صالح، والهقار، وغدامس[3]. وتحدث بولهياك عن عادات التوارق وقبائلهم[4]. وشرح الضابط بان PEIN أحداث رحلته الاستعلامية إلى بلاد التوارق أزجير عام (1903)، وتحدث عن حركة التشويش التي ظهرت هناك من طرف السكان ضد الغزو الفرنسي[5].

واهتم بولينياك بأهمية صداقة التوارق أزجير لفرنسا، ودعا إلى تمتينها وتقويتها لتخدم الوجود الفرنسي واستقراره بالمنطقة[6]. واعتنى أحد الضباط برحلة القائد

---

(1) Lieutenant Guillo - Lohan: Un contre Rezzou au Hoggar (Bul. Com. A.F. 1903) supp. p. 205 -215.

(2) Le commandant Monteil: Tombouctou et Touareg (R.P. ler mars 1894) p. 9 -35.

(3) A.V. Parison: La region entre ouargla et El-Golea (Bul. Soc. G. Paris, 1876) T. XII, p. 577 - 603, 1880, T. XIX, p. 128 - 171.

(4) Lieutenant Paulhiac: Promenades lointaines. Sahara Niger, Tombouctou, Touareg (Paris, Plon, Nourritet Cie 1905) XXII + 497 p.

(5) Le capitaine Pein: Chez les Touareg Azdjer. Une reconnaissance a Tarat (Juin - Juillet 1903) (Bul. Com. A.F. 1904) supp. pp. 73 -78.

(6) Le colonel Prince de Polignac: Mes souvenirs sur le marquis de Mores (Paris, Imp. Herissex, 1896) 11 p

الحاج بيلو إلى بلاد التوارق في مطلع القرن الحالي، لإقناع أمينو كان الهقار موسى أق أماستان، بالحضور إلى عين صالح للاتصال بالسلطات الفرنسية التي تسعى لتذليل سبل توسعها إلى الجنوب[1].

واعتنى ضابط آخر برحلة محمد الحشايشي إلى السنوسي، والتوارق، التي سجل فيها معلومات كثيرة عن عادات وتقاليد التوارق، وأورد أخبارًا طريفة عن الأساليب الدينية لدى كثير من قبائلهم[2].

وقام فيكتور لارقو برحلة خلال شهور: جانفي، وفيفري، ومارس (1875) إلى مناطق الزيبان، ووادي ريغ، والحمادة الصخرية، وايغرغر، والعرق الكبير، وغدامس، والتوارق، وسوف، وسجل تفصيلات واسعة عن التوارق في رحلته الثالثة إلى غدامس عامي: (1876 و1877)[3]. واستعرض اليكسيس ميتوا قصة المفاوضات التي جرت في عين صالح بينه هو ولابيرين من جهة، وبين زعماء التوارق الشماليين من جهة أخرى خلال عامي (1903 و1905)، التي انتهت باستسلام التوارق وخضوعهم للسيطرة الفرنسية دون عنف، ودون إراقة للدماء[4]

---

(1) H.S. Le voyage du caid El-Hadj Ahmed Bilou chez les Touareg (Bul. Com. A.F. 1905) suppl. pp. 182-187.

(2) Mohammed El – Hachaichi: Chez les Senoussi et le Touareg. Traduit sur le manuscrit arabe inedit par Victor Sesse et Mohammed Lasram (R.P. 1901) T. IV p. 677 -709; T. V, p. 408 - 422.

(3) V. Largeau: Le Sahara algerien, les deserts de l'Erg (paris, Hachette 1881) XII + 342 p.

(4) Alexis Metois:

(A) La soummission touareg du Nord (Paris, A. Challamel, 1906) 65 p.

(B) Essai de transcription methodique desnoms de lieux touareg =

حسب زعمه.

وبعد أن استعرض كيرقانوف تفاصيل عن القوافل العسكرية الثلاث، التي وجهت لغزو الجنوب، أبرز مركز سلطة التارقي، ونفوذه الواسع في الصحراء، وأوضح أهمية تيديكلت للقوات الفرنسية الغازية، ولم ينس أن يتحدث عن مسألة توات[1]. واهتم بعض الضباط بغارات الضابط الليوطنان كوتنيست: خلال يومي 9 - 23 ماي (1902) في عين صالح، ومويدير، وتيفديست، والهقار، وسجل أحداث معركة تيت ضد التوارق، واقترح مواصلة هذه الغارات حتى تفرض السيطرة الفرنسية ولو بالقوة على التوارق، وتربط الجزائر بالسودان[2].

أما الطبيب ريشير، فقد تحدث عن تاريخ التوارق منذ الأزمنة البعيدة، وعن الأوليميندن منذ الغزو الفرنسي، واستعرض أحداث غزو تمبوكتو عام (1893)، وبعثة توتي TOUTEE عام (1895)، وبعثة هورس HOURST عام (1896)، ومقاومة الأوليميندن عام (1903)، كما تحدث عن تهدئة أدرار الهقار، والآير، من عام (1903 إلى 1905)، وعن تاريخ الإدارة الفرنسية بالجنوب حتى عام 1914، وثورة الأوليميندن خلال الحرب العالمية الأولى من عام (1914 إلى 1917)، والحركة السنوسية في الشمال الإفريقي خلال الفترة نفسها[3].

= (Bul. Soc. G. Alger, 1907) p. 401 - 410, 1908; p. 54 - 64, 207 - 221, 381e - 410, 507 -531, 1909; p. 103 - 123.

(1) Y. Kerganof: Tableau du Sahara. Un convoi au Tidikelt (R.G. 1904) T. LIV p. 54 - 60.

(2) R.C. Le raid du lieutenant Cottenest (Q. Dipl. Col. 1902) T. XIV, p. 102 -107.

(3) Dr A. Richer: Les Touareg du Niger (Region de Tombouctou, Gao, les Anlliminden (Paris, Larose 1914) XI + 35 p.

وركز شيرمير على أهمية منطقة الآير بالهقار، وشرح الحالة السياسية للتوارق الشماليين، معتمدًا على معلومات تقارير ايروين دو باري التي وضعها عام (1876)[1].

وحتى الطاهر قدور بن الجيلالي الذي شارك في حملة فورو، ولامي، استعرض المصاعب التي اعترضتهم مع قبائل توارق الهقار، وأقاديس، وزندر، وتشاد، حتى إلى برازفيل، في الكونغو[2]. وتحدث تروشار عن رحلات الاستكشاف، وحملات الغزو الفرنسي للصحراء التي تمت جنوب قسنطينة ما بين عامي (1899 و1904)، واستعرض العلاقات مع سكان ايفوراس وأزجير، ومشاكل المياه، وإنجاز قلعة فلاتر، والرحلة من تاسيلي إلى جانيت[3]. وفعل مثله باكي فاستعرض عمليات غزو الجنوب الصحراوي من طرف القوات الفرنسية فيما بين عامي (1899 و1905)[4]. وأورد ضابط آخر أهمية المراكز الصحراوية الفرنسية في عملية احتلال المناطق الصحراوية، وفي عمليات الاستكشاف. واستعرض أحداث التوارق، ومعارك الفرق العسكرية خلال عام (1903)، ومطلع العام التالي. وشرح كيفية استعمال

---

(1) Henri Schirmer: Le dernier rapport d'un Europeen sur Chat et les Touareg de l'Air (Journal de voyage d'Erwing de Bary) (Paris, Imp. National, 1899) 15 p.

(2) Tahar Kaddour Ben Djilali: Mission Foureau - Lamy, recit d'un sergent indigene. Traduit de l'arabe par A. Gourdon (Bui. Soc. G. Arch. Oran, 1904) pp. 17 - 41.

(3) Trouchard: Travaux et reconnaissance de penetration saharienne executes dans le Sud constantinois par le cercle de Touggourt (Paris, Publication du Com. A.F. 1907) 148 p.

(4) Lieutenant Baquey: Le penetration saharienne. Resum historique 1899 - 1905 (Paris, Charles Lavauzelle S.D.) 63 p.

فرق المهاري[1].

ولم تقتصر أهمية منطقة الهقار، وشعب التوارق، على أواخر القرن الماضي، بل إن هذه الأهمية برزت في مطلع هذا القرن خاصة خلال الحرب العالمية الأولى. نظرًا للصراع القائم بين الدول الاستعمارية، حول السيطرة والنفوذ في إطار توازن القوى من جهة، ولحيوية عناصر التوارق في الحرب، وإستراتيجية بلادهم في أعماق الصحراء حيث كانت الحركة السنوسية نشطة، ودعاية الأتراك العثمانيين ضد السيطرة والمتسلط الأوروبي قائمة، ومنتشرة.

وفي هذا الإطار تحدث أسكري في كتابه: الحرب في الصحراء، عن العمليات العسكرية التي جرت في الحدود التونسية الليبية خلال الفترة من (1914 إلى سبتمبر 1915)، وعن حملة تاسيلي عام (1916)، وحملة الهقار، واير عامي (1917 و1918). واستعرض دور الجنرال لابيرين في الدفاع عن الصحراء بعد أن عين حاكمًا عليها في 12 جانفي (1917)[2].

واستعرض أوقيستان بيرنار هجمات السنوسيين خلال الحرب العالمية الأولى ضد القوات الأوروبية، وركز على إبراز نتائج ذلك على حكم الجنرال لابيرين، واستعرض ثورة الهقار، واعترف بإخلاص زعيمهم موسى أق أماستان للإدارة الفرنسية وحاول أن يحدد توقعات المستقبل بالنسبة للسيطرة الفرنسية[3].

وحتى حاكم المستعمرات، أندري بونامي، اهتم بهذه المنطقة، فدرس وسائل الاتصال الممكنة بين إفريقيا الشمالية والسودان، واقترح خطًا يمتد من الجزائر إلى

---

(1) Entre Alger et Tombouctou (R.P. 1904) T. Ill, p. 773 794.

(2) Askri: La guerre au desert. Le general Laperrine et la defence du Sahara (Cor. 1920) T. CCLXXIX, pp. 1106-1115.

(3) Augustin Bernard: Le Sahara francais pendant la guerre (Bui. Com. A.F. 1920) suppl. p. 3 - 9.

تمبوكتو، عبر الساورة، وتشاد، إلى الهقار، وخطًا من أقصى جنوب تونس إلى وسط إفريقيا، وخطًا ثالثًا له أهداف سياسية وعسكرية يمتد من المغرب الأقصى إلى إفريقيا الغربية الفرنسية[1].

وقام ج. فرانسوا باختراق الصحراء خلال شهري إبريل، وماي (1917)، عبر تشاد، وبني عباس، وتيميمون، والهقار، وأدرار ايفوراس، وكيدال، وبامبا. وتحدث عن الشرطة الصحراوية، ومشروع طريق بري للسيارات بين الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية[2].

واهتم الدكتور بول فيرمال بملاحظات الضابط دوكلو، التي سجلها في جريدة الطريق اليومية خلال إقامته بالسودان الأوسط والشرقي من (1913)، إلى أن قتل في معركة عين الحجاج (1917)، وأورد ملاحظات عن التوارق[3]. وأدخل كاباني منطقة الهقار في دائرة مشروعه الكبير لمد خط السكة الحديدية من الجزائر إلى بوسعادة، وورقلة. ثم يتفرع إلى فرعين: واحد إلى تونس، وطرابلس، والآخر إلى عين صالح، وجبال الهقار، وتمبوكتو. وحدد الشروط الضرورية لإنجازه ماليًا، وإداريًا، وتنظيميًا، كما حدد ضمانات الحكومة له[4].

وفعل مثله دو بورتي، ودرس مناطق: القليعة، وقورارة، وتوات، وتيديكلت، وبلاد التوارق الشرقية، وحاول أن يتعرف السكان، والأرض، والإنتاج، والموارد

---

(1) Andre Bonamy: Les deux rives du Sahara (Paris, E. Larose 1924) 204 p.

(2) G. Francois: Les mission Bonamy a travers le Sahara (Bul. Com. A.F. 1918) p. 211 - 215.

(3) Paul Vermal: Au Sahara pendant la guerre europeenne. Correspondances et notes publiees par Augustin Bernard (Paris, E. Larose 1926) 223 p.

(4) F. Cababis: Grand chemin de fer d'Afrique (paris, Librairie, novembre 1853) 32 p.

المائية، ودرس مشروع السكة الحديدية من بسكرة إلى تمبوكتو[1].

واهتم لحاش بمصادر المياه الجوفية في الصحراء، وتحدث عن نتائج أبحاث كتيبة الضابط بوجا PUJAT حولها في تمياسينين خلال شهري جانفي إلى ماي (1899)[2]. بينما اهتم هاردت باختراق الصحراء بواسطة السيارة من تقرت إلى تمبوكتو عبر عين صالح، والهقار، وتانزروفت، والهضاب الرعوية السودانية[3]. وحاول هانوتو أن يضع قواعد نحو لغة تاماشك، والبوشار، والتوارق[4]، كما حاول كل من الجنرال فيلبير، وجورج رولاند، أن يدرسا مشاكل الصحراء، ومسألة التوارق[5].

---

(1) Le commandant V.B. du Portier: A propos du Transaharien. Extrieme-sud de l'Algere.
Le Gourara, le Touat, In - Salah, le Tidikelt, le pays des Touareg - Hoggar, l'Adrar, Tombouctou, Agades 1881 - 1889 (Alger, Imp. Fontana, 1890) 476 p.

(2) J. Lahache:
(A) Etude hydrolique sur le Sahara (R. Int. 1900) T. XIII, p. 625 - 640.
(B) L'eau au Sahara (Bui. Soc. G. et Col. Marseille, 1901) T. XXV, p. 136 -156.

(3) G.M. Haardt et L. Audouin - Dubreuil: Le Raid Citroen. La premiere traversed du Sahara en autombile de Touggout a Tombouctou par PAtlantide (Paris, Plon 1924) 307 p.

(4) Le commandant Adolphe Hanoteau: Essai de grammaire de la teingue tamachek, renferment les principes du langage parl£ par les Imouchar au Touareg (Paris, Imp.Impe'riaJte 1860) XXXII + 299 p.

(5) Le general Phelbert et Georges Rolland: La France en Afrique et le Transaharien. L'interieur africain, ce que peut etre encore l'Afrique francaise, penetration par l'Algerie, question touareg, chemin de fer=

وفي الأخير تأتي تقارير الحاكم العام شارل جونار، والحكومة العامة حول كل جوانب جنوب الجزائر وأقاصي الصحراء، التي عرفت باسم المناطق العسكرية الجنوبية، أو التراب العسكري. وذلك من النواحي: السياسية، والاقتصادية، والمالية، والعدلية، والأشغال العامة، وحركة الاستعمار وتقسيم المسئوليات، والبلديات، والدوائر، والمراكز(1).

ثم أعمال، وتقارير الحاكم العام ستيف باسم الحكومة العامة، التي ضمت في ثلاثة أجزاء:

في الجزء الأول: تحدث دو كلو Duclos، رئيس مصلحة شئون الأهالي العسكريين للحكومة العامة عن الحدود، ووصف ايميل فيليكس قوتي المظاهر الجغرافية. ودرس روزي Rozis نائب المدير العام في الحكومة العامة، أصول وشروط التصويت على قانون 24 ديسمبر (1902)، الذي بموجبه أنشئت المناطق الجنوبية العسكرية.

وفي الجزء الثاني: درس روزي A. Rozis، التنظيم المالي، والإداري، والعسكري، ودرس الحاكم العسكري لمناطق الواحات دوكلو، الحالة السياسية، لمناطق الجنوب من عام (1902 إلى 1922). ودرس الطبيب فولي Foley، الحالة

= transharien,ce qu'elle est, ce qu'elle doit etre, par G. Rolland (Paris, A. Challaonel, 1890) 96 p.

(1) Charles Jonnart:

(A) Expose de la situation general des territoires du Sud de l'Algerie, presente par M.C. Jonnart, gouverneur general ann6e 1905 (Alger, Imp. V. Heimtz, 1906) 103 p.

(B) Gouvernement general de l'Algerie. Conseil superieur, discours de M. le Gouverneur (C. Jonnart) a l'ouverture de la mission ordinaire pour l'annee 1907 (Alger, Imp. V. Heintz, 1907) 26 p.

الصحية خلال عامي (1919 و1921). وهو رئيس مصلحة الصحة لهذه المناطق.

وفي الجزء الثالث الذي صدر عام (1923) تم وضع بيبليوغرافية عامة للمجلدات، والكراريس، والقرارات، والمجلات، والوثائق، والخرائط. وعرضت فيه الوثائق الرسمية، والدراسات الإقليمية، والمحلية، والغزو الصحراوي، وتاريخ الحالة السياسية، والعمليات العسكرية، والتنظيم الاستعماري، والأشغال العامة، والنقل الصحراوي[1].

هكذا يتضح من العرض السابق، أن الفرنسيين كانوا شديدي الاهتمام بمنطقة الهقار، وشعب التوارق، وبذلوا محاولات مكثفة، وطويلة، للسيطرة عليهما دامت قرابة نصف قرن من الزمن.

وكان مصدر اهتمامهم، هو خدمة مصالح فرنسا، ودعم الاستعمار الفرنسي في إفريقيا كلها. ولم يكن لشعب التوارق، وكل سكان الصحراء أي حظ في أي تطوير، أو تقدم، من طرفهم؛ لأن كل همهم، وكل أهدافهم من وراء حملاتهم، وغزواتهم، واستكشافاتهم، هو تذليل الصعوبات لقواتهم الغازية، لتفرض سيطرتها الاستعمارية، وتذل السكان وتهينهم، وفتح المجال للمغامرين والمرتزقة، ليمارسوا الجاسوسية، والتخريب، ويستغلوا ويستثمروا خيرات المنطقة، وإمكانياتها الاقتصادية والبشرية.

ورغم العزلة الخانقة، والفاقة، والحرمان، وقساوة الطبيعة ووعورتها، وانعدام الإمكانيات والوسائل، فإن شعب التوارق، بالهقار، وكل جهات الصحراء، قاتلوا الغزاة الاستعماريين، وقاوموهم بكل شدة، وضراوة، وخاضوا عددًا كبير من الحروب والمعارك في طول الصحراء وعرضها، وسجلوا صفحات مشرقة في تاريخ

---

(1) Gouvernement general de l'Algerie: Direction des territoires du Sud. Les territoires du Sud de l'Algfrie. Expose

الصحراء والمقاومة الجزائرية. وبقوا أوفياء لوطنهم حتى تحررت الجزائر بصفة نهائية، وإلى الأبد، عام (1962).

توضيح مختصرات الدوريات التي استعملت في الدراسة

- Bul. Com. A.F.: Bulletin du Comite de l'Afrique francaise.

- Bul. Soc. G. Alger: Bulletin de la societe de geographie d'Alger et de l'Afrique du Nord.

- Bul. Soc. G. Arch. Oran: Bulletin de la societe de geographie et d'archeologie de la province d'Oran.

- Bul. Soc. G. Com. Paris: Bulletin de la societe de geographie et commerciales de paris.

- Bul. Soc. G. et Col.: Bulletin de la societe de geographie et d'etudes coloniales de Marseille.

- Bul. Soc. G. Maroc: Bulletin de la societe de geographie du Maroc.

- Bul. Soc. G. paris: Bulletin de la societe de geographie de paris.

- Cor.: Le correspondant.

- Q. Dipl. Col.: Questions diplomatiques et coloniales.

- R.G.: Revue de geographie.

- R.Fr. Mus.: Revue franco - musulmane et saharienne.

- R.P.: Revue de Paris.

طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر [1]

شهدت الصحراء الكبرى الإفريقية خلال العصر الوسيط، مدًّا إسلاميًّا واسعًا، ومكثفًا، عن طريق بلدان المغرب العربي في الشمال الإفريقي، وعن طريق صعيد مصر، والساحل الإريتيري، وبلاد الحبشة، والصومال، في الشرق. ولعب المرابطون، والموحدون، دورًا مهمًّا وبارزًا، في نشر الإسلام إلى أعماق الصحراء الكبرى خلال القرن العاشر وما بعده إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

وقامت بالصحراء الكبرى مراكز عمرانية وحضارية مهمة، من أبرزها مدينة تمبوكتو، واو، وجني. كما قامت مجموعة من الممالك، والإمبراطوريات، فيما بين القرن الرابع، والقرن التاسع عشر الميلادي اختلفت أعمارها، ومكاناتها، وقواتها، في غرب إفريقيا، وشرقها.

ففي غرب إفريقيا برزت مملكة غانة (300 - 1076م)، ومملكة صوصو، غرب مالي ما بين القرن (12م) ومنتصف القرن (14م). ومملكة مالي (1225 - 1670م). ومملكة الصونغاي (1326 - 1594م). ومملكة الحوصة شمال نيجيريا التي بقيت حتى القرن (19م). ومملكة اليوروبا شمال نيجيريا وبقيت حتى سيطر عليها البريطانيون في نهاية القرن (19م). ومملكة بورنو شرق نيجيريا التي بقيت من القرن (15م) إلى أواخر القرن (19م). ومملكة كانم شمال شرق بحيرة تشاد بوسط

(1) أعد هذا الموضوع وألقى في ملتقى **(تاريخ التجارة عبر الصحراء)** الذي نظمه مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، بمدينة طرابلس الغرب، في الفترة من يوم 1 إلى 4 أكتوبر (1979). ونال استحسان كل الباحثين الذين حضروا من القارات الخمس.

الصحراء. وإمارات موسى، وداجونبة بين نهر الفولتا، ومنحنى نهر النيجر. ومملكة الكامبارا في سيحو، وكآرتا، غرب مملكة الحوصة. وعمرت حتى قضى عليها الفرنسيون في نهاية القرن (19م).

وفي شرق إفريقيا قامت مملكة النوبة بدنقلة، جنوب مصر، ومملكة الفونج في سنار بالسودان (1505 - 1820م). ومملكة دارفور بالسودان كذلك (1637 - 1875م). ومملكة تقلى[1].

وقد لعبت التجارة دورًا بارزًا في ربط الصلات والعلاقات وتحديد طابعها بين هذه المالك، والإمارات الصحراوية، طوال العصرين الوسيط والحديث، حتى قضى عليها الأوربيون جميعًا خلال القرن التاسع عشر واحدة تلو الأخرى.

وجاب الرحالة، والجوالون المسلمون، الصحراء الكبرى طولًا وعرضًا خلال العصر الوسيط، وتعرفوا على أوضاع هذه الدول، وظروفها السياسية، والحضارية، وسجلوا ذلك في كتبهم، ورحلاتهم، ومنهم ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي، والبكري في القرن الحادي عشر، والإدريسي خلال القرن الثالث عشر، وابن بطوطة في أواخر القرن (13م) ومطلع القرن (14م)، والغمري في القرن (14م)، وابن خلدون في القرن (14م) والحسن الوزان في القرن (15م)، والمغيلي أواخر القرن (15م)، ومطلع القرن (16م)، والعياشي، والورتلاني، وغيرهم.

وقد استهوى النشاط التجاري الواسع بالصحراء، أواخر القرن (18م) ومطلع القرن (19م)، الأوربيين، فعزموا على غزوها، واستعمارها، وكان للفرنسيين دور بارز في هذا الميدان، بعد أن احتلوا الجزائر في شمال القارة، وبعض المناطق في

---

(1) عن هذه المالك، والإمارات، يمكن الرجوع إلى: د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية. ط. 2 (القاهرة - 1963) ص (94 - 161). وإلى: د. عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا. القاهرة (1961) ص (246).

السينغال في غرب إفريقيا. كما كان مشكل المواصلات الصحراوية من اهتماماتهم الرئيسية، خلال غزوهم وتوسعهم إلى جنوب الجزائر والصحراء، وذلك من أجل تحقيق الأهداف التالية:

أولًا: تسهيل عمليات تنقل قواتهم العسكرية الغازية، وتيسير ظروف استقرارها في المراكز العسكرية المختلفة التي أنشئوها فعلًا، أو التي سينشئونها مستقبلًا في الواحات، والمناطق الإستراتيجية المهمة، وتسهيل سبل تموينها.

ثانيًا: ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في الشمال، والغرب والوسط.

ثالثًا: خدمة أغراض التجارة الفرنسية، وفتح الأبواب، والسبل لها في كل أسواق القارة الإفريقية.

وقد اهتموا في البداية بتعرف طرق القوافل الصحراوية القديمة، وتحديدها، بواسطة الحملات العسكرية، والبعثات الاستكشافية المكثفة التي كانوا يرسلونها إلى الجنوب، وبواسطة دراسة كتب الرحالة والمؤرخين المسلمين الذين جابوا الصحراء الكبرى طولًا وعرضًا، وكتبوا عنها أمثال: ابن بطوطة، والإدريسي، وابن حقول، والبكري، والحسن الوزان، وابن خلدون، وغيرهم.

ومن ضمن من درس هذه الطرق، وتعرفها: كودراي: Coudrayi والراهب بارجيس: L'Abb Barges، وإدوارد بلان: Edouard Blanc. وبوزودي بورقو: Bozzo Di Borgo، وغيرهم. ويمكن إيراد وصف لها حسبما وردت في خريطة إدوارد بلان من الغرب إلى الشرق مع الإشارة إلى الذين سلكوها، أو بعضها، من المغامرين الأوروبيين في القرنين (18 و19).

طرق القوافل الصحراوية والأسواق:

أولًا: طريق مراكش إلى تمبوكتو: ويمر على تارودانت، وتاوريرت، وتيندوف. ويخترق رمال إيقيدي، وعرق شيمش، ويتجه إلى تاوديني، كما يخترق الجوف شرقًا

مارًّا بأونان، وأروان، ليتجه إلى تمبوكتو. وقد سلكه الدكتور أوسكار لينز الألماني عام (1880م).

ولهذا الطريق فرع من تيندوف يتجه إلى الجرف الأصفر، وأوقلت العزل، وفرونة، وزمور، والقلتة، وسماميت، وحاسي بوتلان. ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبوكتو، وفرع إلى قصر البرشان، وعطار، وأوجيفت، وتيوروت، على شاطئ المحيط الأطلسي.

ثانيًا: طريق فاس ومكناس، إلى تمبوكتو: ويمر بقصبة المخزن، وأم درييبنة، ويتبع حوض وادي غير إلى ايجلي، ثم حوض وادي أم الساورة إلى توات، وأكابلي، وبئر تير يشومين، ووالن، وعين رنان، ومبروك، وتمبوكتو.

وهناك طريق آخر يخرج من مراكش ليتصل بهذا الطريق في توات ويمر على تمسينة، والمسيتر، والمعسف، وتامنتيت، إلى أكابلي، وبئر تيريشومين، وسلكه روني كاي الفرنسي.

ثالثًا: طريق وهران وأرزيو إلى تمبوكتو: ويمر على خيثر، ومشرية وعين الصفراء، وفيقيق. ويتبع مجرى واد زوزفانة إلى ايجلي حيث يلتقي بطريق فاس إلى تمبوكتو.

ولهذا الطريق فرع آخر إلى شرق الأول، مستقيم، يبدأ من خيثرَ إلى البيض والأبيض سيدي الشيخ، والمنقب، وتوات، حيث يلتقي بطرق: وهران، وفاس، ومكناس، إلى تمبوكتو. وقد سلكه كولونيو عام (1860م).

رابعًا: طريق مدينة الجزائر إلى تمبوكتو: ويمر على البليدة، وبوغار، والأغواط، وغرداية، والقليعة، وعين صالح، وأكابلي، وبئر تيريشومين حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبوكتو. وقد سلكه الضابط بالا.

ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو، وتنتيلوست، حيث يتفرع إلى فرعين كذلك: فرع إلى أقادم، وماو، شرق بحيرة تشاد. وإلى أقادم وكوكا جنوبها. وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أقاديس حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين: فرع إلى سوكوتو، وفرع إلى كاتسنا.

خامسًا: طريق سكيكدة، وقسنطينة إلى أمقيد، والهقار، وتمبوكتو: ويمر على باتنة، وبسكرة، وتقرت، ورقلة، والبيوض، وأمقيد، وتيميساو، وأيفروان، إلى مبروك، وتمبوكتو. أو إلى بوروح (برنوح). وقد مر على جانب من هذا الطريق الضابط فلاتر عبر حوض ايغرغر.

ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى وادي سوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، وجبادو، وبلما، وأقاديم، وماو. وفرع من البيوض إلى عين صالح. وفرع ثالث إلى غات.

سادسًا: طريق طرابلس إلى تمبوكتو: ويمر على سناون، وغدامس، وتيماسينين، والبيوض. حيث يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبوكتو. ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات، وبيرعسيو، وأقاديس، ثم إلى سوكوتو، وكاتسنا غربا. وإلى أقاديم، وماو، شرقًا.

سابعًا: طريق طرابلس إلى مرزق، عبر سبهة، ثم إلى بئر بكر، وتيجري، وتومو (واحات كاوار)، حيث يتفرع إلى فرعين: فرع إلى بلما، وأقاديم، وماو، وكوكه، بالتشاد. وفرع إلى أبشر شرق وداي. وهذا الطريق سلكه فوجيل عام (1854)، وبارث خلال عودته عام (1855)، وبورمان عام (1862)، وروهلف في عام (1866)، وناشتيقال عام (1870م).

وقد سلك فرع مسيده، كل من بارث عام (1850)، وباري عام (1876). وسلك فرع سكنه كل من فوجيل عام (1854)، ودوفيريي عام (1861)،

وناشتيقال عام (1869م)، وروهلف عام (1879م).

ثامنًا: طريق طرابلس: إلى جغبوب، وسيوة، والفرافرة، والأقصر، بصحراء مصر، ويتصل بهذا الطريق عدة طرق أخرى آتية من مراكز العمران الساحلية بالشمال مثل: سرت، وبنغازي، ودرنة، والقصر الجديد.

تاسعًا: طريق بن غازي إلى واداي: ويمر على أوجيلة، وجالو، وسرهن، وكبانو، وتاهيته، حيث يتفرع إلى فرعين: فرع إلى ماو. وفرع إلى أبشر. وهو الذي سلكه روهلف عام (1874).

عاشرًا: طريق أسيوط، وإسنا، وأسوان، إلى دارفور بالسودان: ويمر على سليمه، والفاشر، وعندما يصل إلى الفوجة يتفرع إلى فرعين: فرع إلى دنقلة القديمة عبر مجرى وادي ماليك. وفرع إلى سنار، أو الخرطوم. ويمتد فرع الخرطوم إلى بربارة، وسواكن، على سواحل البحر الأحمر شرقا. وقد سلك هذا الطريق كل من برون: Browne عام (1783)، وكوني: Cuny عام (1858)، وناشتيقال عام (1874). وموسون: Moson عامي: (1876 - 1877)، وانسور: Ensor الأمريكي عامي: (1875 - 1876). وماساري: Massari عام (1880م).

الأسواق التجارية:

وأهم الأسواق التجارية التي تتجه إليها هذه الطرق في أعماق الصحراء تتجمع في ثلاث مناطق رئيسية هي:

1- السودان الغربي: ومن أهم أسواقه: تمبوكتو، التي كانت لها أهمية خاصة خلال العصر الوسيط تجاريًا، وثقافيًا، في أقصى الجنوب. وقورارة، وتوات، وعين صالح، بإقليم تيديكلت في الشمال. وبين سوق تمبوكتو، وأسواق توات وتيديكلت على طول الطرق توجد أسواق: أروان، ومبروك، وايفروان، وتيميساو، وأونان، وتاوديني، ووالن، وتيريشومين، وأكايلي.

2- أسواق تشاد والسودان الأوسط: ومن ضمنها: سوكوتو، وقاندو، وكاتسنا، وتاقليل، وأقاديس، وكوكه في بورنو، وأبشر في واداي، وماو، وأقاديم، وبيلما، وتنتيلوست، وبيرعسيو، وجبادو، وين، وماو (كاوار). وإلى شمال هذه الأسواق تقع أسواق فزان، وأسواق واحات الكفرة بليبيا.

3- أسواق السودان الشرقي: ومن ضمنها أسواق دارفور، وكوردوفان: كالفاشر، والفوجة، والأوبيد، وسنار، والخرطوم، ودنقلة، وبربارة، وسواكن، وسليمه، ووادي حلفا[1].

مشاكل القوافل في الطرق:

كانت التجارة مع بلدان السودان الغربي، والأوسط، والشرقي محتكرة لشعوب شمال القارة، وخاصة ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، وتتوفر بلاد السودان على ما لا يقل عن 800 مركز عمراني في الاتجاهات الطولية بين خطي عرض 17 شمالًا وجنوبًا، وما لا يقل عن 500 مركز عمراني في الاتجاهات العرضية من الغرب إلى الشرق. وازدهرت التجارة فيها وتطورت منذ القرن التاسع الميلادي. ومن ضمن هذه المراكز العمرانية البارزة: غدامس، وغات، وورقلة، وتوات، وقورارة، وتمبوكتو، وسجلماسة.

وتعد القوافل وتجهز في الشمال بطرابلس، والقيروان، وقسنطينة، والجزائر، وتلمسان، وفاس، ومراكش. ويتراوح عدد جمالها بين ألف وثلاثة آلاف جمل، محملين بمختلف البضائع والسلع.

وتمر هذه القوافل على معظم الأسواق والمراكز العمرانية في قلب الصحراء حسب اتجاهها. وتستغرق في ذهابها وإيابها شهورًا عديدة، لا تقل عن فصل كامل

(1) Edouard Blanc: les rutes de l'Afrique septentrionale au soudan (Bul. Soc. Paris -1890) pp. 169 - 217.

من فصول السنة، وأحيانًا تستغرق عدة فصول.

فقافلة طرابلس الغرب إلى كانو تستغرق 125 يومًا تقطعها على مراحل حسب الكيفية التالية:

من طرابلس إلى غات 55 يومًا.

من غات إلى افروان 40 يومًا.

من افروان إلى زندر 24 يومًا.

من زندر إلى كانو 6 أيام[1].

وقافلة قسنطينة إلى توات تستغرق 36 يومًا. وقافلة المدية إلى توات تستغرق 48 يومًا. وقافلة تلمسان إلى عين صالح تستغرق 32 يومًا. وإلى ولاتن وتمبوكتو 72 يومًا، وإلى النيجر 75 يومًا. وقافلة فاس إلى توات 39 يومًا[2].

وتبدأ هذه القوافل رحلاتها في مطلع فصل الشتاء، حيث الحرارة والطقس ملائمان بالصحراء. وتتعرض خلال رحلاتها لعدد كبير من المشاكل والصعوبات من ضمنها، وعلى رأسها:

أولًا: هجمات اللصوص، وقطاع الطرق، من البدو الرحل، والتوارق الملثمين، وقلة المياه.

ثانيًا: دفع ضرائب المرور، والزيادة فيها باستمرار. خاصة بعد أن برزت المزاحمة الإنجليزية التي عملت على تحويل التجارة من طرابلس إلى مياه المحيط الأطلسي غربًا عبر نيجيريا إلى كانو. ففي غات يدفع التجار 5.4 فرنكًا ذهابًا. و9 فرنكات في

---

(1) Bozzo Di Borgo: Role des Hoggar dans le commerce tanssaharien. (sans date) p. 18

(2) Coudray: Relations cmmerciales de Tlemcen avec le Sahara et le Soudan. (Bul. Soc. G. Alger) 1886 - 1887. pp. 230 - 231.

الإياب للحمولة. وفي كانوا يدفعون من 25 إلى 42 فرنك.[1]

وتواجه الدول المغربية هذه المشاكل بعدد من الإجراءات منها:

أ - تزويد القافلة بالأسلحة الكافية لتدافع عن نفسها، وترغم المهاجمين على الارتداد، ودفع تعويض عن كل خسارة يلحقونها بها.

ب - تأليف القافلة من رجال أقوياء، أشداء، محاربين. وتنويع انتمائهم للقبائل حتى يكثر أنصارها؛ ويصعب الاعتداء عليها.

جـ - فرض ضرائب متنوعة على العربان مثل ضريبة العشر، وضريبة المرور وإلزامهم بتقديم الرجال لخدمة القافلة وإرشادها حتى لا تغلق في وجوهم أسواق الشمال التي يترددون عليها كذلك.

د - تنظيم شرطة صحراوية على طول طريق القافلة خلال الذهاب والإياب، لمراقبة البدو الرحل، والقيام باستعلامات سريعة ومسبقة تتكلف إبلاغ القافلة مسبقًا بكل تحركات العصابات البدوية حتى تحتاط لنفسها، وتنظم الدفاع عن نفسها.

هـ - منح بعض العائلات والقبائل الصحراوية، امتيازات متوارثة، مقابل تنظيم الدفاع عن القوافل.

و - اتخاذ أدلاء أو (قياد) عارفين بمسالك الطرق، ومواطن المياه، وظروف الأمن، وأماكن العصابات المهاجمة، وهوية المهاجمين، وأساليب هجومهم، وتحركاتهم[2].

بضائع التجارة:

تحمل القوافل خلال اتجاهها من الشمال إلى أسواق الصحراء البضائع التالية:

(1) Bozzo: pp. 19 - 20.

(2) Coudray: pp. 432 - 434.

1- الأقمشة المختلفة من كل جنس، ونوع: إفريقي، وأوربي. بيضاء، وملونة مزركشة، صوفية، وقطنية، وحريرية، وكتانية، ومن أشهرها: الجوخ والشاش.

2- الأسلحة المختلفة للدفاع والهجوم، لتسليح القوات المحلية، كالدروع والخوذ، والخناجر، والسهام، والتروس، وأقواس النشاب، والبنادق. وكان الأمراء والسلاطين يتبارون في تسليح قواتهم المحلية حتى يفرضوا احترامهم على جيرانهم.

3- السروج، والألجمة والمهامز، للأحصنة، والبغال، والجمال.

4- الأدوات الحديدية: كالقدور، والأمواس، والسكاكين، والإبر، والأواني المنزلية الأخرى. وأدوات الزينة الجلدية، والنحاس الأصفر، والنحاس العادي، سواء على شكل سبائك وصفائح، أو قوالب. وأسلاك النحاس، والكحول (كحول النساء)، والكبريت. ومعظم هذه الأدوات تأتي من البندقية الإيطالية، إلى موانى طرابلس، والجزائر، ووهران، وهنين.

5- بضائع البندقية، وميلان، وبرشلونة، الزجاجية، وحلي المرجان، والذهب، والفضة (كالبريمات)، والمرايا، والأمشاط، والخردوات المختلفة.

6- الروائح العطرية، والأدوية العشبية، والبهارات، ومواد الصباغة، والعطور، والشاي، والسكر، وصمغ الصنوبر، ونبات تاسلغة.

7- الكتب المخطوطة، والمنسوخة، والورق، والأقلام، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، وانتشارها بشكل واسع، واهتمام العلماء بتدريس العلوم الإسلامية في مختلف مراكز العمران الصحراوية، وعلى رأسها تمبوكتو، وتوات، وورقلة، وتقرت، وغات، وغدامس، وجيني. وكثيرًا ما يذهب علماء الشمال من طرابلس، والجزائر، وتلمسان، وفاس، ومكناس، ومراكش، إلى هذه المراكز للتدريس، ونشر الثقافة الإسلامية. ومن أشهر العلماء المحليين أحمد بابا التمبكتي. ومن أشهر العلماء الوافدين عبد الكريم المغيلي التلمساني.

8- بغال المغرب العربي المرغوب في اقتنائها بكثرة في الصحراء، وذلك لضخامتها وقوتها، وقدرتها على الكر والفر في الحروب. وكان البغل الواحد منها يباع بـ 15 إلى 20 عبدًا أسود في بورنو.

9- الخضر الجافة، والزيوت، والشحوم، والزبدة، والأغنام، والأصواف.

تحمل القوافل هذه البضائع المختلفة: المغربية، والأوروبية، والآسيوية، إلى مختلف أسواق السودان، وتبيعها، وتبيع معها حتى الجمال التي حملتها إلى هناك بسبب تعبها، وإرهاقها، وضعفها، من شدة نقل الأحمال، وطول الشقة والمسافات التي قطعتها.

ويقوم التجار بشراء جمال أخرى شابة وقوية، ويشترون سلع السودان، ويعودون بها إلى الشمال مع مطلع فصل الربيع[1] وأهمها: العبيد السود ذكورًا وإناثًا. والذهب تبرًا وقوالب. ومعدن النيلة، والملح، والعاج، وريش النعام، والجلود المدبوغة، والجمال، والتمور، والجبن المجفف، والسمن، وبعض الأقمشة الإفريقية، والأحجار الكريمة.

العملات المستعملة وأسعار السلع:

كانت التجارة في الصحراء، تتم بالتبادل في معظم الأحيان نظرًا لقلة العملات، وضعف انتشارها واستعمالها، فكمية من الملح مثلًا يتم تبادلها بعشرين وزنة من البشنة أو اللوبية الأهلية. وحمار واحد يباع بألفي وزنة من البشنة، وهو ما يعادل 10 حمولات بعير، أو قطعتين من القماش الأسود المخيط، وزوج من التقاشر (الجوارب). وحمولتا بعيرين من الأرز، ومزودان يباعان بقطعة قماش ذات مقاس 40 كودي[2].

---

(1) Coudrax: pp. 424 – 427.

(2) Bozzo: p. 15.

وإلى جانب التبادل العيني للسلع، هناك عدة عملات شاع استعمالها في تجارة الصحراء بعضها محلية، والبعض مستوردة من الخارج منها:

1- عملة حديدية منتشرة كثيرًا في مناطق غينيا كما أكد ذلك ابن بطوطة.

2- عملة نحاسية حمراء، رقيقة وغليظة، ذات قيمة منخفضة جدًّا. بحيث إن 400 قطعة رقيقة منها لا تساوي سوى دوخة واحدة.

3- عملة الملح المعدني الذي يقطع إلى قطع صغيرة مختلفة الأحجام، والأشكال تستغل في البيع والشراء، كما يستغل دقيق الملح نفسه، خاصة في ولاته.

فهناك قطع تساوي 20 دوخة أو 160 فرنكًا. وقطع تساوي 30 دوخة أو 240 فرنكًا.

وقطع تساوي 40 دوخة أو 320 فرنكًا. وتساوي حمولة الملح في تمبوكتو 80 دوخة على عهد الحسن الوزان. أما في تيغزة، وبلمه، فلا تستغل عملة الملح في التعامل التجاري. وبصفة عامة فإن عملة الملح، تكاد تكون محتكرة للبدو الرحل.

4- الكوري: Couris وهي عملة فارسية، وهندية، مستوردة قيمتها منخفضة جدًّا بحيث إن ألف كوري تساوي 0.75 فرنكًا. وتشبه عملة الزجاج، والجلد، اللتين كانتا مستعملتين لدى القرطاجنيين[1].

5- عملة ذهبية على شكل قطع، أو تبر.

6- الدوخة: ducat، الذهبية، والفضية.

7- الدراخمة: وهي عملة مستوردة من الخارج من طرف التجار.

8- الدينار الشائع الاستعمال في بلدان المغرب العربي.

9- المثقال الذهبي: ويساوي 19 فرنكًا في تمبوكتو.

(1) Coudray: pp. 422 - 424.

10- المجيدي: ويساوي 4.5 فرنك.

11- المحبوب الذهبي: الشائع الاستعمال في بلدان المغربي العربي.

12- الموزونة الفضية: الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.

13- القائمة النحاسية: الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي.

14- الدورو الفضي: الشائع الاستعمال في بلدان المغربي العربي.

15- البينتو: Pinto وهي عملة أجنبية مستوردة من الخارج[1].

كانت تجارة القوافل الصحراوية مربحة إلى حد بعيد رغم الأتعاب والمشاق التي يتكبدها التجار، وذلك من ضمن الحوافز التي دفعت الأوروبيين إلى التنافس على غزوها واستعمارها خلال القرنين (18 و19م). فالحمولات التي تخرج من طرابلس الغرب سنويًا إلى السودان لا يقل عددها عن ألفين (2000) حسب تقدير التاجر الطرابلسي مختار بن زقلاو إلى الضابط بوزو. ومعدل قيمة الحمولة الواحدة 1100 فرنك. وتحتوي على 70 قطعة قماش مالطي. تزن ثلاثة قناطر طرابلسية أي 150 كلغ (القنطار الطرابلسي يزن 50 كلغ) وعندما تطرح مصاريف جمارك الطريق، تبقى قيمتها تساوي 450 فرنكًا، ودخلها 500 فرنك. وذلك يعني في تجارة الجملة، أن 2.200.000 فرنك تربح مليون فرنك، وكانت قطعة مالطة القطنية ذات مقاس 22 مترًا تباع في طرابلس بمبلغ 8 فرنكًا، وفي الجزائر بمبلغ 13.5 فرنكًا. وفي كانو بمبلغ 8 آلاف كوري (16 فرنكًا)، وفي تمبوكتو بمثقال ونصف ذهبي. والمثقال يساوي 19 فرنكًا.

وقد أورد كودراي نموذجًا لأرباح تجارة القوافل الصحراوية، وذكر أن الحصان الجيد الذي يساوي 30 دوخة (240 فرنكًا) في شمال المغرب، يباع في

---

(1) Henri Stuckli: Le commerce de la France avec le Soudan. (paris - Challamell 1864) pp. 23 - 30.

السودان بعدد 17 عبدًا أسود، معدل سعر كل واحد منهم 25 دوخة في المغرب وهو ما يعادل 425 دوخة أو 3400 فرنك. فمبلغ 240 فرنك أنتجت 3400 فرنك. وعندما يطرح ألف فرنك كمصاريف للطريق، يبقى مبلغ 2400 فرنك منها 2160 فرنكًا ربحًا صافيًا. وهو ما يعادل 900٪[1].

أسعار البضائع في السودان وفي طرابلس:

تشترى البضائع الآتية في السودان بالأسعار التالية:

- العاج: من 200 إلى 220 ألف كوري للقنطار الطرابلسي (50 كلغ). وهو ما يعادل 200 إلى 220 فرنك.
- ريش النعام: من 50 إلى 60 ألف كوري للكيلو غرام أو 50 إلى 60 فرنكًا.
- تبر الذهب: من 7 إلى 8 آلاف كوري للمثقال.
- العبد الذكر: من 120 إلى 130 ألف كوري أو 120 إلى 130 فرنك.
- العبد الأنثى: من 150 إلى 200 ألف كوري أو 150 إلى 200 فرنك. وتباع في طرابلس بالأسعار التالية:
- العاج: من 200 إلى 300 محبوب للقنطار. أو 1000 إلى 1200 فرنك.
- ريش النعام: من 5 إلى 5 وربع محبوب للكيلو غرام. أو 20 إلى 21 فرنكًا.
- تبر الذهب: 3 محبوبات للمثقال. أو 13 فرنكًا.
- العبد الذكر: من 70 إلى 80 محبوبًا. أو 280 إلى 320 فرنكًا.
- العبد الأنثى: من 100 إلى 120 محبوبًا. أو ما يعادل 400 إلى 480 فرنكًا[2].

---

(1) Coudry: pp 430 .

وقد ذكر كودراي أن سعر العبد الذكر 20 دوخة، وسعر الأنثى 15 دوخة، وسعر الخصي 40 دوخة، ويستخرج المعدل بجمع الأرقام الثلاثة وقسمتها على ثلاثة.

(2) Bozzo: pp. 5 et 19.

أسعار النقل والجمارك:

يدفع التجار ضرائب النقل في الذهاب والإياب حسب الكيفيات التالية:

- من طرابلس إلى غات 2.5 بينتو لثلاثة قناطر ونصف طرابلسية.

- من غات إلى ايفروان بينتوًا واحدًا للقنطار الواحد. وما يساوي 70 فرنكًا للحمولة الواحدة.

- من ايفروان إلى زندر 20 ألف كوري للقنطار (70 فرنكًا للحمولة).

- من زندر إلى كانو 5000 كوري للقنطار (17.5 فرنكًا للحمولة). ويتحايل التجار فيدفعون بضائع بسعر يعادل نصف القيمة الحقيقية للنقل. وخلال العودة تنخفض أسعار النقل، وتتم على الشكل التالي:

- من كانو إلى ايفروان 40 ألف كوري للحمولة (ما يعادل 40 فرنكًا).

- من ايفروان إلى غات بينتوان ونصف للحمولة (ما يعادل 50 فرنكًا).

- من غات إلى طرابلس بينتوان للحمولة (ما يعادل 40 فرنكًا)[1]. وهناك نموذج آخر لأسعار النقل أورده ستوكلي على النحو التالي.

- من غدامس إلى غات من 12 إلى 15 قرشًا تركيًا للقنطار. أي 11.25 فرنكًا.

- من غات إلى كانو ما بين 10 و 30 ألف كوري للقنطار الواحد (60 ألف كوري لثلاثة قناطر) أو ما يعادل 12000 فرنك.

- من توات إلى تمبوكتو ما بين 12 و 24 مثقال ذهب لحمولة 3 قناطر. أو 45 محبوبًا لحمولة 70 قطعة قماش مالطية تزن ثلاثة قناطر طرابلسية. وهو ما يعادل 190.00 فرنك.

ويتم الدفع على الشكل التالي بالنسبة للعنصر الأخير:

---

(1) Bozzo: p. 18 .

- من توات إلى تمبوكتو يدفع التجار 5 محبوبات لتوارق الهقار. و10 محبوبات أو نصف مثقال لعرب البرابش. وبذلك فإن حمولة 150 كلغ من الجزائر إلى تمبوكتو، تكلف 380 فرنك. أي 250 فرنك لمائة كلغ(1).

وإلى جانب أسعار النقل يدفع التجار ضرائب الجمارك في الذهاب والإياب على الشكل التالي:

- في غات خلال الذهاب مجيدي واحد للحمولة (4.5 فرنك). وخلال العودة مجيديان اثنان (9 فرنكات).

- في أقاديس 20 فرنكًا للحمولة.

- في كانو: خلال الذهاب 25 فرنكًا للحمولة. خلال العودة 20 فرنكًا.

- في زندر خلال العودة: العاج وريش النعام 20 فرنكًا للحمولة. والباقي 10 فرنكات للحمولة(2).

نموذج من تجارة قوافل التوارق الداخلية:

يتجمع التوارق كل عام في دامرقو شمال سوكوتو، ويؤلفون قافلة من سبعمائة إلى ثمانمائة جمل. ويأخذون طريقهم إلى زندر خلال شهر نوفمبر. وأحيانًا ينضمون إلى القافلة التي تقدم من طرابلس عبر غات.

تحمل قافلة التوارق معها ملح سبخة دامرقو المرغوب فيه كثيرا، والأغنام، والمعز، وجمال اللحوم، والسمن، والجبن المجفف، وبضائع الجلود والألبسة الصوفية السودانية، والرحلة، ويبيعونها بالتبادل، بقطع الشقة (قماش من نسيج الصوف)، والتمور، والكتان، وأغلفة السيوف، والعمائر، والمزاود، والوسائد الجلدية، والمهارس، وقوارير (علب) الروائح، والبشنة، والأرز، والعسل، والنبال،

---

(1) Stuckli: p. 18.

(2) Bozzo: p. 18.

والخناجر، والتروس، والدروع السودانية، والملاحف، وذلك في أسواق تيديكلت، وأقاديس، وتمبوكتو، وتشاد، وغيرها.

فشقة توات (ملحفة من نسيج الصوف)، تباع بعين صالح حسبما يلي:

- قطعة قماش بيضاء مقاس 200 كودي من 45 إلى 50 فرنكًا.

- قطعة قماش سوداء مقاس 44 كودي من 8 إلى 10 فرنكات.

وشقة غات تباع حسبما يلي:

- قطعة قماش بيضاء ذات مقاس 40 كودي تباع بسعر 11 إلى 12.5 فرنكًا.

- قطعة قماش سوداء ذات مقاس 35 كودي تباع بسعر 7.5 إلى 15 فرنكًا.

وفي المقابل يشتري التوارق الهقاريون السلع في الآير بالأسعار التالية عن طريق التبادل بقطع قماش الشقة (الملاحف الصوفية):

- الرحلة: تشتري بقطعة قماش ذات مقاس 10 إلى 40 كوديًا.

- القراب: بقطعة قماش ذات مقاس 5 إلى 10 كوديًا.

- الوسادة: بقطعة قماش ذات مقاس 5 إلى 10 كوديات.

- علب الروائح (التباط): بقطعة ذات مقاس 4 إلى 5 كوديات.

- المهراس: بقطعة ذات مقاس 5 إلى 6 كوديات.

- الفدهان (كورخشبية): بقطعة ذات مقاس 5 إلى 6 كوديات.

- النبال: بقطع ذات مقاس 5 إلى 6 كوديات.

- السيوف: بقطع ذات مقاس 1 إلى 6 كوديات.

- التروس: بقطع ذات مقاس 1 إلى 4 كوديات.

- الدروع: بقطع ذات مقاس 10 إلى 40 كوديًا.

- الذراع (قماش سوداني ملون) بقطع ذات مقاس 20 إلى 80 كوديًّا[1].

معاهدة غدامس بين الفرنسيين والشيخ ايخنوخن:

لم يخف الفرنسيون رغبتهم في فتح أسواق الصحراء للتجارة الفرنسية، ولم يفتئوا في السعي لتحقيق ذلك بمختلف الوسائل. فاستدعوا زعيم التوارق الديني الشيخ عثمان لزيارة الجزائر العاصمة، وقسنطينة، خلال حكم الماريشال راندون. ثم دعوه مرة أخرى في عهد الماريشال الدوق دومالاكوف بيلسي لزيارة الجزائر العاصمة، ومدينة باريس بصحبة اثنين من أفراد عائلته. وأثروا فيه فقبل هو والشيخ ايخنوخن إبرام اتفاقية 26 نوفمبر (1862) بغدامس مع البعثة الفرنسية التي توجهت إلى هناك بزعامة الضابط ميرشير: Mircher، والضابط بولينياك: Polignac، والمهندس فاتون Vatonne، والطبيب هوفمان: Hoffman. وقد أمضى هذه الاتفاقية الشيخ ايخنوخن عن قبائل أزقور، وميرشير عن الإمبراطور، والدوق دومالاكوف. ومن أهم بنودها:

1- إقرار الصداقة والتبادل، بين السلطات الفرنسية، ورؤساء مختلف فروع، وقبائل التوارق.

2- يمكن للتوارق أن يمارسوا العمل التجاري في كل أسواق الجزائر دون أي قيد أو شرط ما عدا أداء المكوس العادية.

3- يلتزم التوارق بتسهيل وحماية عبور المفاوضين الفرنسيين، لبلادهم ذهابًا وإيابًا، إلى بلاد السودان، وحماية بضائعهم التجارية على أن يدفعوا المكوس العادية.

4- تلتزم السلطات الفرنسية، وزعماء التوارق بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى السودان، وإصلاحها وتحديدها، وتحديد المكوس وضبطها، وإصلاح الآبار، وإزالة كل العراقيل في وجه نشاط التجار الفرنسيين.

---

(1) Bozzo: pp. 12 - 13.

5- بموجب التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات التجارية بين بلدان شمال إفريقيا، وسكان التوارق، تبقى عائلة الشيخ الحاج اخنوخن، مكلفة بضمان المرور لقوافل الفرنسيين التجارية عبر بلاد أزقور. وتستمر العلاقات التجارية القائمة اليوم كما هي بين عائلات أزقور، والشعانبة، والسوافة.

6- تدفع القوافل التجارية الفرنسية ضريبة محددة للشيخ اخنوخن أو ورثائه، ووكلائه، ويحددها الحاكم العام الفرنسي والشيخ اخنوخن.

7- تسوى الخلافات التي تنشب بين الطرفين بالود والإنصاف من طرف الشيخ أو ممثليه بمقتضى العادات المعروفة في البلد.

8- يلتزم الشيخ اخنوخن، والزعماء السياسيون الآخرون لتوارق أزقور، بربط علاقات جيدة مع توارق قبيلة كلوي، وتهيئة الظروف الحسنة للمفاوضين الفرنسيين لكي يمروا بسلام بقوافلهم عبر بلاد الآير.

وكان من نتائج هذه الاتفاقية، بروز الشيخ البكاي الكلوي التارقي، وتعاونه مع الدكتور هنري بارث الألماني، ومرافقته له في رحلته، وحمايته من المسلحين الفلانيين أمام أسوار تمبوكتو[1]، مع العلم أن بارث قام برحلاته فيما بين عامي (1849 - 1855م).

هكذا كانت الصحراء الكبرى الإفريقية، صلة وصل بين مختلف شعوبها، ومع شعوب العالم الأخرى في أوروبا، وآسيا، برغم المسافات الطويلة، والشاسعة، وبرغم قساوة الطبيعة والمناخ.

وهكذا كانت الصحراء الكبرى مهدًا لحضارات راقية خلاقة، ومبدعة، ومركزًا لنشاطات تجارية وصناعية مهمة طوال العصرين الوسيط والحديث.

---

(1) Stuckli: pp. 23 - 30.

وليس من الغريب اليوم أن يعود لهذه الصحراء الكبرى نشاطها التجاري والمعماري، والحضاري، في إطار استثمار ثرواتها الطبيعية الهائلة التي تزخر بها من طاقة، ومعادن، ومنتوجات زراعية متنوعة.

وليس من الغريب كذلك أن تستهوي الصحراء اليوم الأوروبيين مرة أخرى بثرواتها الطاقوية، كما استهوتهم أمس بنشاطاتها التجارية الحيوية الهائلة.

ولكن اليوم ليس هو الأمس على أي حال. فثروات الصحراء الكبرى لا بد أن تستثمر قبل وبعد كل شيء لصالح التنمية الوطنية والقومية لشعوبها. وعائدات البترول والغاز لا بد أن تسخر للقضاء على العزلة والتخلف الفظيعين اللذين خلفهما الاستعمار الأوروبي الراحل إلى غير رجعة، كتركة ثقيلة.

ولا بد أن يعود للصحراء الكبرى وجهها المشرق الأصيل، بالبناء والتعمير، كشق الطرق البرية والحديدية، وبناء المطارات، وإنشاء القرى العمرانية لتوطين البدو الرحل، وإيصال المياه والكهرباء إليها، وبناء المدارس والمعاهد للتكوين العلمي والثقافي، والمهني، والبحث عن المياه الجوفية، واستصلاح الأراضي الزراعية، وتنويع المزروعات، وفقًا للتطورات العلمية الحديثة، وخلق فرص العمل للإنسان، والقضاء بصفة نهائية على حياة الترحل البائسة، وشن حرب ضروس لا هوادة فيها على الأوبئة، ومراتع الذباب، والناموس، وما إلى ذلك من الحشرات المعدية، وتشجيع الصناعات التقليدية المحلية، وإحياء وتنمية وتدعيم المقومات الوطنية الأصيلة، الثقافية، والاجتماعية.

بهذا، وبهذا وحده، يعود للصحراء الكبرى وجهها المشرق الأصيل، ويعود لشعوبها مركزها ومكانتها بين الأمم الراقية.

❑❑❑

أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين[1]

أنواع المؤسسات الدينية:

بدأت المؤسسات الدينية تظهر بالجزائر، وكل بلدان المغرب الأخرى، منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) عندما وصل إليها الإسلام على أيدي الفاتحين المسلمين الأوائل، وكان المسجد هو النواة الأولى لهذه المؤسسات ثم ظهرت بالتدريج مؤسسات أخرى شاركته في رسالته وخففت عنه بعض الأعباء وهي: المدارس العلمية، والكتاتيب القرآنية، والزوايا، والمعمرات.

1- فالمساجد: وظيفتها الأساسية قيام المسلمين بأداء الصلوات فيها وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفروض الدينية وبعض العلوم الإسلامية، وتعرف شئون الناس وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية وهي ثلاثة أنواع:

أ - نوع مما أسسه الحكام كالخلفاء والأمراء والولاة، والملوك، كجزء من عملهم الوظيفي لخدمة المجتمعات الإسلامية وتيسير سبل أداء شعائرهم الدينية، ولكسب عطف الرعية، ولربما الشهرة كذلك، ومن ضمنها بالجزائر: جامع ابن مروان، وصالح باي بعنابة، وجامع الباي بقسنطينة، والجامع الكبير بالجزائر العاصمة، وجامع الباشا بوهران، والجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة.

ب - ونوع مما أسسه كبار الأثرياء للتقرب إلى الله واستمالة بعض الفئات

---

(1) أعددنا هذا الموضوع وألقيناه في المؤتمر الواحد والعشرين للمستشرقين الألمان بمدينة برلين الغربية في الفترة من 24 إلى 29 مارس (1980م).

الاجتماعية وشيوخ الدين، ولكسب الشهرة كذلك، وأعداد هذا النوع كثيرة بالجزائر، ومن ضمنها: جامع سيدي الخضر بقسنطينة، وسيدي رمضان، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وسيدي الصوفي ببجاية، وسيدي الهواري بوهران، وسيدي الحاوي، وأبي مدين بتلمسان.

جـ - ونوع ثالث مما أسسته الهيئات والجمعيات الخيرية الدينية والاجتماعية، كتكملة لعمل الولاة وكبار الأثرياء وشيوخ الدين، وأعدادها كثيرة جدًّا، ولا تحصى، بالجزائر، وكل بلدان المغرب الأخرى، بالحواضر والقرى، وكذلك الحال في معظم بلدان العالم الإسلامي.

2- **والمدارس العلمية**: وظيفتها تعليم مختلف العلوم الدينية، وغير الدينية، وظهرت بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واتصل المسلمون بحضارات شعوب أخرى غير إسلامية واحتكوا بها ودعت الحاجة إلى اقتباس علومها ومعارفها والاستفادة منها، ولم يكن باستطاعة المسجد وحده أن يقوم بهذا الدور، فاهتم المسلمون بإنشاء مثل هذه المدارس وتعميمها ومن ضمنها: المدرسة النظامية ببغداد، والظاهرية بدمشق، والمرادية، والشماعية في تونس، والكتانية بقسنطينة، والمروانية بعنابة، والتاشفينية ببجاية، والإمامية، وأبي مدين شعيب بتلمسان.

وجرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد، نظرًا للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، ولكن هذا ليس شرطًا، غير أن كل مدرسة لا بد أن يؤسس داخلها بيت (مسجد) للصلاة.

وتنوعت العلوم والمعارف التي تدرس بها إلى ثلاثة أصناف:

أولًا: العلوم الدينية مثل تحفيظ القرآن وشرحه وتفسير الحديث، وتعليم الفقه والتوحيد، والمنطق والأصول.

ثانيًا: علوم اللغة والأدب، كالنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض والقوافي،

وقواعد الإنشاء، باعتبارها أداة ووسيلة، لإتقان العلوم الدينية.

ثالثًا: العلوم الطبيعية والتجريبية، كالفلك، والحساب، والطب، والصيدلة العشبية، وغيرها.

وتوجد بالجزائر مجموعة من هذه المدارس ما يزال البعض منها قائمًا حتى اليوم ولو كهياكل مثل مدرسة ابن مروان بعنابة، والكتانية، وسيدي الخضر، بقسنطينة، والتاشفينية ببجاية، وأبناء الإمام، وسيدي بومدين بتلمسان وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وكانت هناك مدارس بمازونة، ومليانة، وندرومة وغيرها.

3- والكتاتيب القرآنية: وظيفتها تحفيظ القرآن الكريم للأطفال وترتيله لهم، وقد دعت الحاجة لتأسيسها من أجل تجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضاءهم والاحتفاظ بنقاوتها، وطهارتها ووقارها، ليجد فيها المصلون، والمتعبدون، جو الخشوع المطلوب في العبادة.

وهذه الكتاتيب أحيانًا بيوت منفردة وأحيانًا مجمعات من البيوت، مختلفة الأحجام والأشكال، والأغلبية من تأسيس حفظة القرآن الكريم للارتزاق والحصول على لقمة العيش. وقد بدأت هذه الكتاتيب القرآنية تظهر منذ صدر الإسلام بالمدينة قبل هجرة الرسول ﷺ ثم انتشرت في سائر البلدان الإسلامية، ومنها الجزائر وبلدان المغرب التي تطورت فيها تطورًا كبيرًا وواسعًا في العصر الحديث، وتكثفت في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين (19 و20) كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسية وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر، ولمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الاستعمارية في البلاد.

وهي موجودة في كل الحواضر والقرى بصورة مكثفة كما ذكرنا ويطلق عليها

في الجزائر الوسطى أسم (المسيد)، ويتولى تحفيظ القرآن فيها حفظة القرآن الكريم الذين يطلق عليهم اسم (الطلبة) في بعض الجهات، و(الفقهاء) في بعض الجهات الأخرى، و(المشايخ) في غيرها.

ويزدحم الأطفال حولهم ذكورًا وإناثًا، من مختلف الأعمار ويجلسون على الأرض فوق الحصائر والسجاجيد في شكل دوائر نصفية، فيملون عليهم أجزاء من القرآن الكريم يكتبونها على ألواح خشبية مطلية بطين الصلصال (الغراء)، بأقلام من القصب، وصمغ مصنوع من الصوف المحروق، وفضلات الأبقار.

وبعد كتابته وتصحيحه، في الفترة الصباحية، يتمرن الأطفال على قراءته قراءة أولية، ثم يتلونه في المساء ويقرءونه بأصوات جهورية، حتى يحفظوا ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي، ويكتبون غيره وهكذا بصفة دورية ودائمة حتى يأتوا على كل سور وأحزاب القرآن الكريم.

وفي العادة يتم تعليم القرآن في الصباح من الخامسة والسادسة حتى العاشرة، وفي المساء من الساعة الثالثة عشرة إلى السابعة والثامنة عشرة مع راحة في الوسط قبيل صلاة العصر. غير أنه في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر جرت العادة في المدن على ممارسة تحفيظ القرآن وتعليمه في الأوقات التي تكون فيها المدارس الرسمية مغلقة بين الخامسة والسابعة والنصف صباحًا، والثانية عشرة والثالثة عشرة والنصف في منتصف النهار، والسابعة عشرة والتاسعة عشرة وما بعدها مساء، وذلك حتى يتمكن بعض الأطفال المحظوظين من الالتحاق بهذه المدارس الرسمية الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإدارة الاستعمارية نفسها ضايقت في ذلك حتى لا تبدو هذه الكتاتيب القرآنية مزاحمة للمدارس الفرنسية رغم أن أبوابها مغلقة وموصدة في وجه معظم أطفال الأهالي الجزائريين.

وإلى جانب تحفيظ القرآن، يتلقى الأطفال في بعض هذه الكتاتيب الكبيرة

قواعد تلاوة القرآن وتجويده وترتيله على الروايات السبع والعشر ويحفظون بعض متون العلوم الفقهية والشرعية واللغوية مثل: ابن عاشر، والشاطبية، وألفية ابن مالك.

ويقبل الجزائريون جميعًا على إرسال أطفالهم إلى هذه الكتاتيب بدون تراخ حتى الذين لا يطبقون التعاليم الدينية لأن القرآن الكريم يمثل الرمز والعنوان لإسلام الجميع، والكل يحرصون على أن يظهروا مسلمين حتى ولو كان البعض لا يطبق مبادئه وأركانه، ولا يعمل بها.

ومعظم هذه الكتاتيب القرآنية في الجزائر، بسيطة المظهر والمبنى، قليلة الإمكانيات المادية، وأصحابها **(الطلبة)** و**(المشايخ)** من الطبقة الفقيرة جدًّا والكادحة يتصدون لتعليم القرآن في هذه الكتاتيب للحصول على لقمة العيش أساسًا، ويستعملون العصي، والأسواط، لتأديب الأطفال الشرسين، والبلهاء، والمنحرفين، والأغلبية منهم يحفظون القرآن دون فهمه، ويلقنونه كذلك للأطفال خاصة في الأرياف، ومن ضمن هذه الكتاتيب والمسيدات في حي القصبة وحده بالجزائر العاصمة حسبما أفادني بذلك الشيخ عبد الرحمن الجيلالي:

- مسيد برقيصة.
- مسيد سيدي بوقدور وضريحه.
- مسيد سيدي ابن علي وضريحه.
- مسيد الحمامات.
- مسيد حوانيت سيدي عبد الله.
- مسيد الدالية، واندثر حاليًا.
- مسيد جامع الزاوية (زاوية سيدي محمد الشريف الزهار).
- مسيد جامع سفير.

وبرغم المظهر المزري أحيانًا لهذه الكتاتيب القرآنية وفقر أصحابها، وبرغم الأساليب العتيقة المتخلفة التي كانت تطبق وتتبع داخلها، فإن دورها مهم جدًّا في المحافظة على القرآن الكريم، وعلى الطابع العربي الإسلامي للجزائر شكلًا ومحتوى، وفي مقاومة وإفشال سياسة التنصير والفرنسة.

4- والزوايا: عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، تشتمل على بيوت للصلاة كمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلامية، وأخرى لسكنى الطلبة، وطهي الطعام، وتخزين المواد الغذائية، والعلف، وإيواء الحيوانات التي تستغل في أعمال الزاوية.

ومؤسسو هذه الزوايا رجال دين متصوفون، متزهدون، بدأت حركتهم تظهر في المشرق الإسلامي منذ القرن 2 هـ على يد رابعة العدوية، ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي، وأبي القاسم الجنيد العراقي في القرن 3 هـ (9م)، والحلاج في القرن 4 هـ وأبي حامد الغزالي في القرن 5 هـ ومحي الدين بن عربي الأندلسي في القرن 7 هـ، وهكذا. ومن المشرق الإسلامي انتقل الزهد والتصوف إلى بلاد المغرب وانتشر بها أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث وكثرت الزوايا وانتشرت بشكل واسع ومكثف في القرن السابع عشر وما بعده، خاصة خلال الزحف الاستعماري الفرنسي في القرنين 19 ومطلع القرن العشرين.

وهي نـوعـان:

النوع الأول: نوع خلواتي يدعي شيوخها المعرفة بأسرار دينية غيبية خاصة، والقدرة على تلقينها لأتباعهم الذين يلقبونهم، (**بالمريدين**)، و(**الإخوان**)، و(**الفقراء**)، حسب اختلاف الجهات والمناطق، فيفرضون عليهم أذكارًا معينة يتلونها في خلوات خاصة معزولة ومظلمة لمدة محدودة حتى يفتح الله عليهم ثم يخرجونهم ليصبحوا (مريدين) حقيقيين، وبعد ذلك يفرضون عليهم أذكارًا عامة

تدعى **(الورد)**، يتلونها يوميًّا بصورة جماعية، غالبًا، بعد صلوات العصر، والمغرب، والصبح، وأحيانًا حتى بعد صلاة الظهر، وهذه الظاهرة، هي التي استوجبت تسمية شيوخ هذه الزوايا الخلواتية، **(بالطرقيين)** لأن لكل واحد منهم طريقة خاصة، ذات تقاليد وأشكال وأذكار، وأوراد معينة يفرضها على أتباعه من الفقراء والإخوان، والمريدين، وعلى سبيل المثال **(الحضرة)** لدى العلوية و**(حلقة البندير والأمواس)**، لدى العيساوية والعمارية.

وعندما تكون الزاوية ميسورة الحال من الناحية المادية – وذلك بغنى شيخها أو بكثرة الأوقاف التي حبست عليها، والصدقات التي ترد عليها من الأنصار والأتباع- ترتب التلاميذ والطلبة لتحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم العلوم الدينية، واللغوية خاصة الفقه والحديث والتوحيد وقواعد اللغة.

ويقوم شيخ الزاوية نفسه بمهمة التعليم إن كان مثقفًا، وفي حالة العكس يوظف من يقوم بالمهمة بدله، ويحمل نوابه ألقاب: **(المقدم)**، و**(الوكيل)**، و**(النقيب)**، و**(الرقيب)**، **(الخليفة)**، حسب اختلاف الجهات.

والنوع الثاني: غير خلواتي لا يدعى شيوخها معرفة أسرار دينية معينة، ولكن يتخذون لأتباعهم **(وردًا)** خاصًّا من الأذكار، يتلونها وراء الصلوات، ويتصدون لتعليم القرآن أساسًا للأطفال وتلاوته، ولتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية بأنفسهم إن كانوا مثقفين وبواسطة حفاظ القرآن الكريم، وبعض المثقفين الآخرين من أنصارهم وأتباعهم، ومن هنا يمكن اعتبار هذا الصنف من الزوايا بمثابة كتاتيب قرآنية، وكثيرًا ما يكون لهذه الزوايا بنوعيها، خاصة الخلواتية، فروع كثيرة داخل البلد وخارجه، فالتيجانية مثلًا لها فروع في معظم بلدان القارة الإفريقية وفي مصر والحجاز وبعض البلدان الأوروبية، وكذلك السنوسية والعلوية والرحمانية التي لها فروع في باريس وكارديف واليمن، والحجاز، والشمال الإفريقي، وأعماق

الصحراء، ومما تجدر ملاحظته أن البعض من شيوخ هذه الزوايا، وعددهم ليس بالقليل، أميون ولكن نفوذهم وتأثيرهم كبير جدًا في أتباعهم ومريديهم بما يفرضونه عليهم من أذكار، وأوراد، وتسابيح، وتقاليد، واستفادوا من المثقفين الذين ينضمون إلى صفوفهم في كتابة وتأليف كتب دينية في الزهد والتصوف وبعض أبواب الفقه بأسمائهم، ومن أمثلة ذلك الشيخ ابن عليوة صاحب الطريقة العلوية بمستغانم في النصف الأول من القرن الحالي، والشيخ الحداد مقدم الطريقة الرحمانية بصدوق في النصف الثاني من القرن الماضي.

- الشاذلية: 656 هـ (1258م)
- العيساوية: 938 هـ (1523 - 1524م)
- الكرزازية (الأحمدية): 1016 هـ (1608م)
- الشيخية: 1026 هـ (1615م)
- الطيبية: 1089 هـ (1678 - 1679م)
- الحنصالية: 1114 هـ (1702م)
- القادرية: 1125 هـ (1713م)
- الزيانية: (القندوسية): 1145 هـ (1733م)
- التيجانية: 1196 هـ (1781 - 1782م)
- الرحمانية: 1208 هـ (1793 - 1794م)
- السنوسية: 1250 هـ (1835م)

وكل زاوية من هذه الزوايا لها فروع كثيرة تحمل أسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ، والمقدمين، وقد أورد الضابط لويس رين للشاذلية وحدها إحدى وعشرين طريقة وزاوية فرعية لكل منها اسم خاص، وذلك في كتابه: المرابطون

والإخوان.

أهمية هذه الزوايا:

لعبت الزوايا الدينية، بمختلف أنواعها، أدوارًا كبيرة في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية، بل وحتى السياسية بالجزائر، وكل بلدان المغرب، أغلبها إيجابي، والبعض سلبي.

فمن الناحية الإيجابية:

1- اهتمت بتحفيظ القرآن، ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة، وعمقته بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وساعد ذلك على حمايته من النسيان والضياع والاندثار.

2- احتضنت اللغة والثقافة العربية الإسلامية ونشرتها بشكل واسع ومكثف، وفتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة وأنفقت عليهم بسخاء، وكان ذلك شكلًا من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة، وعملًا ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الاستعمارية تتبعها ضد الأهالي الجزائريين.

3- عملت على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع التي لم يصل إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية، كما فعلت التيجانية والسنوسية.

4- عملت على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الفئات الاجتماعية المختلفة، فقربت بين الأغنياء، والفقراء، والعلماء، والأميين، وشرفاء الأصل، وغيرهم، وصهرتهم في بوتقة واحدة وألفت بينهم جميعًا في إطار مفهوم الآية القرآنية الكريمة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ ومفهوم الأحاديث النبوية المختلفة مثل: «**المسلمون كأسنان المشط**» و«**لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى**»، وهذا الجانب له أهمية خاصة في تاريخ الزوايا بالجزائر، ومعظم البلاد الإسلامية.

5- لعبت دورًا بارزًا في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، وذلك بفضل مركز شيوخها، ومقدميها ووكلائها، فلعبت دور الحكم، وقللت من المشاكل بين الناس، وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي، وساعده ذلك على التفرغ لمقاومة السيطرة الأجنبية الاستعمارية.

6- كانت هذه الزوايا بمثابة مخازن، ودواوين، للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالعلم والتعليم والنسخ، والنقل، والتأليف، والجمع، غير أن معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة السيطرة الاستعمارية على الجزائر وبلدان المغرب الأخرى، وتعرض جزء هام من هذا التراث إلى التلف والضياع خلال مرحلة المقاومة للزحف الاستعماري الأوروبي في القرنين (19 و20) وخاصة في حرب التحرير الأخيرة (1954 - 1962) بالجزائر.

7- شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة سواء منها المحلية أو الاستعمارية. فحاربت الدرقاوية الولاة الأتراك المستبدين في شرق الجزائر وغربها، وحاربت الرحمانية والسنوسية الاستعمار الفرنسي في الجزائر وليبيا، وتصدى زعماؤها للمقاومة طيلة القرن (19) سواء وحدهم أو مع الزعماء السياسيين والعسكرين، وكنموذج لذلك: الأمير عبد القادر، وزعماء أولاد سيدي الشيخ، والحاج موسى الأغواطي، والشيخ الحداد، والشيخ بوعمامة.

8- بذلت هذه الزوايا جهودًا كبيرة وكثيفة في مقاومة الفرنسة والتنصير وعملت على حماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر بواسطة نشر الدين واللغة والثقافة العربية بمختلف الوسائل والسبل والإمكانيات، وفي كل الأوقات والظروف، وكان ذلك خيرًا وبركة على الجزائر وشعبها.

ومن الناحية السلبية:

1- اتبعت هذه الزوايا أساليب عتيقة ومناهج متخلفة وتمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة حتى لو كانت لا تتعارض مع التقاليد العربية الإسلامية. وكان هذا بمثابة تحجر إن لم نقل: إنه عناد وتحد، ومن هنا ساد التخلف الذهني والاجتماعي بين أتباعها الكثيرين إلا القليل منهم، وعمهم الركود والتقوقع.

2- انتشرت الدروشة والخرافات والأباطيل والبدع الدينية بين أتباعها بسبب ضيق أفقهم الفكري وعجزهم عن فهم التطورات القائمة والحركات الإصلاحية التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية حتى ولو لم تكن في المستوى المطلوب، وبالطبع فإن عزل الجزائر عن العالم العربي الإسلامي من طرف الاستعمار الفرنسي له دور في هذا التحجر.

3- احتدت الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا لأغراض شخصية حول النفوذ والمكانة الاجتماعية وحول بعض القضايا الدينية الهامشية التافهة وكان ذلك سببًا في قيام المشاحنات، والحزازات بين الأتباع كذلك. وفي بعض الأحيان كان للإرادة الاستعمارية دور بارز في خلق هذا الخلاف وإذكائه من أجل إشغال الأهالي الجزائريين عن فكرة الثورة والتحرير.

4- استسلم في القرن العشرين معظم زعماء وشيوخ الزوايا للإدارة الاستعمارية بعد أن أصابهم الإعياء والوهن، وتعاونوا معها وخدموها لأسباب ودوافع متنوعة: البعض للتقنية، والبعض للحصول على المال، أو الجاه أو السلطة والنفوذ.

5- **والمعمرات**: عبارة عن مؤسسات ثقافية لها شبه بالكتاتيب القرآنية أحيانًا وبالزوايا غير الخلواتية أحيانًا أخرى، وتنتشر في أرياف الجزائر وقراها الجبلية خاصة في منطقة جبال القبائل بالشرق الجزائري، ويحضر إليها التلاميذ والطلبة من كل

الجهات القريبة والبعيدة، وأحيانًا حتى خارج البلاد نفسها وينقطعون فيها لحفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله بصفة أساسية ولتلقي بعض العلوم والمعارف الأخرى الدينية واللغوية بالتبعية.

ويقومون بتسيير هذه المعمرات تسييرًا ذاتيًّا فيما يخص النظافة والصيانة، وطهي الطعام، وجلب المؤن الغذائية، والمياه، ورعي حيوانات المؤسسة، ويتداولون ذلك بصفة دورية منتظمة وديمقراطية وفي أعراف متداولة ومتعارف عليها من زمن بعيد.

وينقسم الطلبة والتلاميذ في هذه المعمرات إلى عدة طبقات حسب السن وحسب القدم والثقافة أهمها ثلاث:

- طبقة القدادشة (جمع قداش) وهم التلاميذ الصغار الذين يحضرون لحفظ القرآن الكريم فقط في بداية أمرهم.

- طبقة الطلبة الذين هم فوق القدادشة سنًّا وثقافة، وقدمًا، ويقومون بحفظ القرآن وتعلم بعض العلوم الدينية واللغوية، وتوكل إليهم مهمة الإشراف على القدادشة في تحفيظ القرآن والمشاكل اليومية المختلفة كالتغذية والمراجعة، والتنظيف، والنوم والاستيقاظ وغيرها.

- طبقة المقدمين والوكلاء، والشيوخ الكبار، وهي أعلى طبقة تتمتع بمزايا التوجيه للمؤسسة ماديًّا وفكريًّا ولها كامل الصلاحيات في علاج المشاكل، وتعفى من ممارسة الأعمال اليومية المرهقة والمتعبة، وغير اللائقة بمقامها.

يرأس المعمرة شيخ مسن يحمل لقب الشيخ ويساعده عدد من كبار الطلبة والمقدمين الثانويين والوكلاء وتؤدى الصلاة فيها بصورة جماعية، كما يتلى القرآن كذلك بصفة جماعية خاصة بعد صلوات: العصر، والمغرب، والصبح، ويدعونه **(بالحزب الراتب)** أي المرتب والمنتظم بصفة دائمة.

وقد لعبت هذه **(المعمرات)** دورًا بارزًا كذلك في تعليم القرآن وتحفيظه ونشره

وتعميمه بين الأجيال الإسلامية، وفي تعليم بعض العلوم الدينية واللغوية، ولو بصورة ثانوية في بعض الأحيان، واحتضنت الفقراء وآوت المساكين وقدمت لهم العون والمساعدات المجانية الممكنة ماديًّا وثقافيًّا، وساعدتهم على شق طريق الحياة إلى المستقبل، فتخرج فيها أجيال من المثقفين ارتبط البعض منهم بحركة النهضة الفكرية الإصلاحية في القرنين الماضي والحالي، وشاركوا في نشر العلم والثقافة بهذه البلاد وقاوموا الجهل والخمول والسيطرة الاستعمارية بأشكال مختلفة. ومن أمثلتهم الشيخ البشير الإبراهيمي.

ومن ضمن هذه المعمرات في منطقة بلاد القبائل:

- معمرة سيدي علي بن يحيى في بني كوفي.
- معمرة سيدي علي أبو موسى بالمعاتقة.
- معمرة سيدي عمر الشريف على ساحل دللس.
- معمرة سيدي عمر الحاج على ساحل دللس.
- معمرة سيدي منصور بالعزازقة.
- معمرة سيدي أحمد بن أدريس بعرش ايلولن بدائرة العزازقة.
- معمرة سيدي عبد الرحمن اليلولي.
- معمرة الشرفة بهلول قرب العزازقة.
- معمرة سيدي يحيى العيدلي ببني عيدل.
- معمرة سيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين.
- معمرة سيدي مخلوف بمزيته.
- معمرة سيدي أحمد أويحيى بأمالو في بني عيدل.
- معمرة فريحة ببني ورتلان.

- معمرة شلاطة بيلولة أومالو (لابن علي الشريف).
- معمرة العراش للشيخ محمد أمزيان بن الموهوب.
- معمرة زرعة بأولاد حالة.
- معمرة تفرق بجبال تفرق.
- معمرة الجعافرة ببني عيدل (وكانت لوالدي الشيخ عبد الرحمن رحمه الله).

المصادر المالية لهذه المؤسسات الدينية

تعتمد هذه المؤسسات الدينية من الناحية الاقتصادية على مصدرين مهمين ورئيسيين:

المصدر الأول:

الإعانات التي يقدمها لها المحسنون من الأثرياء في شكل نقود، وبضائع، ومواد غذائية (حبوب وزيوت)، وحيوانات، وأدوات، وألبسة، ومفروشات وغيرها، وذلك بصفة دورية.

المصدر الثاني:

أموال الحبس والأوقاف الإسلامية التي يوقفها عليها الأشخاص والهيئات الخيرية والجماعات، وبعض الولاة، والأمراء، وتتنوع إلى أراض زراعية، وحقول للأشجار المثمرة والغلال، كالزيتون والتين والخروب، والحيوانات الحلوبة، والمحلات التجارية، والحمامات المعدنية بالأرياف، وغير المعدنية في المدن، تدر عليها الأموال اللازمة للصرف على احتياجاتها المختلفة كالتغذية والإنارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة والإنفاق على طلبة العلم والعلماء، والفقراء وإجراء الإصلاحات المطلوبة للمؤسسة.

وتنفرد الزوايا **بمصدر ثالث** يتمثل في أموال الزيارات والوعادى (جمع

وعدة)، التي يقدمها إليها زوارها من الإخوان والأتباع والمريدين والمحبين، على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة تختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب اختلاف أهمية الزائرين ومصادر أموالهم وثرواتهم، ومدى حبهم وتقديرهم للزاوية وشيخها.

وكثيرًا ما تؤلف هذه المعمرات والزوايا، وفودًا من طلبتها وتلاميذها والمشرفين عليها ليخرجوا إلى الأقاليم البعيدة لجمع أموال الصدقات والزيارات والزكوات في مواسم معينة مثل موسم جني الزيت والزيتون في الشتاء، وموسم جني الحبوب في الصيف، وموسم الحيوانات ولحم القديد، والزبدة في الربيع، وموسم الزكاة في عاشوراء محرم الحرام.

وبفضل هذه الأموال والصدقات المتنوعة، تتولى هذه المؤسسات، وخاصة الزوايا والمعمرات، الإنفاق على طلبة العلم وحفاظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها من الوكلاء والمقدمين والمؤذنين والأئمة والمشايخ، وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

ويمكن إيراد نموذج لأملاك هذه الزوايا والمعمرات بأملاك زاوية الحداد في صدوق، وزاوية كرزاز في الجنوب الوهراني.

أملاك زاوية الحداد بصدوق:

كانت زاوية الحداد تنفق على ما بين 200 و500 طالب بصفة دائمة ويعد زوارها بالآلاف كل سنة وتبلغ مساحة أملاكها العقارية 502 هكتار و52 آرًا، و5 صانتيارات، وتحتوي على الأملاك التالية:

62 ضيعة فلاحية للحبوب، والغلال البعلية خاصة التين والزيتون.

6 بساتين مسقية للخضر والفواكه والغلال.

14528 شجرة مثمرة أغلبها زيتون والباقي تين وبرتقال وتفاح واجاص ورمان وبرقوق.

6 أحواش تحتوي على 41 غرفة وبيتًا.

15 دكانًا ومخزنًا للتجارة.

3 اصطبلات.

3 رحاوات.

معصرة زيتون واحدة.

مسجد واحد.

أملاك زاوية كرزاز:

2270 رأس غنم.

393 معزة.

340 جملًا.

73 حمارًا.

19 حصانًا.

396 عبدًا زنجيًا ذكورًا وإناثًا (عبيد للخدمة).

10 نخلات (أشجار مثمرة).

8 بنادق (أسلحة للدفاع).

موقف الاستعمار الفرنسي من هذه المؤسسات الدينية:

تعرضت المؤسسات الدينية بالجزائر لمحاربة شديدة طيلة الفترة الاستعمارية بمختلف الوسائل والأساليب والأشكال لأنها كانت تمثل عائقًا صلبًا وشديدًا ضد السيطرة الاستعمارية وسياسة الفرنسة والتنصير والتجهيل.

فالمساجد هدم الكثير منها وحول الباقي إلى كنائس وثكنات واصطبلات ومستوصفات ومراكز إدارية، وأغلق البعض منها. فمدينة الجزائر مثلًا كان بها 166 مسجدًا وزاوية غداة الاحتلال الفرنسي لها عام (1830) ولم يبق منها إلا بضعة مساجد لا تصل حتى إلى عشرة.

وحورب الأئمة وشيوخ الزوايا، ووضع حد لنشاطهم الديني والثقافي، وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة ونفي الكثير منهم وشردوا إلى مناطق نائية داخل البلد، وخارجه، وأرغم البعض على الاشتغال بالجوسسة لصالح الشرطة الفرنسية، وتم إغلاق الكثير من الزوايا وتهديم البعض منها خاصة التي شاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

والكتاتيب القرآنية والمعمرات أغلق الكثير منها بدعوى عدم وجود رخصة لها من إدارات الشرطة واستهدف رجالها للملاحقات القضائية والمتابعات القمعية من طرف الشرطة والضباط العسكريين ومصالح المخابرات السرية، وشردوا وأبعدوا.

وصادرت الإدارة الاستعمارية كل أملاك الأوقاف والحبس الإسلامية التي تمون هذه المؤسسات خاصة الأراضي الزراعية والمتاجر، وحرمت تدريس أبواب الجهاد من الفقه الإسلامي ومنعت تدريس تاريخ الجزائر الوطني وجغرافيتها، وراقبت الكتب التي تقتنيها وتستعملها، وشددت في منع استعمال السبورة والطباشير حتى يبقى التعليم تقليديًا متخلفًا، وألزمت الكثير من رجال هذه المؤسسات على التقدم إلى إدارات الشرطة بصفة دورية لبحثهم وتعرف نشاطهم، ومنعت الكثير منهم من أداء واجبهم الثقافي والاجتماعي، وسجنتهم، ونفتهم إلى جهات كثيرة داخل البلد وخارجه.

ومع ذلك فإن هذه المؤسسات قاومت وصمدت وواصلت رسالتها بجد ونشاط، بل وبعناد في كثير من الأحيان بفضل تأييد الشعب لها وإنفاقه بسخاء على

نشاطات رجالها وطلبتها، وتلاميذها، فكثر بناء المساجد والمدارس والكتاتيب، وكثر ظهور الزوايا الجديدة، وبالغ الشعب في إكرام رجالها والإنفاق على مشاريعهم الدينية والثقافية والاجتماعية كأسلوب من أساليب مقاومة السيطرة الاستعمارية.

ولعل أبرز دور لهذه المؤسسات الدينية بصورة عامة هو حمايتها للغة والثقافة العربية ومقاومتها الشديدة لسياسة الفرنسة والتنصير، وتمسكها الشديد بحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر وهو مكسب وطني هائل عاد بالنفع على المقاومة الوطنية خلال معارك التحرير المختلفة وخاصة ثورة نوفمبر (1954 - 1962).

حالة هذه المؤسسات في عهد الاستقلال الوطني:

بعد استعادة الجزائر لاستقلالها الوطني عام (1962) استعاد المسجد دوره ومركزه بفضل رعاية الدولة، وإقبال المواطنين على دعمه بالبناء والتشييد والإصلاح، وذلك في إطار السعي لإعادة الوجه العربي الإسلامي إلى هذه البلاد كما كان سابقًا.

وتحاول الإطارات الدينية أن تشرك المسجد في عمليات محو الأمية ورفع الوعي الديني والاجتماعي، والسياسي للسكان، ولكن الذي يعوق رسالة المسجد حاليًا هو ضعف الإطارات الدينية من ناحية التكوين الثقافي، وتحاول وزارة الشؤون الدينية أن تواجه هذا الضعف بالاهتمام بالتكوين عن طريق الإكثار من معاهد التكوين والجامعات الإسلامية والملتقيات الفكرية الإسلامية وما تزال النتائج المطلوبة والمرجوة بعيدة، ومحدودة.

أما باقي المؤسسات الأخرى فقد تعرضت لهزات كثيرة وتواجه حاليًا ضعفًا وانهيارًا في مركزها وسمعتها وأنشطتها وذلك لثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: اتجاه الأجيال الصاعدة بصفة جماعية إلى التعليم الرسمي الذي يفتح

أمامهم سبل المستقبل ويساعدهم على الرقي والتطور الاجتماعي والسياسي.

الثاني: تعثر الإصلاحات التي أدخلت على أوضاع الإطارات الدينية ماديًا وثقافيًّا، وضيق أفق العمل والتطور في هذا الميدان، والتباطؤ في إنجاز مشاريع الجامعات والمعاهد الإسلامية التي تسمح بتكوين إطارات دينية كفئةوواعية بمسؤولياتها، وواجباتها، وضعف البرامج التربوية التي كانت تطبق في المعاهد الدينية السابقة التي أنجزت في عقدي الستينات والسبعينات. وذلك من الأسباب التي نفرت الشباب من الالتحاق بهذه المؤسسات والارتباط بها؛ فقلّ الإقبال على الزوايا والكتاتيب القرآنية والمعمرات واضطر الكثير منها إلى غلق أبوابها، والذي بقي أصبح ملجأ لمن فاتهم الركب وسدت في وجوههم أبواب مؤسسات التعليم الرسمية بسبب كبر السن أو عوائق أخرى.

الثالث: يخص الزوايا وحدها، وهو تمسكها بالطرق والثقافة التقليدية المختلفة، واحتضانها لمظاهر الدروشة والركود التي تعوق الفكر الذهني عن الاستيقاظ والتطور، وتعاون البعض منها مع الإدارة الاستعمارية في العهد الاستعماري، فانحطت سمعتها وتزعزع مركزها الديني والاجتماعي وصارت الجماهير الشعبية تنظر إليها نظرة ازدراء واستخفاف ولربما احتقار. فخبا نشاطها وتوقف وأصبحت تتعرض بصفة تدريجية للموت البطيء حتى لم يبق منها اليوم سوى هياكلها وأسمائها، واتضح بعد الاستقلال كذلك أن المعمرات تجاوزها الزمن في أسلوب الحياة والتعليم والبرامج، ومحتوياتها، وجاء قرار تأميم المدارس الخاصة عام (1976) ليضع حدًّا نهائيًّا لها ولنشاطاتها المختلفة التربوية والاجتماعية، والحقيقة أن القضاء على النشاط الثقافي للزوايا والمعمرات والكتاتيب القرآنية كانت له انعكاسات وتأثيرات سلبية، وأصبح الجميع يشعر بحدة المشكل خاصة وزارة الشؤون الدينية وإطاراتها.

ذلك أنه لوحظ عدم الإقبال على حفظ القرآن الكريم والعلوم الدينية، ونشأ فراغ ديني واسع شعرت الإطارات الدينية بخطورته خاصة بعد أن لوحظ تزايد الآفات والانحرافات الاجتماعية التي لم يكن للشعب الجزائري عهد بها قبل ثورة نوفمبر التحريرية الأخيرة.

إن المؤسسات الدينية الآنفة الذكر رغم عيوبها ومشاكلها السلبية بالنسبة للوقت الحاضر، لها دور تاريخي مهم في السابق، وبدلًا من إهمالها وتشجيع القضاء عليها ينبغي دعمها بإدخال إصلاحات جذرية في أساليب الحياة والبرامج التعليمية ومحتوياتها، وبالدعم المادي لها حتى تشارك في تطوير البلاد وتنوير الأجيال.

وقد أذنت وزارة الشؤون عام (1979) بإحياء وتجديد الكتاتيب القرآنية ورعايتها وتقديم العون لأصحابها حتى يؤدوا دورهم المطلوب، كما أذنت بإنشاء الجمعيات الدينية لتشارك هي الأخرى في المعركة الثقافية والاجتماعية. والمؤمل أن يسمح للكثير من المعمرات والزوايا بتجديد نشاطاتها الثقافية والاجتماعية في إطار اختيارات البلاد.

بقيت هناك ملاحظة أخيرة ينبغي إلفات النظر إليها وهي ضرورة إعادة النظر في كيفية معالجة الشؤون والقضايا الدينية الإسلامية. ذلك أن كثيرًا من الدراسات تاهت في جوانب هامشية خاصة الروحية منها ولو أنها قضايا لا يمكن إنكارها.

حقيقة كان هناك اهتمام واضح لتعريف المسيحيين بكل جوانب الفكر والقضايا الإسلامية، ولكن التركيز على ما يمكن تسميته بالصورة المشوهة أساء للعلاقة بين المجتمعين: الإسلامي والمسيحي، وعمق الهوة بينهما.

وبكل تأكيد فإن الكثيرين من الباحثين المستشرقين حاولوا أن يكونوا نزهاء ولم يقصدوا إبراز مثل هذه الصورة المشوهة، ولكن بعض بحوثهم انتهت إلى هذه النتيجة، إما بسبب التسرع في البحث وإصدار الأحكام، أو الاعتماد على مصادر غير

أمينة ونزيهة، أو عدم الاستيعاب للمعارف الإسلامية بالقدر الكافي.

ولعل من أسباب هذا الاتجاه لبعض الدراسات الاستشراقية هو إنجازها في الفترة التي كانت فيها المجتمعات الإسلامية متخلفة وراكدة، وتصورها للقضايا انطلاقًا من ذلك الواقع المتخلف وليس من حقيقة الإسلام الأساسية. ويمكن أن نضيف إلى هذا، الفترة الاستعمارية التي لها دخل في ذلك التصور الخاطئ، ولكن زوالها يستوجب إعادة النظر فيها أنجز خلالها على غير حقيقته في هذا الميدان.

❑❑❑

بيبلوغرافية مصادر البحث

أ - بالعربية:

بروكلمان (كارل):

تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة فارس (نبيه أمين) البعلبعكي (منير). (دار العلم للملايين. بيروت 1974) ص (901).

بو عزيز يحيى:

أ - ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد، مجلة الأصالة، عدد 2 الجزائر - ماي (1971) ص (22 - 29).

ب - الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثورة (1871)، الأصالة عدد (14 - 15). الجزائر ماي جوان جويلية (1973). ص (161 - 172).

جـ - ثورة (1871) دور عائلتي المقراني والحداد. الجزائر (1978) ص (471).

الحفناوي (أبو القاسم محمد):

تعريف الخلف برجال السلف (الجزائر - مطبعة فونتانة 1906) 2 أ جـ. ص (207 + 250).

ابن زكري (محمد السعيد بن أحمد):

أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل (الجزائر - مطبعة فونتانة - 1913 ع 1321 هـ) 127 ص.

ستودار (لوثروب):

حاضر العالم الإسلامي. ترجمة نويهض (عجاج) وتعليق - أرسلان (شكيب). (بيروت - 1971) جـ 2. م 2. ص (400).

الغبريني (أبو العباس أحمد بن عبد الله):

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببيجاية. تحقيق وتعليق ابن أبي شنب (محمد) (الجزائر - المطبعة الثعالبية) 1328 هـ - (1910م) ص (226 + 8).

ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد):

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تحقيق وتعليق ابن أبي شنب (محمد). (الجزائر. المطبعة الثعالبية - 1326هـ - 1908م) ص (315 + 65).

محمد (الأمير):

تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. 2 أ جـ. ط. أ. (الإسكندرية 1903) ص (314 + 313).

الورتلاني (الحسن بن محمد):

نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية. تحقيق ابن أبي شنب (محمد) (الجزائر مطبعة فونتانة - 1908م - 1326هـ) ص (819).

ب - الأرشيفات:

- أرشيف ولاية وهران. يوجد به ملف خاص عن الزوايا.

- أرشيف ما وراء البحر بجامعة أيكس AIXE به مجموعة م الملفات أهمها:

- 16 hl: confrerie.

- 16 h 2: confrerie des tidjaniyas.

- 16 h 2 (2): confrerie des tidjaniyas.

- 16 h 3: autres confreries.

- 8 x 222: notes sur les confreries de l'arrondissement de batna.

جـ - المصادر الأجنبية: الفرنسية:

ALBERT (P):

La Zaouia de Kerzaz. Bui. sac. G.ARCH. d'Oran, (ORAN - 1906)

T.XXVI. pp. 475 -490.

ARNAUD (L):

Histoire du Ouali sid Ahmed el Tidjani R.A (Alger. 1861) pp. 468 - 478. (1864) pp. 354 - 371, ei 435 - 453.

Au capilaine (BARON HENRI):

La Zaouia de Chellata. excursxions chez !es zouaona de la haut - kabyle (Geneve - 1860) 26 p.

AZZIZ (SI):

Insurrection de 1871 MtSmoire d'un Accusee Si AZZIZ BEN MOHAMED AMZ1AN BEN CHEIKH EL HADDAD a ses juges el ses defenseurs. Traduit par Merrier (ERNEST). (Constantino Marl 1873) 202 P.

BEL (ALFRED):

A- Coup d'Oeil sur l'islam en berberie. R.H.R (Janvier 1917) 74 P.

B- Hitoire d'un sait musulman vivant a MEKNES R.H.R (Paris 1917).

C- Sidi Bou Medyane et son raaitre ED-DAGGAG a FES (Paris - 1923) MELANGE. R. BASSET) TI.

D- L'islam Mystique; a les confreries B - Les saints. R.A (ALGER - 1927) pp 329 - 372. (1928) pp.

E- Le Sufisme en Occident musulman au XIle et XIII siecle, annales de la faculte des lettres d'alger (Paris 1935).

F- La religion musulman en BERBfRIE. Esquissc d'histoire et de socioiogie religieuse.

T.I; Etablisement et Developpement de l'islam en Ber^berie du VII Au XX siecle (Paris- 1938-411 p.)

BASSET (RENE):

A- La Connaissance de I'Islam au moyen age B.H.R (Paris1907) pp. 83 -96.

B- Recherches sur la Religion des Berberes. R.H.R (Paris - 1910) pp. 291 -342.

BEN MBARK (SALLEM):

Les Derqouas. Traduit par DELAY. BUL SOC. G Maroc (Casablanca - 1916 N° 9. pp. 5 - 9.

BERQUE (A):

A- Essai d'une Bibliographic Critique des Confreries Muslumanes Algerienne BUL.SOC. G. ARCH. D'ORAN. (ORAN- 1918) pp. 135 - 174 et 193 - 233.

B- Un Mystique Moderniste Le Cheikh Ben Alioua.

BINGER (L.G.):

Le Peril de L'Islam. (Paris - 1906) 120 p.

BODIN (MARCEL):

A- Notes et Question sur SIDI AHMED BEN YOUCEF R.A (ALGER 1925) pp. 175 - 189.

B- Notes sur SIDI M'HAMED BEN CHAA Patron des Beni Zerouald'Alger But, SOC. G ARCH D'ORAN (Oran 1930) pp. 73 - 79.

C- La Zaouia de Tamegrot. (Paris - 1938) 37 p.

BONET - MAUHY

L'Islamisme et le Christianisme en Afrique du Nord; (Paris 1906) 299 p.

BOU - KABOUYA (LTEL - HADJ):

A- L'Islam dans l'Arm.ee francaise (guerre 1914 - 1915) (comstanfinable - 1915) 40 p.

B- Les Musulman d'Afrique du Nord et le Djihad (I'islam dans l'armee Francaise 2° fasdculte). (1'ausanne 1917) 75 p.

BOUSQUET (C.H):

A- Notes sur deux aspects conteraporaines du culte des saints chez les musulmans R.A. (Alger 1936) 10 p.

B- L'lslam Maghrebin (Alger 1954) 244 p.

C- Les grandes pratique rituelles de l'lslam; (Paris P.U.P 1957) 120 p.

BREMOND (D.I):

Questions musulmanes au point du vue Francais (Paris 1924) 94 p.

BROSSELARD (CH):

A- Les Khouan de la constitution des Ordres Religieux musulmans En Algerie (Alger - 1862) 36 p.

B- Les Inscriptions Arabes de Tlemeen. R.A. (Alger - 1859) pp. 1 - 17, et 81 - 93, 161 -174, 241 -258, 321 -331.

BRUZON (P):

Les Confreries Muslmans Nord africaines orient et Occident 1929 T 11. pp 322 -344.

Castrie (Le comte HENRI DE):

A- L'Islam Impressions et Etudes (Paris1896) 1 vol. 359 p.

B- Une Apologie de l'islam par un sultan du Maroc. R.H.R. (Paris 1903) T 42 PP 174 – 205.

CAT (E):

L'islame et les confreries religieuses au Maroc R.D.M T. Cxlix (15 Sept 1898) pp 380 – 381.

CAZENAVE (Jean):

Un Grand Saint musulman d'Oran SIDI MOHAMED EL HAOUART. A.N.ILLU (6/MARS/ 1926).

CHATELIER (LE):

A- Les confreries musulman du HEDJAZ (Paris – 1887) IX – 310 p.

B- L'Islam dans l'Afrique occidental Francaise (Paris 1899).

C- L'Islam au XIXe Siecle (Paris – 1888)

COLAS:

Notice sur les Ordres Religieux de la Division d'Oran 1883).

Coppolani (XAVIER) et depont (OCTAVE):

A- La Confrerie Religieuse Musulmane de SIDI AMMAR BOU SENNA ou l'AMMARIA (ALGER 1894) 53 p.

B- Les Confrerie Religieuses Musulmans (ALGER 1897). XXVIII + 577 p.

DE PONT (OCTAVE):

Les Confreries – Musulmans. R.A (1903) T.xlv. PP. 385 – 406.

COUR (A):

Recherches sur l'Etat des Confreries Religieuses Musulmans dans les communes de: GfM EL DOUAGHI, AIN BEIDA, SEDRATA, SOUK AHRAS, MORSOTT, TEBESSA, MESKIANA, KHENCHELA, EN Novembre 1914. R.A (1821) pp. 85 - 139, 291-334.

DFXPECHE (ADRIEN):

A- La ZAOUIA de SIDI ALI MOUSSA ou ALI NTOUNAS (DE LA VACHE) R.A. (1874) pp. 80 - 88.

B- Resume Histocique sur le soulevement des DERKAOUA Dans la province d'Oran. R.A (1874). pp 38 - 58.

C- Diplome de MOKEDDEN. R.A (1874) pp. 418 - 429.

DERMENGHEM (EMILE):

A - Le cuke des saints dans l'islam Maghrebin. GALLIMARD 1924 - PARIS - 1956) 351 p.

B - La vie de Mohamed (Paris - 1929).

C - Vie des Saints Musulmans (Alger 1942) 319 p.

DESTAING:

Un saint musulmans au XVe siecle SIDI M'HAMED EL HAOUARI. J.A (Paris Sept. Oct. 1906) pp. 295 - 343 (NOV dec 1906) pp. 385 - 439.

DOUTTE (EDMOND):

A- Notes sur l'islam Maghrebin. Les marabouts. R.H.R.T 40 (Paris 1899) pp. 343 - 369. T 41 (Paris 1900) R.H.R pp. 22 - 66 et 290 - 336

B- Les Aissaoua a Tlemcen (Chalons sur marne 1900) 181 p.

D- La societd musulmane de maghreb - Magie et religion dans l'afrique du nord (ALGER 1909) 617 p.

DOZI (REINHAR):

Essai sur l'Histoire de l'Islamisme (AMSTERDAM 1966) VII + 536 p (Reppod de l'ed. original de la trad de Chauvin. Leyue Brill (1879).

DUVERIER (HENRI):

La confrerie musulmane de SIDI MOHAMED BEN ALI ESSENOUSSI ET son DOMAIN geographique en l'annie 1300 de l'Hegire - 1884 de notre ERE; BUL SOC. G. Paris (Paris 1884) pp. 145.

ESTERHAZY (WALSIN):

Les Congregatims Religieuses chez les Arabes et la conqu&er de l'Afrique 226 du Nord . (Paris - 1887) IX - 12 p.

- Etude sur l'Algerie au point du vue de la fusion des rages. (Cabinet d'Abines -1869). A.N.P Carton F 80 - 1681.

GARROT (HENRI):

Histoire General de l'AIgerie (Alger - 1910) 1189 p.

GOLDZIHER (DR. IGNAZ):

A- Le Culte des Saints chez les Musulmans R.H.R (Paris1880)

B- Le Rosaire dans I'Islam R.H.R (1890) T.21pp295 - 300.

C- Glanures Paiennes dans I'Islam (1891) p. 23 pp. 201 - 204.

D- Islamisme et Parsisme R.H.R. (1901) pp. 1 - 29.

E- Le Dogme et la Loi de l'Islam, histoire du developpement dogmatique et juridique de la religion musulmane. Trad de Arin (FELIX) (Paris 1920) 315 p.

GUERN1ER (EUGENE):

La barbe'rie l'Islam et 1'Afrique. 2 tome (Paris 1950) 413 + 394 p.

HANOTEAU (A) et LETOURNEUX (A):

La kabylie et les oitume khabyles ler Ed. 1872 - 1873. 2eme Ed 1893. 3 vol + 560 + 565 p.

Joly (A):

A- Etude sur les chadouliyas R.A (1906) pp. 336 - 347.

B- La legende de SID1 ALI BEN MALEK sa posterite. R.A (1908) pp. 74 -85.

C- SAINTS de l'Islam R.A (1908) pp. 171 - 181.

KIVA (PSEUD du LT. colonel WACHI):

Notes sur la Religion Musulmane en Algerie tire du spect. Milit. (Parisl 890) 24 p.

LACROIX (Commandant N.):

Les derquana d'hier et d'Aujourd' huit . Essai historique (Seuments sur la nord ouest afnicain (Alger - 1902) 34 p.

LABATUT (A):

De la Confrerie des Senoussia Bui. Soc. G.A. (ALGER - 1911) pp. 6881.

LEHURAUX (L):

Islam et Christianisme en Algfcrie (Alger - 1949) 199 p.

LOMON (C):

Islam Saharien. N.R. (1903) T.X. pp. 123 - 126.

LUC1ANI (J.D):

A Propos de la Traduction de la Senoussia R.A (1898) pp. 376 - 388.

MAR1AL (W):

La Mosquee de SIDI MOHAMED EL KEBIR a Oran BUL.SOC. G. Arch ORAN (ORAN 1893) pp. 153 – 1.

MASSIGNON (LOUIS):

Essai sur les Origines du Lexique Technique de la Mystique musulmane (Paris1922)

MATHIEU (A):

Etudes Algeriennes les Races et les Religions (Lyon - 1894) 40 p.

MAUNIER:

Les Confreries et le Pouvoire Francais dans la Afrique Barbaresque (1460 - 1793) (Paris - 1923).

MERCIER (ERNEST):

A- Etudes sur la Confrerie des Khouan de sidi Abdelkader el Djillali a propos d'un catechisme a 1'usage de laditS sect R.N.M. SOC. ARCH. C. (ALGER - 1869) pp. 409 -451.

B- Les Ribats et les Marabouts dans 1'Afrique du Nord.

R.N.M. SOC. ARCH. C (ALCER - 1900) pp. 147 - 176.

C- La verite sur les Khouans d'Algdrie. BUL. R, ETU. A (ALGER - 1900) p. 96.

MICHAUX - BELLAIRE (DE):

Essai sur l'Histoire des Confrerie Marocaine (HESPERIS. T.I. 1921) pp. 141 -159. MOKRANI BOUMEZRAG EL - ou Emnougui et KATRAN DJI ABDE RRAHMAN: L'lslam dans la Armee Fran9aise. RGpiique a des mensonges (S.L.N.D) 49 - 59.

MONTET (EDOL'ARD):

A- Les Missions Musulmans R.H.R.T. 11 (1884) pp. 251 - 285.

B- Les Confreries Religieuses de l'lslam Marocain R.H.R (1902) T. 45 pp. 1 - 35.

C- L'lslam. (Paris -1921) 160 p.

NEVKN (E.DE):

Les Khouan. Ordres religieux chez tes musimans de l'Algerie 2e Ed. (Paris -1846) PP- 197.

NOEL (Le capitaine A.H):

Documents Historique sur les Tribus de]'annexe d'EL ARICHA. BUL. SOC. C. ARCH. Oran (Oran - 1917) pp. 223 - 290 (1918) pp. 5 - 56, 101 -12 (1919) pp. 5 - 48, 97, 134.

PETET (P.P LOUIS):

Les Confreries Musulmans (Paris1902)

POMMEROL (J. MMe):

Islam Saharien chez eux qui Guettent (Paris - 1902) 370 p.

RINN (LOUIS)

A- MARABOUTS et KHOUANS. Etude sur l'Islam en Algerie (Alger 1884) XIII + 552 p.

B- Histoire dc l'Insurrection de 1871 en Algerie (Alger 1891) 690 p.

ROBERT (ACHILLE):

Etude sur les Serments des Indigenes d'Alger. R.M.S.A.C (Constantine 1919) pp. 465 - 505.

ROUCHE (LEON):

32 ans a travers l'islam (1832 - 1864) 2 T (Paris - 1885) 508 + 503 p.

ROUQETTE (LABBE):

Les Societes Secretes ches les Muslmans (la society des missions africaines de Lyon) (Paris - Lyon - 1899).

SALMON (G):

Confreries et ZAOU'iA dc tanger. ARCHIVES MAROCAINES. T.2 (Paris -1905) pp. 101 - 158.

SERVIER (ANDRE):

L'Islam et la Psycologie du Musulman (Paris - 1924) 478 p.

SIMIAN (MARCEL):

Les Confreries Islamique en Algerie. RHMANIA - TIDJANIA (ALGER - 1910) 95 p.

SPILLMANN (G):

La Zaouia de Tamegrout. B.A.A F. (Paris - 1938).

TRUMELET (LT. Colonel 6rneiUe):

A- Les Saints de l'Islam. Legendes Hagiographiques et Creyances Algenennes. Les saints du telle (Paris 1881) LWWIX + 442 p.

B- Les problemes religieux de CHEIKH Mihiar R.A (1890) T, 34.

C- L'Algerie legendaire en pelerinage 5a et la aux tombeuaux des principaux Thaumaturge de l'islam (Tell et sahar) (Alger 1892) 502 p.



TABLE DES ABREVIATIONS

EMPLOYEES POUR DESIGNER LES PERIODIQUES

A.N.ILLU: afrique du nord illustrie.

A.N.P: archives national de paris.

A.O.M: archives d'outre mer (aix en province).

BUL. C.A.F: bulletin du comniite de 1'afrique frangaise.

BUL. SOC. G.A: bulletin de la sociele de geographie D'Alger.

BUL. SOC. G.

ARCHo: bulletin de la societe de geographie et d'archeologie d'Oran.

BUL. SOC. G. P: bulletin de la societe de geographie de Paris.

BUL. R.ETU.A: bulletin de la revue de l'etude d'Alger.

J.A: journal Asiatique.

R.A: revue Africaine.

R.H.R: revue d'histoire religieuse.

R.M.M: revue du monde musulman.

R.N.M. SOC. Recueil des notices et memoire de la societs

ARCH. C: d'archeotogie. de canstantine.

R.D.M: revue des deux monde.

R.E.I.: revue des etudes islarnique.

❑❑❑

المقاومة المسلحة في جبال الونشريس وزكار، والظهرة، وحوض الشلف ضد الاستعمار الفرنسي (1840 - 1864م)[1]

تمهيـــد

الموقــع الجغــرافي:

تحتل هذه المنطقة جزءًا من الجزائر الوسطى والغربية، وتتألف من أقاليم جغرافية متباينة من حيث التضاريس، والمناخ، والنباتات، والإمكانيات الاقتصادية، وتمتد امتدادًا عرضيًّا من الشرق إلى الغرب.

ففي الشمال على ساحل البحر، تقع كتلة جبال زكار والظهرة، من الأطلس البليدي شرقًا إلى ما وراء مصب نهر الشلف غربا، على عتبة مدينة مستغانم، وتغطيها أشجار البحر المتوسط الدائمة الخضرة، والمتنوعة، وتتخللها حقول الكروم، والكرز، ومختلف الأشجار المثمرة الأخرى بفضل ارتفاع نسبة الرطوبة بها لمجاورتها للبحر.

وإلى الجنوب من كتلة زكار والظهرة يمتد حوض الشلف الرسوبي على طول حوالي مائتي كلم تقريبًا من مليانة شرقًا إلى غليزان غربًا. وتألف هذا الحوض من رواسب المجاري المائية التي تنزل إليه من مرتفعات زكار، والظهرة شمالًا، والونشريس جنوبًا، والأطلس التيطري، والبليدي شرقا. ويمثل منطقة زراعية

---

(1) أعددنا هذا الموضوع لملتقى الفكر الإسلامي بمدينة الشلف عام (1980م) وانعقد في قصر الأمم بالجزائر العاصمة.

نموذجية حاليًا بفضل خصوبة تربته، وتنوع مزروعاته، واعتماده على السقي، والوسائل العصرية المختلفة..

وإلى الجنوب من هذا الحوض تقع كتلة جبال الونشريس التي تمتد ما بين الأطلسين: التيطري والبليدي شرقا، وجبال فرندة وبني شقران غربا. وتحدها من الجنوب هضبة السرسو، ويحوط بها من الشمال والشرق مجرى نهر الشلف ووادي الطويل، ومن الغرب مجرى وادي مينا الذي يفصلها عن جبال فرندة وبني شقران وتكاد منابع وادي الطويل (الشلف)، ووادي مينا، تلتقي في جنوبها لتحيط بها تمامًا.

يصل ارتفاع الونشريس إلى حوالي 1985 مترًا، عن مستوى سطح البحر. وتقطعها أودية كثيرة تمثل روافد لنهر الشلف، ولذلك تظهر عليها آثار التقطيع والتعرية المائية، خاصة في سفوحها الشمالية. مناخها قاري شديد البرودة، كثير الثلوج في الشتاء، شديد الحرارة والجفاف في الصيف، غطاؤها النباتي خفيف، وإمكانياتها الاقتصادية الفلاحية والحيوانية محدودة. ويمثل حوض الشلف وسيلة الاتصال المهمة بين الجزائر الوسطى والغربية، ويمثل مجرى وادي مينا (أو فتحة تيارت)، وسيلة الاتصال المهمة بين الشمال والجنوب عبر السفوح الغربية لجبال الونشريس.

أحداث هذه المنطقة:

شهدت هذه المنطقة بأقاليمها المختلفة، أحداثًا كثيرة خلال الاحتلال الفرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين. وخاض السكان بها معارك وحروبًا، وقادوا عدة ثورات أهمها: ثورة بو معزة، وثورة فليتة، وثورة بني مناصر، وأحداث ثورة نوفمبر (1954م) المظفرة. وسنتعرض لها في الدراسة، حسبما يسمح به الوقت.

أ - مقاومة فليتة وثورة بو معزة:

كانت هذه المنطقة تابعة للأمير عبد القادر بمقتضى معاهدتي: دي ميشيل عام

(1834م)، وتافنة عام (1837م)، فاتخذ مليانة عاصمة لإحدى ولاياته في جبال زكار شرق الظهرة، وأنشأ بها مصنعًا للسلاح، وقاعدة لقواته العسكرية. واتخذ تاكدمت في السفوح الجنوبية الغربية للونشريس غرب تيارت مركزًا لإدارته، ونشاطه العسكري. واتخذ المدية في التيطري عاصمة ومركزًا لولاية التيطري كذلك شرق الونشريس، والسرسو.

وبعد أن نقض الفرنسيون معاهدة تافنة أواخر عام (1839م)، أخذ جيش الاحتلال الفرنسي يزحف على هذه المنطقة لاحتلالها في إطار محاربة الأمير عبد القادر، وجرت على أديمها معارك مهولة، خاصة بعد أن قدم بيجو Bugeaud بقوات ضخمة عام (1840م)، ففي أواخر عام (1842م)، تفقد الأمير عبد القادر مناطق فليتة بسفوح الونشريس الشمالية الغربية، وأقام مدة لدى أولاد خسير، والصبيحات، وبني مسلم، وبني أوراغ. واصطدم بقوات الجنرال جنتل: Gentil والكولونيل لاباسي Lapasset في مطلع جانفي (1843م)، التي انطلقت من مستغانم. وطبق الجيش الاستعماري أسلوب الحرق، والتخريب، والسلب، ضد سكان بلحاسو، وأعالي جديرية، وتويزة، وواد عمور، وبني مسلم.

واضطر الأمير عبد القادر أن ينسحب إلى جبال الظهرة لمعاقبة سكان مازونة وقائدهم، الذين تضامنوا مع جيش الاحتلال، ومنهم ابن عبد الله؛ وقدور بن المخفي. وجند هناك حوالي 500 فارس، وألف خيال، وحقق انتصارات كثيرة على الأعداء، واستمال إليه سكان الظهرة ما عدا مازونة. وقام جيش الاحتلال بمعاقبة بني زروال، فخرب منازلهم، وقطع أشجار ثمار حقولهم وسلب منهم قطعان مواشيهم، خاصة بعد المعركة التي جرت حول ضريح سيدي لكحل يوم 12 مارس (1843م)، وقبض على النساء والأطفال، وصادر 400 رأس بقر، 3000 رأس غنم. ودامت المعارك في هذه المنطقة حوالي سبعين يومًا[1].

---

(1) Un ancien officier de l'armee du RHIN. Le general lapasset. (paris =

وخلال هذه الأحداث بين سكان المنطقة وجيش الاحتلال، ظهر الثائر محمد ابن عبد الله المدعو (بو معزة)، وتزعم حركة الثورة والمقاومة قرابة أربع سنوات.

اصل بو معزة وبداية حركته:

وهو ابن وداح بن عبد الله، من أولاد خويدم في حوض الشلف، هاجر أجدّاده الأوائل في وقت مبكر، من تارودانت بالمغرب الأقصى، إلى المغرب الأوسط (الجزائر)، واستقروا لدى أولاد يونس في جبال الونشريس. وارتبط في صغره بالطريقة الطيبية الدرقاوية[1]، وشب في وسط ديني، وارتبط بأرملة متدينة اعتقد فيها الناس الولاية والصلاح، ومال إلى حياة الزهد، والتقشف، واعتمد على الصدقات التي كان الناس يقدمونها إلى تلك الأرملة الصالحة[2]، ولم يكن يقاسمه وحدته سوى معزة. وقيل: غزالة، اهتم بتربيتها، ويصحبها أينما ذهب، مما جعل الناس يخلعون عليه لقب (**بو معزة**).

وقد أثار بوحدته، وتزهده، وثيابه الرثة، أنظار الناس، فاعتبروه شريفًا، وصالحًا، وشاعت شهرته في كل مناطق جبال الظهرة، وحوض الشلف، وجبال الونشريس، وادعى للناس أنه (**صاحب الساعة**)، والمهدي المنتظر، الذي أرسله الله، والسلطان العثماني، ليطرد المسيحيين من البلاد، ويخلصها من احتلالهم.

وبسبب نشاطه الدعائي الواسع خلال عام (1844م)، جند المارشال بيجو، قوات كبيرة لمواجهته، هو وأنصاره وأتباع الأمير عبد القادر، تزعمها الجنرال بورجوللي: Bourjolly، والجنرال ريقو: Reveu، والكولونيل سانت آرنو: Saint-Arnaud، والكولونيل لاد ميرولت: LAdmirault والكولونيل بيليسي:

=- ed 1899) T. 10 pp. 10 - 18.

(1) Henri Garrot: Histoire general de l'Algerie. (Paris - 1910) pp. 864 -866 .

(2) Lappasset et. IBID. p. 25.

Pelicier، وفي شهر مارس (1845م)، غادر بو معزة منزل سيدته، وولية نعمته، الأرملة العجوز، وقطع وادي عبدي واتجه إلى السواحلية فرع أولاد يونس، وقصد منزل الحاج حامد اليونسي. وقدم له نفسه باسم: محمد بن عبد الله **(صاحب الساعة)**، و**(المهدي المنتظر)** وأوضح له بأنه يسعى لطرد الفرنسيين من البلاد. وطلب منه أن يتعاون معه ففرح به وقدم له ملابس جديدة تليق بمقامه، وجمع له وجهاء القوم في المنطقة فحدثهم عن مشاريعه لطرد الفرنسيين، وادعى له بأن رصاص النصارى لا يؤثر فيه، وأنه سيهاجم عن قريب مدينة الأصنام، وكل مزارع المعمرين الأوروبيين. وكان هذا الادعاء سببًا في انتشار سمعته إلى كل المناطق والأقاليم السابقة الذكر.

ورغم تصديق بسطاء الناس أنه شريف ومبعوث من الرسول والسلطان العثماني لطرد جيش الاحتلال، إلا أنهم اختلفوا في أصله، فالبعض اعتقد أنه من أشراف فليتة، والبعض ظن أنه من المغرب الأقصى، وآخرون قالوا: بأنه قدم من مكة. وزودوه بالأموال، والأسلحة، والذخائر، والبغال، والأحمرة، وصنع له بعض الوجهاء علمًا للجهاد من الحرير، وأعطاه أحدهم حصانًا ليركبه وينتقل عليه.

وقام هو بتنظيم أتباعه، وأنصاره. فعين الكتاب، وجباة المال، والشواش، والجنود، وعين أغوات العساكر، وأغوات الخيالة، وخصص لأغوات الخيالة 15 دوروًا شهريًا، ولأغوات العساكر 10 دوروات. واتخذ لنفسه كاتبًا خاصًا يدعى سي الصادق[1].

أول مواجهة بينه وبين الفرنسيين:

وبعد أن انتهى من هذه التنظيمات، والاستعدادات، غادر أولاد يونس، وعسكر بوادي أوخلال قرب سيدي عيسى بن داود، على حدود منطقتي الأصنام،

(1) LAPASSET. IBID. P. 87.

ومستغانم. وشن غارة على قائد مديونة الحاج الصادق الذي كان معارضًا له، وقتله. واتجه يوم 14 إبريل إلى عرش الصبيحات في الشلف، بينما خرجت قوات فرنسية من مستغانم لاعتراض طريقه بقيادة سانت أرنو.

وفي كرونانسة بسهل قرني، في عرش الصبيحات جرت أول معركة بينه وبين القوات الفرنسية في نفس اليوم، فقتل له ستون من رجاله، وأسر له 15 آخرون، أعدمتهم القوات الفرنسية في الحال لإرهاب السكان. فانسحب إلى مازونة، وأخذ من هناك يراسل السكان، ويحثهم على حمل السلاح، ويشرح لهم خيانة خصومه الذين حاربوه أمثال الحاج بلقاسم وأتباعه. وجند له المازونيون 300 رجل، وأبدوا استعدادهم للمقاومة معه، واضطر سانت أرنو أن يجند المزيد من القوات ويلاحقه إلى سيدي عيسى بن داود، ويستدعي قوات أخرى من تنس[1].

تجند مع بو معزة عدد كبير من أخواله فرسان أولاد عبد الله من أولاد بهنى، بزعامة قائدهم محمد بن هنى، وأخذوا يحثون الناس على حمل السلاح، وهاجموا الضابط الفرنسي بياتريكس: Beatrix، رئيس المكتب العربي بتنس، في غاية واد ريحان، وقتلوه، وحزوا رأسه وأطرافه وحملوها إلى المناطق الجبلية ليحفزوا بها الناس على الثورة.

في يوم 18 إبريل خاض بو معزة وأولاد يونس معركة في منطقة بعل، ضد فرقتين فرنسيتين، وكاد كانروبير: Canrobert، نفسه أن يقع ضحية في يد الثوار. واستغل بو معزة هذا الانتصار فكاتب أولاد حيجه شرق تنس، لينضموا إليه، واستجابوا له كما استجاب سكان الظهرة، واشتركوا جميعًا في مهاجمة معسكر المضايق الفرنسي. وكان عددهم حوالي 500 ثائر، وجددوا الهجوم يوم 22 إبريل، واقتربوا من المدينة (تنس)، وقتلوا ضابط الهندسة الحربية الفرنسي[2].

---

(1) Paul Ajan: L'Emir Abdelkader 1808 - 1883 (Paris - 1925) pp.

(2) Lapasset. IBID. pp. 24 - 25.

وفي اليوم التالي تعرضوا لقافلة فرنسية بواد علال، كانت في طريقها من تنس إلى الأصنام، وخاضوا ضدها معركة دامت يومًا كاملًا، وحاصر فريق آخر من الثوار مدينة تنس نفسها، وقطعوا الطريق بينها وبين الأصنام، واضطر سانت أرنو أن يكاتب بورجوللي ويعلن له عن خطورة الوضع وثورة سكان 22 قرية جبلية بالمنطقة، على رأسهم بتوحيجه وبنو حوه. ويؤكد امتداد الثورة إلى أغوية الزاتيمة، وبني مناصر، وميتجة وشرشال إلى مدينة الجزائر[1]، وقد ذكر بول أزان بأنه ظهر في هذه الفترة بو معزة آخر خلال شهر إبريل (1845م)، لدى بني مناصر بسرشال، ولكن الفرنسيين اعتقلوه وأعدموه أمام الناس كما ظهر ثائر آخر يدعى محمد بن عبد الله من بني زقزق، سلم نفسه للفرنسيين بمليانة، وهو من أصل مغربي، وشقيق للأول[2].

وحاول شارل ريشارد، أن يحدد أسباب ثورة بو معزة، وسكان الونشريس والشلف والظهرة، وتساءل هل كانت نتيجة لطبيعة الحكم الفرنسي للأهالي، أم من تأثير مقاومة الأمير عبد القادر، أم من طبيعة الجزائريين أنفسهم، أم من تأثير الدين ؟ وانتهى إلى القول بأن أهم سبب لها هو نزعة الجزائريين المتقدة للجهاد والحرب الدينية، بسبب تأثير الدين، والطرق الدينية عليهم خاصة القادرية والطيبية[3].

مجازر بيليسي في جبال الظهرة:

دخل بو معزة إلى حوض الشلف، وانضم إليه سكان الصبيحات، على ضفتي الوادي بزعامة القائد محمد بن هني وراسله سكان جنوب مدينة الأصنام، وأمدوه بالرجال وبعض الأسلحة الخفيفة. واضطر جنود الاحتلال إلى تحصين مدينة

---

(1) Azan. Pp. 204 - 205.

(2) Azan. pp. 217 -219.

(3) Charles Richard: Etude sur l' insurrection de dahra 1845 - 1846. (Alger - 1846) pp. 71 - 170.

الأصنام بالخنادق والحراسة المشددة، وحاول بو معزة مرات عديدة أن يهاجمها ويحكم عليها الحصار فلم يفلح، ودامت مناوشاته ضدها، حوالي ثلاثة أشهر.

وأمام خطورة الوضع، وتفاقم أحداث بو معزة، جند بيجو قوات كبيرة، وقادها بنفسه إلى جبال الظهرة، ووصل إليها يوم 9 ماي وبقى بالمنطقة حتى يوم 12 جوان (1845م)، واشترك بنفسه في العمليات العسكرية والمعارك ضد الثوار. وارتكب بيليسي مجازر رهيبة ضد سكان أولاد رياح الثائرين بالظهرة. ذلك أن جماعة منهم وعددهم 500 شخص اعتصموا في المغارات الجبلية فرارًا من التنكيل والتعذيب ورفضوا الاستسلام، فقام بيليسي الذي كان يلاحقهم، بإشعال النيران في مداخل المغارات حتى يمنعهم من الخروج والإفلات، فماتوا جميعًا من جراء الاحتراق بالنيران، والاختناق بالدخان[1].

تدهور مركز بو معزة

كان بو معزة في بداية أمره قويًّا، وخاض عددًا من المعارك والمناوشات غير

---

(1) للاطلاع على المزيد من المعلومات عن مجازر بيليسي أولاد رياح انظر: 1 - يحيى بو عزيز: بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري تونس (1957) ص (219 - 221) ص (3) تونس (1983).

I Bosquet (R): l'Affaire des grottes du dahra (19 - 20 juin 1845) Alger 1908) 52 p.

II Derrecagaix (General) le general Peticier et les asphyxes des grottes du dahra (R.A. 1911). p. XIII. pp. 456 – 481

III Details authentiques sur l'Affreux drame dont les grottes des ouled Riah and ete le theatre. (La sentinelle de l'armee - S.A. 1845) p. 228.

VI Gautier (E.F.) un visite aux grottes du dahra. R.P. (Revue de Paris 1914) T. HI. pp. 729 - 758.

VII N.B. Les grottes du dahra. (Paris - 1864) 16 p

فاصلة، ولكن النتائج التي تحصل عليها كانت ضعيفة. فتضعضع مركزه وضعف، وتسرب الفشل إلى أتباعه وأنصاره، وعجز عن فرض إرادته عليهم كما كان يفعل الأمير عبد القادر، بسبب ضعف شخصيته، وسوء تخطيطه، وضعف الإمكانيات المادية خاصة الأسلحة والذخائر.

ومن سوء حظه كذلك معارضة كل من أغا الونشريس أحمد بن الشاوش، وأغا الصبيحات محمد بن عبد الله، له بدعم وتأييد من جيش الاحتلال الفرنسي، غير أن هذين الرجلين سيدفعان حياتهما ثمنًا لهذه المعارضة رغم حصولهما على تفوق في البداية.

فقد اعترض أحمد بن الشاوش، طريق بو معزة لدى بني قريرين، بينما كان يحاول الانسحاب إلى الجنوب، وافتك منه أمتعته، وقتل له عددًا من الرجال، فرد عليه بو معزة واعترض سبيله يوم 16 جويليه في وادي مروي قرب مازونة بينما كان يرافق موكب عرس ابنته، وقتله مع عدد من أفراد الموكب وسلب ما كان معهم من الأمتعة والأثاث، وحول موكب العرس إلى مأتم، وهاجم في مساء اليوم نفسه أغا الصبيحات وقتله كذلك، وتخلص من أكبر معارضيه.

ولا شك أن هناك أيادي ساعدته على ذلك، وليس من قبيل الصدفة. بعد هذه الغارات الخاطفة، انسحب بو معزة إلى مواطن فليتة، واعتصم بها بعض الوقت، وعضده في كفاحه الزعيم الثائر مولاي محمد، والحاج موسى الأغواطي من رجال الطرق الصوفية، وتعاونوا جميعًا على تجنيد الناس للعمل معهم، فامتدت أحداث الثورة بسبب ذلك وعمت كل الغرب الوهراني، إلى نهر ملوية، وامتدت شرقًا حتى إلى جبال الأوراس[1].

---

(1) عن الشريف مولاي محمد، والحاج موسى الأغواطي، انظر: يحيى بو عزيز: المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري. الأصالة. عدد (54 - 55) الجزائر - فيفري، مارس (1978)، =

وفي أوائل نوفمبر (1845م)، اتجه بو معزة إلى تنس، وهاجم في الطريق أعوان الفرنسيين، وحث الناس على الثورة، وأقام لدى بني مدوم بعض الوقت، ثم اتجه إلى غرب تنس، وأقنع سكان شراير بحمل السلاح معه، وأحرق بعض مزارع المعارضين له، وعسكر يوم 10 في المغارات، ثم انتقل إلى شرق تنس، وأخذ طريقه إلى الأصنام لمهاجمتها(1).

وفي أوائل جانفي (1846م)، اصطدم بالقوات الفرنسية، وأعوانها في وادي سيدي سالم فقتل له 150 رجلًا، بينهم الأغا ولد دربال، وبن هنى زعيم بني حيجه، وفقد الفرنسيون بعض الرجال كذلك. وانتقل من هناك إلى حوض وادي سيدي إبراهيم على الضفة اليمنى، وعسكر هناك وخاض عددًا من المناوشات الصغيرة، وفقد عددًا من الحيوانات، والأمتعة، والأسلحة.

وخلال شهر فيفري خاض سكان مديونة معارك قاسية ضد قوات الضابطين لاباسي، وكانروبير، في أحواز مازونة، وتنس، وتعضدت القوات الفرنسية، بوصول قوات بيليسي في شهر إبريل، وحمي وطيس المعارك في الظهرة، والشلف، والونشريس اشترك فيها بيجو نفسه(2).

تعضدت حركة بو معزة بعودة الأمير عبد القادر، من جديد إلى الجزائر من المغرب الأقصى، فانضم إليه واتجها معًا إلى جبال جرجرة، واشترك مع الخليفة أحمد الطيب بن سالم في مقاومة جيش الاحتلال الفرنسي(3)، غير أن بو معزة سرعان ما اختلف مع الأمير عبد القادر، وانفصل عنه في أكتوبر (1846م)، والتحق بسكان بني سناسن، وبني سنوس، في منطقة الحدود الغربية، ثم عاد إلى فليتة، وعضده

= ص (31 - 58).

(1) Richard pp. 10 - 20.

(2) Lapasset. pp. 23 - 35.

(3) AZAN. p. 219.

زعيمها ابن جلول، وجند له عددًا من المحاربين في فليتة، والظهرة، وجبل ديرا في منطقة سور الغزلان، وكان ذلك سببًا لامتداد حوادث الثورة إلى أولاد نايل، وأولاد جلال.

نهاية بو معزة:

كان عام (1846م)، صعبًا على جيش الاحتلال الفرنسي في هذه المنطقة، بسبب تجدد مقاومة الأمير عبد القادر، وحركة بو معزة ورفاقه. فجند بيجو قوات كبيرة ووجهها إلى المنطقة بقيادة كل من الضابط ماري مونج: Marey - Monge والجنرال هيربيون: Herbillon، وخاض الثوار ضدها معارك كثيرة في حوض وادي مينا بالشلف، وفليتة، خلال جانفي وفيفري (1847م)، وعجز بو معزة عن الصمود أمامها فانسحب إلى الظهرة، ومن ورائه مونج.

وفي أوائل مارس انتقل إلى الونشريس وخاض معركة كبيرة في ثنية الحد ضد مونج وهيربيون، في قلب الونشريس، وغرر به بعض أصدقائه غير المخلصين له، واعتقلوه وسلموه إلى سانت أرنو، وقيل: إنه سلم نفسه بإرادته، فأرسل إلى الجزائر العاصمة يوم 13 مارس (1847)، ومن هناك إلى طولون، وباريس حيث وضع في المعتقل. فأخذ من هناك يراسل أخاه عمر، وأباه وداح بن عبد الله، وصهره مصطفى ابن زيدان والأغا التلي من أولاد نايل، ومعزوزًا من أولاد ساعد بأولاد نايل، وذلك عن طريق الضابط لاباسي، يطلب منهم جميعًا أن يسعوا لجمع أفراد أسرته، وإسكانهم في مدينة تنس تحت كفالة لاباسي رئيس المكتب العربي بها[1].

---

(1) كان لبو معزة أب اسمه وداح بن عبد الله. وأم اسمها عيبشة بنت بو هني. وأخوان: واحد أكبر منه اسمه ابن عبد الله، والثاني أصغر اسمه عمر، وزوجة اسمها مريم بنت مصطفى بن زيان، قاضي أولاد يونس، وعمان: واحد اسمه قادة بن عيسى، والثاني اسمه بو خيرة بن التريكي، وكانا قائدين في عهد الأتراك، والأمير عبد القادر. =

وأثناء اعتقاله في باريس فر من السجن واتجه إلى مرسي بربست الحربي مشيًا على الأقدام، فاعتقل وأعيد إلى سجن قلعة هام إلى أن أطلق نابوليون الثالث سراحه بعد تسريح الأمير عبد القادر عام (1852م)، فسافر إلى الآستانة، وتطوع في الجيش العثماني خلال حروب القرم، ثم اتجه إلى العراق وأقام مدة في بغداد، وعاد بعدها إلى باطوم حتى عام (1878م)، ثم انتقل إلى دمشق وجاور الأمير عبد القادر مدة من الزمن قصيرة، ومن هناك رحل إلى شمال إفريقيا مرة أخرى على أمل تجديد حركة الكفاح ولربما خلال ثورة بوعمامة أو قبلها بقليل، ولما لم يوفق عاد إلى باطوم في البلاد العثمانية، ومات هناك بمرض الكوليرا[1].

وفي شهر أبريل (1848م)، ثار بنو حساين، وريغة، جنوب الجزائر العاصمة، وامتدت ثورتهم إلى أولاد نايل، والتيطري، وسور الغزلان، وثار بنو زقزق، وبنو مناد في المدية، ومليانة. وتعاون كل من الجنرال مونج حاكم المدية، والجنرال كامو حاكم مليانة، على محاربتهم، واستعملا أساليب الحرق، والتخريب، والقتل الجماعي، والتشريد، والمصادرة[2].

ب - ثورة سكان فليتة عام (1864م)

في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أولاد سيدي الشيخ في ربيع عام (1864م)، بالبيض والجنوب الوهراني، وانتشرت إلى جنوب العاصمة والواحات الشرقية، ثار سكان فليتة بجبال الونشريس، وحوض الشلف، بزعامة الشيخ المتصوف سي لزرق بلحاج، الذي ينتسب إلى الطريقة القادرية.

= انظر: لاباسي. ص (94 - 95).

(1) الأمير محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية (1903م)، جـ1. ص (296 - 297) و(313 - 314).

(2) CARROT. pp. 865 et 883 - 884.

وقد نسب الجنرال لاباسي أسباب هذه الثورة إلى الأمور التالية:

أولًا: اضطراب العقول وتشوشها، وتقلبات الأنظمة الإدارية الفرنسية.

ثانيًا: اضطراب أوضاع المكاتب العربية وضعف الحكام الإداريين.

ثالثًا: تعيين قواد جدد أجانب عن السكان لا يفهمون أوضاعهم ومشاكلهم.

رابعًا: ديمقراطية الشعب الأهلي.

خامسًا: قوة وكثرة الحركات الدينية في كل البلاد الإسلامية، ووقوفها ضد عوامل التحديث، والعصرنة والتطور.

سادسًا: إخلاء الجزائر من معظم القوات العسكرية الفرنسية التي أرسلت إلى أوروبا وأمريكا للحروب الاستعمارية التوسعية.

وادعى لاباسي في إحدى رسائله إلى الجنرال فلوري: Fleury، بأن سياسة اللين التي كان يتبعها الإمبراطور نابوليون الثالث تجاه الجزائريين، هي السبب في ثورة سي لزرق بلحاج ورفاقه، كما أن نشاط مبعوثي تركيا السريين، في طرابلس وتونس، وتغاضي المسؤولين عن إيقافهم هناك، وطبيعة العائلات الأرستقراطية الجزائرية، هي السبب الحقيقي في هذه الثورة، وهي التي يجب أن تناقش، كما أكد أن سي لزرق بلحاج، ادعى للناس خلال صلاة الجمعة، بأن شيخه عبد القادر الجيلاني، هو الذي أوحى إليه بمحاربة الفرنسيين الذين لا تؤثر أسلحتهم ورصاصهم فيه[1].

ويحاول لاباسي بهذه الادعاءات، والروايات، أن ينال من زعماء المقاومة الجزائرية، ويصمهم بالتعصب، والدروشة. وذلك هو موقف معظم الكتاب الفرنسيين في القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي تجاه المقاومة الجزائرية ورجالها.

وأغفل لاباسي أهم سبب لثورة سكان فليتة، وكل سكان الجزائر. وهو الرغبة

(1) LAPASSET. T. II. pp. 1 - 8.

في تحرير البلاد من ربقة الاستعمار، والحكم الأجنبي الذي استغلها، وأذل شعبها، وأهانه، واحتقره.

جند سي لزرق معظم سكان فليتة، وخاض معركة كبيرة في خنقة العازر يوم 27 أبريل (1864م)، ضد قوات الجنرال مارتينو: Martineuax، وقتل له 9 ضباط، و68 جنديًا، وجرح له 39. وقتل من الثوار 400 شخص حسب رواية لاباسي نفسه[1].

وخلال ليلتي 12 و13، ماي هاجم سي لزرق ورجاله قوات لاباسي في جهات واد مينا، ووادي رهيو، وميثافسا، وتعاون مع لاباسي كل من الأغا الحاج جلول، وابنيه: بلقاسم، وبلعالية. وكان عدد الثوار في هذه المعارك حوالي 2000 خيال و500 فارس. وتم تخريب معظم منازل زمورة، وغليزان، وانسحب لاباسي إلى الأخيرة. وطلب نجدّات، وأسلحة، وذخائر.

وبعد معارك زمورة، وغليزان، انسحب سي لزرق إلى دواخل فليتة وأخذ يعد للهجوم على معسكر الرحوية، وغيره، كما أخذ الفرنسيون يحصنون مراكزهم في عمي موسى، ووادي رهيو، ومستغانم، ونكماريا بالظهرة. وكثر هروب اليهود من غليزان وكل القرى المجاورة إلى مستغانم. وشاع لدى الناس يوم 19 ماي بأن الثوار يسيطرون على هضبة بايموت في أعالي مدينة مستغانم، واضطر اليهود إلى النزوح إلى ميناء المدينة على ساحل البحر[2].

جند سي لزرق سكان بني مسلم، وأولاد صابر، والشكالة، والحلوية، والكرايش ومديده إلى ثوار أولاد سيدي الشيخ الآخرين، وأصبحت غليزان مفتوحة للثوار من كل جهة. وأرغم الأوروبيون على إيقاف الأعمال في معسكر عمي

(1) IBID. pp. 8 - 15

(2) IBID. pp. 18 - 22.

موسى. وأخليت القرى الموجودة بين غليزان ووادي رهيو، على طريق الجزائر العاصمة، وفر الأوروبيون وباقي اليهود إلى مستغانم.

وقد تمكن سي لزرق من تخريب معسكر الرحوية الفرنسي يوم 20 ماي، ومعسكر عمي موسى، ووادي رهيو، وواصل نشاطه الثوري حتى قتل في معركة (ظهرة عبد الله) يوم 8 جوان (1864م)، أمام قوات الجنرال روز ROSE، الذي كان مكلفًا بملاحقته[1].

وخلفه في القيادة سي عبد العزيز الذي سرعان ما سلم نفسه للفرنسيين، أو قبض عليه، يوم 25 جويليه من نفس العام[2].

ورغم مقتل سي لزرق، واستسلام سي عبد العزيز، فإن أحداث الثورة استمرت في فليتة، والونشريس سنوات طويلة، في إطار ثورة أولاد سيدي الشيخ، وشهدت المنطقة أحداثًا كثيرة، وسجل السكان صفحًا مشرقة في تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية، وكانت ثورة بني مناصر عام (1871م) حلقة من حلقات كفاح سكان هذه المنطقة ضد الاستعمار الفرنسي.

جـ- انتفاضة سكان بني مناصر في شرشال ومليانة عام (1871م):

أسباب الانتفاضة:

اجتمعت عدة ظروف، وعوامل لاندلاع هذه الانتفاضة، معظمها يعود إلى السلطات الاستعمارية التي كانت تمارس سياسة الضغط، والتفرقة، والإرهاب، ضد السكان.

---

(1) Charles Fereud: Le SAHARA de cpnstantine (Alger - 1887) p. 500. et LAPASSET.pp. 23 – 35.

(2) Trumelet: note pour server l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger. R.A. (Alger – 1879) pp.

فلقد كان بهذه المنطقة عائلتان كبيرتان تتقاسمان النفوذ، والمكانة الاجتماعية بينهما، ولربما الدينية والسياسية. وذلك من أزمنة بعيدة.

- عائلة الغبريني في أحواز شرشال، وكانت موالية للفرنسيين من بداية الاحتلال، وزعيمها في هذه الفترة هو إبراهيم بن محمد السعيد الغبرني، قائد قواد الزاتيمة، الذي اشترك مع جيش الاحتلال الفرنسي في محاربة مصطفى بو مزراق باي بابليك التيطري الأخير في مطلع الاحتلال الفرنسي.

- وعائلة البركاني صاحب الضريح المشهور بمليانة. وزعيمها في هذه الفترة وهو مالك البركاني بن الصحراوي ابن أخ محمد بن عيسى البركاني خليفة الأمير عبد القادر سابقًا على ولاية التيطري بالمدية، وكان مالك البركاني قد نفاه الفرنسيون عن المنطقة مدة 14 عامًا من عام (1842) إلى عام (1856م)، وعندما عاد وهدأ، واستقرت الأحوال لهم، عينوه قائدًا على بني مناصر الشراقة بالمنطقة عام (1865م)، ومن نفوذه ومكانة عائلته استمر في الهبوط والانخفاض لصالح عائلة الغبرني وذلك من الناحية السياسية.

وقد ادعى لويس رين بأن البركانيين كانوا شعبيين أكثر من الغبرينيين، وأن محمد البركاني كان رئيسًا دينيًا، وسياسيًا، لسكان منطقة شرشال، ومنافسًا كبيرًا للمقرانيين والرحمانيين معًا[1]. أما قارو، فقد ادعى بأن الفريقين كانا عدوين دينيين، وسياسيين، للمقرانيين، والرحمانيين معًا[2].

وهو ادعاء ينبغي أن يكون محل نظر؛ لأن منطقة شرشال بعيدة عن منطقة المقراني والحداد، وثقل كل فريق يتمركز في منطقة معزولة عن الأخرى، على أن

---

(1) Louis Rinn: Histoire de l'insurroction de 1871 en Algerie. (Alger - 1891) pp. 508 - 513.

(2) Garrot. Pp. 973 - 975.

قارو، سرعان ما ناقض نفسه عندما ذكر أن الرحمانيين عندما حاولوا دفع الفريقين إلى الثورة يوم 30 أبريل (1871م)، عارض المولود الحبوشي الغبريني في ذلك، بينما تغاضى مالك البركاني عن الأمر، وكان ذلك سببًا في حدوث مشاكل له في إدارته[1]. وأكد رين بأن البركاني كان صديقًا للفرنسيين، وشارك في محاربة بوبغلة ومطاردته[2].

بوادر الانتفاضة:

في يوم 30 أبريل (1871م)، كلف الفرنسيون، كلًّا من مالك البركاني، والمولود الحبوشي الغبريني، باستخلاص ضرائب المكس في سوق مدينة شرشال، فرفض السكان ذلك، وقذفوهما بالحجارة، مما يدل على أن التذمر كان موجودًا، وأن تأثيرات ثورة المقراني والحداد شرق البلاد، وصلت إلى هذه المنطقة. وهذا مما يؤكد بعض ادعاءات قارو، ورين. وفي يوم 6 ماي اجتمع شيوخ بني مناصر من صف البركاني في قبة أحمد بن يوسف قرب سوق الحد، واتفقوا على قتل الحبوشي والتخلص منه كما يزعم رين دائمًا، وفي اليوم التالي قرر مجلس بلدية شرشال إجراء تحقيق مع الحبوشي، فقدم استقالته في اليوم التالي احتجاجًا على ذلك، وانتقل بعائلته إلى بني فراح، وكلف مالك البركاني بتولي منصبه لقدرته على السيطرة على بني مناصر الغرابة.

قبلت السلطات الفرنسية استقالة الحبوشي يوم 20 ماي، وعينت في مكانه محمد السعيد الغبريني، من نفس العائلة، فغضب بنو مناصر، وكتبوا رسالة إلى الحاكم العام الأميرال الكونت دوقيدون: Dugerydon، يوم 22، طلبوا منه فيها تعيين البركاني قائدًا عليهم، بدلًا من الغبريني، فحول رسالتهم إلى حاكم مليانة

(1) GARROT. IBID.

(2) RINN. IBID.

العسكري لإجراء تحقيق في الأمر يوم 30 جوان. وخلال يومي 28 و29 جوان، اجتمع بنو مناصر ليتداولوا الأمر، وعزموا مرة أخرى على قتل السعيد الغبريني، والقائد الجديد، في الوقت الذي كانت فيه لجنة التحقيق متجهة إليهم. وأدت هذه التطورات كلها إلى قيام السعيد الغبريني بتقديم استقالته خوفًا على حياته، وفي ثاني جويلية قدم فارلو: Varloud، رئيس المكتب العربي بشرشال، إلى تامزيت، وأعلن لبني مناصر بأن تعيين السعيد الغبريني قائدًا لم يبت فيه بعد، ولم يصبح رسميًّا، وأن هناك تفكيرًا لدى السلطات في تعيين قائد جديد من غير العائلتين المتناحرتين أصلًا، وذلك حسمًا للنزاع والخصام.

وقد توالت الحوادث بعد ذلك بسرعة، فكتب بنو مناصر رسالة أخرى إلى الحاكم العام يوم 4 جويلية، رفضوا فيها قبول تعيين المولود عبدي، قائدًا عليهم، وهو من مواليد حفيان ببني حبيبة، وطلبوا أن تلحق منطقتهم ببلدية شرشال، إذا تعذر تعيين البركاني قائدًا عليهم. فتردد دوقيدون في تنفيذ قرار تسمية عبدي قائدًا عليهم بعد اتصاله بهذه الرسالة[1].

اندلاع الحوادث:

هكذا كانت سياسة السلطات الاستعمارية، من ضمن أسباب اندلاع انتفاضة بني مناصر، في يوم 13 جويليه اجتمع وجهاء بني مناصر في سوق الحد، وقرروا إعلان الجهاد، والثورة المسلحة. واتفقوا على أن يزحفوا في اليوم التالي على قرى المنطقة: نوفي، وزوريخ، والزاتيمة، وشرشال، ولم يكن البركاني حاضرًا في هذا الاجتماع، ولكنه كان على علم به، وعلى صلة بالحوادث كما يروي رين. وقام السعيد الغبريني وعبدي بن المولود بإبلاغ السلطات الفرنسية في شرشال، بما جرى في هذا الاجتماع، وما اتفق عليه في اليوم التالي مباشرة.

(1) IBID. pp. 513 - 519.

وقد ذكر رين أن السلطات الفرنسية، وجهت في البداية التهمة لعائلة الغبريني الدينية، في حين كان ينبغي توجيهها لعائلة البركاني، وفرنسا معا، وذلك لأن إبراهيم ابن محمد السعيد الغبريني، قد تولى بنفسه إبلاغ الحاكم الأعلى الفرنسي وشيخ بلدية شرشال، بالوضع الجديد المتدهور، منذ 13 جويليه. فكيف توجه التهمة إذن لعائلته[1]؟

اتفق الثوار على تعيين مالك البركاني قائدًا عليهم ولقبوه **(أغا المجاهدين)** ووزعوا أنفسهم إلى ثلاث فرق رئيسية:

- فرقة برئاسة مالك البركاني نفسه وأخيه إبراهيم، ومصطفى بن عبد الله مالك، ومحمد أوجلول أوزهرة. وتقرر أن تتجه لمهاجمة شرشال.

- وفرقة ثانية لبني مناصر الشراقة برئاسة علي بن أحمد أوكرجوج، صديق جماعة البركاني. وكان من أكبر المحرضين على هذه الانتفاضة، ولعب فيها دورًا بارزًا. وكانت له صلات وصداقات مع بعض زعماء ثورة المقراني والحداد بشرق الجزائر، وتقرر أن تتجه لمهاجمة قرية زوريخ.

- وفرقة ثالثة لبني مناصر الغرابة بقيادة أحمد أودادي، ورؤساء الدواوير الأخرى. وتقرر أن تتجه لمهاجمة قرية نوفي.

اهتم مالك البركاني بتدعيم صفوفه وجبهته، وحاول أن يضم إليه كل بني مناصر الغرابة والشراقة الآخرين، لكي يضيق الخناق على جماعة الغبريني، والحبوشي، وعبدي. فكاتب سكان المناطق المجاورة، وأرسل عددًا من المبعوثين للدعاية والاستنفار. وتمكن من استمالة كل من قدور بن مبارك، من بني مناد بالقليعة، أحد أصدقاء الأمير عبد القادر السابقين. وعبد القادر بن مختار من بني فراح بمليانة خصوم أولاد الخلادي أحفاد الشيخ أحمد بن يوسف بمليانة[2].

---

(1) IBID. pp. 508 - 513.

(2) IBID. pp. 527 - 519.

وفي يوم 14 جويليه (1871م)، زحف الثوار في الاتجاهات الثلاثة وفشل السعيد الغبريني، وأخوه، في منع سكان الزاتيمة، وقوراية، وغيرهما من حمل السلاح. واضطرا أن يفرا حتى ينجوا من سوء المصير، بعد أن قطع الثوار كل الطرق والمسالك. واعترض الثوار قافلة الضابط فارلو على بعد 2 كلم من نوفي، واصطدموا معها، وفرضوا الحصار على القرية وأعدوا كمينًا للهجوم عليها. وفي اليوم نفسه هدد الثوار قرية حجوط، وأحرقوا نزل حمام ريغة، ليلتي (16 و17) جويليه، وقتلوا عددًا من الحراس الأوروبيين. واضطرت السلطات الفرنسية أن تنجد المنطقة بقوات من القليعة بقيادة الضابط دوزاندري: Desandre، اتجه بها بعد ذلك إلى زوريخ أيضًا لإنقاذها.

أما البركاني فقد عسكر في مزرعة للمعمر تريبي: Tripier، قرب شرشال، وأخذ يعمل على إحكام الحصار حولها، وتجنيد المزيد من المسلحين. وبسرعة انتشرت حركة الثورة لتشمل كل المنطقة من حجوط إلى أحواز العاصمة، وقطع الثوار الجسر الذي يوصل إلى قرية زوريخ ليلة 16 من الشهر، وأحرقوا معمل عصر الزيتون بواد ملاح على بعد 35 كلم من شرشال. وهرب أوروبيو المنطقة إلى مدينة تنس، بصحبة القائد الحاج إبراهيم بلقاسم الموالي لهم. وحاصر الثوار شرشال من جهة سيدي يحيى، وبمزرعة المعمرتاولي، ولم ينقذها إلا المراكب البحرية الفرنسية، التي كانت راسية بالميناء، وتم إحراق المزارع والمشاقي الموجودة حولها.

وفي يوم 23 جويليه هاجم الثوار قرية بينان، وقتلوا عددًا من الأوروبيين وأحرقوا رحى للحبوب، وتعاون كل من الباشاغا بو علام بن الشريف، والأغا سليمان بن صباح، والضابط قراد: GRAD، ضد الثوار في حمام ريغة، مع قوات قادمة من الجزائر العاصمة، وكتب مالك البركاني إلى ابن صيام ليقنعه بموقفه، ويبرر له عداءه للسعيد الغبريني الذي تآمر عليه. فحول ابن صيام رسالته إلى حاكم مليانة العسكري.

وفي يوم 25 هاجم الثوار قافلة عسكرية فرنسية قرب قرية زيوي، وخاضوا معركة واد بلاع، قرب مزرعة المعمر برانكور في جبل الشنوة. وقتلوا 31، وجرحوا عددًا آخر من الأوروبيين، وقطع مجموعة أخرى من الثوار الماء على مدينة شرشال ليلة 26، وأحرقوا بعض المزارع حولها ومنها مزرعة نيكولا.

وبسبب خطورة الوضع على الفرنسيين بهذا الشكل، جندت السلطات الفرنسية، قوات كبيرة برية، وبحرية، من كل الجهات: مليانة، والعاصمة، وبجاية. ووجهتها إلى المنطقة. وأخذت طرادات: كليبر Kleber، وDesax، في قذف جموع الثوار. وزحفت قوات أخرى من البر بقيادة بوسكي، على نوفي، واستعادتها بعد أن خربت تمامًا. واستعان بوسكي بقوات نقلتها إليه الباخرة كليبر بحرًا.

تعاونت هذه القوات كلها ضد الثوار، وسقط مالك البركاني قتيلًا يوم 2 أوت في معركة قرب زوريخ على طريق شرشال القديم، وكان مقتله ضربة قاسية على حركة الثوار. ولم يستطع أخوه إبراهيم الذي خلفه أن يملأ الفراغ . وتمكنت القوات الفرنسية من استعادة زوريخ. واتجه فيكو، وبونسار، إلى زاوية البركاني بمليانة، وهدماها وجرت معارك أخرى يومي (6 و7)، أوت في عين العنصر، وفج محلي، وتواصلت بعد ذلك يومي (19 و20)، وهاجم الثوار قوات نيكو، في بني زيوي، بقرية إغيل أوزرزور، وتاحانوت، وأرغم إبراهيم البركاني على الاستسلام. وخرب الفرنسيون معظم القرى والمداشر في المنطقة.

وفي يوم 21 أوت انتهت حوادث الثورة[1]، وطبقت السلطات الفرنسية عقوبات صارمة، ضد عائلات الثوار تتمثل في مصادرة أراضيهم، وديارهم، وأمتعتهم، وفي تغريمهم بضرائب حرب فوق طاقتهم، ومحاكمة عدد جديد من الرجال أمام محاكم عسكرية، ومدنية[2].

---

(1) GARROT. pp. 975 - 978.

(2) Le Colonel Philibert: expedition dans les BENI MENACER en 1871.=

وقد عثرنا في دار محفوظات إيكس آن بروفانس، على رسالة لقائد الشنوة إبراهيم بن الحاج وجهها إلى الحاكم العام الفرنسي طلب منه تعويضًا على ضياع فرس له خلال حوادث هذه الانتفاضة، بعد أن تألفت لجان المصادرة والتعويض لصالح المتضررين[1]. نوردهما فيما يلي بلغتها الدارجة.

رسالة قائد الشنوة إلى الحاكم العام يطلب تعويضًا عن ضياع فرس له خلال أحداث (1871م)

الحمد لله[2]، وحده ولا يدوم إلا ملكه.

إلى المعظم المحترم من والله إليه أمرنا، ومن إلى الله وإليه شكواتنا (كذا).

سعادة القفرنور[3]، حاكم الجيوش البرية والبحرية عليكم ألف سلام، وعلى كافة من تعلق بكم فالمطلوب من الله ثم من جزيل فضلكم تأمر على الجماعة المكلفة بدراهيم الحصاير[4]، متاع سنة (1871م)، إلى قائد في شنوة ماكث في داره وأتت له بطاقة من عند المير[5] متاع زوريك لعزم عنده بناس شنوة لا أنهم (كذا) تحركوا ليغيثهم وصابوا[6]، بني مناصر سبقوا ونهبوا البقري (كذا)، متاع المكولون[7]، ولما

= (paris - 1873) 55 p.

(1) Archives d'outremer aix en Province (A.O.M) carton 2h80.

(2) A.O.M. Carton 2h80.

(3) أي: الحاكم العام من الكلمة الفرنسية: GOUVERBEUR.

(4) أي: الحصر والإحصاء لأملاك الثائرين، والمتضررين. ويقصد بذلك دراهيم التعويض عن أضرار الحرب خلال الانتفاضة.

(5) أي: شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية: Le MAIRE.

(6) أي: وجدوا.

(7) أي: المعمرون من الكلمة الفرنسية: Les cohons.

وصل أبي مع الرعية متاعه ضربوا المكولون، وقتلوا له عود[1].

فالمطلوب من الله ثم منك تأمر الجماعة المكلفة يغريموا (كذا)، لنا عودنا، وعليكم ألف سلام من خديمكم إبراهيم بن الحاج محمد بن إبراهيم الذي كان قائد شنوة بتاريخ في سبتامبر سنة (1871م).

وكما كانت هذه المنطقة مسرحًا ومركزًا للمقاومة والثورات الوطنية المسلحة في القرن الماضي، كانت كذلك قلعة صلبة للكفاح المسلح في ثورة التحرير الكبرى، أول نوفمبر (1954م، 1962م)، وخاض السكان بها معارك بطولية خالدة، وواجهوا بشجاعة وبطولة العمليات العسكرية الضخمة والمكثفة التي شنها عليهم وعلى منطقتهم الجيش الفرنسي، خاصة أثناء مشروع شال العسكري الضخم والكبير والطويل والعريض خلال عامي (1958م، 1959م)، والذي تلاهما.

ومن ضمن هذه العلميات: عملية رباط أو سير الجلد (Courtoire)، وعملية الصرصور، (Cigal)، وعملية التاج أو الإكليل (couronne).

وهكذا كانت جبال الونشريس، والظهرة، وزكار، وحوض الشلف، والأطلسين: التيطري، والبليدي، قلعة من قلاع الصمود، والمقاومة البطولية، والفداء. كما كانت قلعة من قلاع العلم، والفكر، والثقافة، والإيمان.

❑❑❑

(1) أي: فرس.

بعض المراجع المعتمدة في البحث

أ - بالعربية:

- بو عزيز (يحيى):

أ - بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ط 3 تونس (1983)، ص (366).

ب - ثورة (1871) (دور عائلتي المقراني والحداد)، الجزائر (1978) ص (471).

ج - ثورات الجزائر في القرنين (19 و20)، قسنطينة (1980) ص (550).

- تشرشل (شارل هنري):

حياة الأمير عبد القادر، ترجمة سعد الله (د. أبو القاسم). (تونس)، (1974م)، ص (334).

- محمد (الأمير):

تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. الإسكندرية (1903م) أ جـ2. ص (314 + 331).

ب - بالفرنسية:

- Algerie: S.A. (la Sentinelle de l'armfc - 1845) pp. 138 - 139 et 148.

- Ajtan (Paul) l'Emir Abdelkader 1808 - 1883. (Paris - 1925).

- Bardon (Jean - Baptiste - Xavier): Histoirt nationnal de l'Algerie (PARIS - 1886) 428 p.

- Berard (J.H.P.L.) les deux villes de Tenes el bon - Maama (Alger - 1864) 166 p.

- Berque (A): Essai d'un Biblographie critique des confines musulmans Algeiiennes. Eul. Soc. G; Arch. (Oran - 1918) pp. 135 - 174 61 193 - 233.

- Bosquet (A) I' Affaire des grottea du dahra (19 - 20 juin 184S) (Alger - 1908) 52 p.

- Compagne d'Afrique 1835-1848. lettres adressees en marechal de castellane par ies marecham: BUGEAUX, CLAUZEL, VALEE, Conrobrt, farey. Bosquet, et let genSraux: changarnier, de lamoticiere, le FLO, de negrier de WIMPFFEN, CLER, ect. (Paris - 1898) 563 p.

- Decrecsgaix (Central) le general Pelkier et Ies asphyciers des grottej de dahra. (R.A - 1911). T. XII pp.456481.

- Details Athentiques sur I'Affreux drame dont est les grottes des ouled RiAH and ete le theatre. (S.A. 1845) p. 228.

- Heuiy (GENERAL): (CTEEMILEF ELIX) Souvenir! du general conite Fleury 1837 - 1867. (Paris – 1897 –1898) 2 Vol.

- Franque (ALFRED) Les Princes en Afrique (Paris - 1886) H + 708 p.

- Gartot (HENRI) Histoire general de 1'Algerie (Paris - 1910) 1189 p.

- Gautier (E.F.) A - I'Algerie et la netropole (Paris - 1920) IX + 254 p.

- B - Une visile aux grogltes du dahara (R.P.) 1914 T. III. pp. 729 - 758.

- Hugonnet (Ferdinaud) Frantais et Arabes en Algirie. Lamoridere Bugeaud, Daurrms, Abdelkader, ete (Paris - 1860) 277 p.

- Joly (A) Etude sur les chadouliyBs. (R.A. 1806) pp. (336 - 347. 1908) pp.

- Julien (ch.A.) Hisioire de I'Alg&te comtemporaine 1827 - 1871 (Parisl964 6 32 p.

- Kiva Pseudonume de Wachi (L.C. Paul): I'Algeric et ses insurrections Revue d'Infanterie T.V, pp. 402 - 409.

- Ladimir (J) les guerres d'Afrique (Paris - 1849) 431 p.

- Le Sainl (J) fasies de I'Algeie ancienne et moderns (LIMOGES

- 1873) 236 p.

- N.B. Les grottes dn dahara. (Paris - 1864) 16 p.

- Nouvellcs Afriquc: (S.A. 1843) pp. 20 - 22, 196 - 197, 243, 303 - 310 (1847) p. 131 p.

- Pelicier de Reyhaud (E): Annales Algerienne (Paris - 1854) 3 Vol. Vll + 478 + 517 + 535 p.

- Peret (E): Les Francais en Afrique. Recites Algerien (Paris - 1887) 2 Vol. IX - 483 + 489 p.

- Philbert (Le Colonel): Expedition dans les feni menacer au 1871 (Paris - 1873) 55 p.

- Quesnel (G) histoire de la ocnquele de l'Algerie. (Paris 1890) 190 p.

- Richard (Charles): Etude sur I' insureaion de dahra 1845 - 1846. (Alger - 1846) 203 p.

- Roussel (Camilles): la conquete de l'Algerie I'insurection du 1845 - BOUMAZA R.D.M.T. LXXXXIII. pp.761 - 800.

- Thureau - Dangin (P) Eludes d' histoire contemporaine, les dtrnieres annees du marechal Bugeau en Algerie. 1844 - 1847 (cor. 1891) T. clxll. pp. 119 - 150. 502 - 539.

- Trumclet (C) Notes pour servire l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger. R.A. (Alger - 1679).

- Un ancien Offider del'annee du Rhin: le General Lapasset. (1817 - 1875 Paris 2 eme ed 1899) 2T. 500 + 450 p.

